40

2015

وفي أنفسكم

لعلهم يتفكرون

نحو ثقافة نفسية أفضل لحياة طيبة

خارج الإصدار المتسلسل لكتاب الشبكة:

الإصدار الأربعون

2015

إصدارات مؤسسة العلوم النفسية العربية

سكينـــة الإيمـــان

ألا بذكـــر الله تطمئـــن القلـــوب

د. محمـــد كمـــال الشريـــف

الفهـــــــــرس

تقديم بقلم الدكتور عبد الرحيم حسين هويدي	8
مقدمة المؤلف	12
القسم الأول: أثر العقيدة في المشاعر	14
أ - القلق	14
1- الفصل الأول: حكمة الخالق في القلق النفسي	14
2 - الفصل الثاني: أنواع القلق الإنساني	16
3 - الفصل الثالث: شفاء لما في الصدور	31
4 - الفصل الرابع: لا تخشى الإخفاق	40
5 - الفصل الخامس: آجال مكتوبة	42
6 - الفصل السادس: نعمة الوجود	44
7 - الفصل السابع: قلق الموت	46
8 - الفصل الثامن: فلنحيينه حياة طيبة	48
9 - الفصل التاسع: قدر حتى لو كان مصادفة	50
10- الفصل العاشر: المصائب ابتلاء وأقدار لا انتقام	63
11 - الفصل الحادي عشر: مكانة عند الله لا عند الناس	83

12 - الفصل الثاني عشر: لا إحباط مع الإخلاص	86
13 - الفصل الثالث عشر: لا قلق مع التوحيد الخالص	89
14 - الفصل الرابع عشر: لا قلق مع الاستغفار والتوبة	91
15 - الفصل الخامس عشر: لم يبق من النبوة إلا المبشرات	93
16 - الفصل السادس عشر: أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك	95
17 - الفصل السابع عشر: ولا أبالي	97
18 - الفصل الثامن عشر: صريح الإيمان	111
(ب) - الاكتئاب	114
الفصل الأول: فراق لا انتهاء.	114
الفصل الثاني: إن الإنسان خلق هلوعاً .... إلا المصلين.	116
الفصل الثالث: وبشر الصابرين.	119
الفصل الرابع: الفرح والمرح في القرآن	121
القسم الثاني: أثر العقيدة في الأخلاق	125
(أ) الغيظ والغضب	125
الفصل الأول: الغيظ انفعال، والغضب فعل إرادي	125
الفصل الثاني: الغضب ثورة تضر ولا تنفع	127
الفصل الثالث: اغفر وادفع بالتي هي أحسن	129
الفصل الرابع: الذي يملك نفسه عند الغضب	132
الفصل الخامس: فلنحذر سوء الظن	134
الفصل السادس: حسن الخلق والتحكم في الانفعالات	136
الفصل السابع : الرضا بالقدر والتحذير من " لو"	138
الفصل الثامن: لعلك ترضى	140

(ب) – الحياء والخجل والرياء 142
الفصل الأول: لا دونية مع الإيمان 142
الفصل الثاني: حياء لا خشية 144
الفصل الثالث: حياء مع جرأة في الحق 146
الفصل الرابع: آداب تقضي على الخجل والخشية 148
الفصل الخامس: خلق الإنسان الحياء 151
الفصل السادس: حياء لا رياء 153
(ج) – الموقف من الآخرين 156
الفصل الأول : الحب تلك العبادة المنسية 156
الفصل الثاني : الغيبة بلاء على قائلها 158
الفصل الثالث: ولا تحاسدوا 159
الفصل الرابع: ستر أو حد 162
القسم الثالث: في الدوافع النفسية 166
أ- خلفاء أم متألهون 166
الفصل الأول: معنى الحياة 166
الفصل الثاني: اختبار الصلاحية للخلافة في الأرض 169
الفصل الثالث: الفطرة في اللاشعور 171
الفصل الرابع: الران 173
الفصل الخامس: حقيقة الكبر 175
الفصل السادس: الكبر يدفع إلى الكفر (أ) 178
الفصل السابع: الكبر يدفع إلى الكفر (ب) 180

الفصل الثامن: المتألهون الجاحدون	182
الفصل التاسع: اختبار القابلية للهداية	185
ب-مشكلة الدافعية عند المسلم المعاصر:	188
الفصل الأول: النية والدافع النفسي	188
الفصل الثاني: فهو في سبيل الله	190
الفصل الثالث: خلفاء الله في أرضه	192
الفصل الرابع: بل عباد مكرمون	195
الفصل الخامس: بالتقوى يصير المباح عبادة	198
القسم الرابع: أثر العبادات في النفس المؤمنة	202
أ - الصلاة	202
الفصل الأول: حديث النفس وحضور القلب	202
الفصل الثاني: الخشوع وحضور القلب في الصلاة	204
الفصل الثالث: التسبيح	209
الفصل الرابع: (وجعلت قرة عيني الصلاة)	211
فصل الخامس: تنهى عن الفحشاء والمنكر -1	213
الفصل السادس: تنهى عن الفحشاء والمنكر -2	215
الفصل السابع: تنهى عن الفحشاء والمنكر -3	217
(ب) الزكاة	219
الفصل الأول: تطهرهم وتزكيهم بها.	219
(ج) - الصيام والاعتكاف	231
الفصل الأول: نظرات نفسية في الصيام	231

1 - "لعلـكم تتقون" 231
2-" إن الله مبتليكم بِنَهَر " 232
3- " فإنـــه له وجـــاء " 234
4- " فَلْيَقُلْ : إنـــي صائـــــم " 236
5- "الصيـــام لا يسبب العصبيـــة" 238
6- "لا حــــــرج " 239
7- " في السحـــور بركـــة " 241
8- " وبالأسحـــار هم يستغفـــرون " 243
9- "الصـــوم التـــــزام" 244
10- "الصيام تهذيب نفسي" 246
11 - الفطر على التمر 247
الفصل الثاني: رمضان شهر القرآن 249
الفصل الثالث: الاعتكاف ذكر وحرية 250
(د) الحج 253
الفصل الأول: من الآثار النفسية للحج 253
الفصل الثاني : الحكمة في مناسك الحج 258
الفصل الثالث : المزيد من الآثار النفسية للحج. 265
خاتمة 267

تقديـــــم بقلـــم الدكتـــور عبـــد الرحيـــم حسيــــن هويـــــدي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله، والصلاة والسلام على محمد عبد الله ومصطفاه....

علم النفس علم إنساني هام، يعرف بأنه "الدراسة العلمية للسلوك والعمليات العقلية".. تاريخه طويل، يرجع إلى القرن الرابع قبل الميلاد والعلماء الإغريق، وفي الوقت ذاته فهو علم حديث من الناحية التطبيقية، حيث إنه لم يشهد انتشاراً واسعاً إلا مع بداية القرن العشرين. وازدهر خصيصاً بعد الحرب العالمية الثانية.

عرف الباحثون أهميته، واعترفوا بالحاجة الماسة للتعمق في دراسة السلوك، والعوامل التي تؤثر فيه، فنتج عن ذلك كم هائل من المادة العلمية في هذا المجال، وبات تخصصاً أساسياً تكاد لا تخلو جامعة من توفيره لطلاب العلم.. ومع زيادة انتشاره، وما نتج عنه من اكتشافات، تشعب هذا المجال إلى عشرات التخصصات، أثرت في جوانب عديدة وأساسية من حياتنا العصرية، وأثرتها.

فبالإضافة إلى قيامه كعلم مستقل بفروعه المختلفة، فقد أثرى علم النفس: العلوم الطبية، والاجتماعية، والقانون، والتعليم، والسياسة، والعلوم الإدارية، والنهضة الصناعية.

ولعل أهم من تأثر بعلم النفس هو الإنسان العادي، فقد أصبح هذا العلم مرجعاً له في كثير من جوانب حياته، يرجع إليه الإنسان في محاولته لفهم نفسه، وتفهم سلوكه ومشاعره، ويرجع إليه في محاولته لتحسين علاقته ومعاملته مع الآخرين.

يرجع إليه الزوج ليعينه على التعامل مع زوجه، ويلجأ إليه الوالدان ليعينهما على فهم سلوك أطفالهما وتربيتهم.

علم النفس علم إنساني هام، يعرف بأنه "الدراسة العلمية للسلوك والعمليات العقلية

يرجع إليه صاحب العمل ليحسن أداء موظفيه، ويزيد من إنتاجهم، ويرجع إليه القائد والمسؤول ليستعينوا به على قيادة مرؤوسيهم، ويأوي إليه من يعاني من اضطرابات وأمراض نفسية، ليستفيد منه في استرجاع بصيرته، وتغيير سلوكه.

ولعل من أهم خصائص علم النفس أنه مجال جذاب، حيث إنه يثير فضول طلابه وقارئيه، وينال احترام الكثيرين الذين وجدوا فيه مصداقية وفائدة. وميزة أخرى لعلم النفس، وما هي بأقل أهمية، وهي أنه ليس موجهاً أو مصمماً لطائفة محددة من طلاب المعرفة أو المتخصصين، بل إن كل إنسان يجد فيه شيئاً مشبعاً لحاجة ما.

أثرى علم النفس: العلوم الطبية، والاجتماعية، والقانون، والتعليم، والسياسة، والعلوم الإدارية، والنهضة الصناعية.

ولكن ونقولها بمرارة: فإن هذا العلم المهم والشيق، احتكر من قبل المجتمعات المتقدمة، والغربية منها خصوصاً، مثلما تم احتكار كثير من العلوم والتكنولوجيات المتقدمة الأخرى.

هذا الاحتكار حقيقة سواء من حيث تطوير هذا العلم، أو من حيث استهلاكه، والاستفادة منه، فالغالبية العظمى مما كتب في علم النفس في وطننا العربي، هو عبارة عن تعريب، لا أكثر، أو ترجمة حرفية لما اكتشفه الغربيون، أو لنظرياتهم عن طبيعة الإنسان وسلوكه.

من هنا تأتي مشاعر المرارة، حيث إن كثيراً من النظريات التي يرتكز عليها علم النفس الغربي مرتبطة ومتأثرة بحضارات وأفكار غريبة عن الإنسان المسلم، وغير صالحة له.

كما إن كثيراً من توجيهات علماء النفس الغربيين، والقيم التي يجتهدون في ترسيخها لا تصلح للإنسان المسلم.

ولعل الكثير من القراء الكرام يستشعرون إحساسي بالمرارة لترك الباحثين المسلمين – ولا أستثني نفسي – وتجاهلهم للمنبع الهائل واللا محدود المتمثل في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة،. بما فيها من حقائق راسخة، ونظريات سامية عن التشكيك، وتوجيهات متطابقة مع خلق الإنسان وطبيعته.

وهذا المنبع المتوفر بين أيدينا، والمتميز بكماله، لو استغليناه، لاستطعنا تكوين علم نفس إسلامي صالح لكل زمان ومكان، ولكل إنسان.

إن كثيراً من النظريات التي يرتكز عليها علم النفس الغربي مرتبطة ومتأثرة بحضارات وأفكار غريبة عن الإنسان المسلم، وغير صالحة له.

علم النفس ليس علماً محدداً، أو موضوعياً مثل العلوم الطبيعية الأخرى، فهو بطبيعته يستوعب، ويسمح بالتأثر بالأفكار، والقيم المختلفة، والأديان، والحضارات.

وليس أمامنا من خيار إلا أن نثري هذا العلم بديننا، وتراثنا، وحضارتنا، أو أن نغفل بينما يصممه آخرون، وتشرب الأجيال المسلمة ما يسقيهم غيرهم.

وإنه لمن المحزن حقاً أن نرى البوذيين، والملحدين، وغيرهم من غير المسلمين قد سبقونا إلى بذر أفكارهم، ومغالطاتهم في علم النفس.

من هنا غمرني الشعور بالبهجة والأمل عندما استشارني أخي وزميلي الطبيب النفسي الدكتور محمد كمال الشريف عن رأيي في تجميعه بعض المواضيع، التي كتبها عن وجهة النظر الإسلامية في بعض الأمور النفسية في كتاب، وتقديمه للقراء المسلمين، وزادت سعادتي بأنه شرفني بكتابة هذا التقديم.

هذا الكتاب يمثل محاولة جادة وكريمة من الدكتور محمد كمال الشريف، الذي عرفته بشغفه الشديد للتعمق في الفكر الإسلامي وعلم النفس، وقد وصل إلى مستوى متميز في كلا المجالين.

لقد قبل الدكتور الشريف، شأنه شأن قلة نادرة من علماء النفس المسلمين، مسؤولية استنباط نظريات تبين وتفسر السلوك البشري من القرآن الكريم والسنة النبوية العطرة، وتقدم علم النفس داخل إطار إسلامي.

وأرغب هنا أن أقترح ثلاثة أغراض يخدمها هذا الكتاب، وذلك على سبيل العد وليس الحصر:

أولاً: يعرف هذا الكتاب قراءه الكرام بوجهة النظر الإسلامية في كثير من الأمور النفسية والسلوكية في عصرنا هذا، ويهديهم إلى النهج الإيماني في التعامل مع تلك الأمور.

ثانياً: تمثل وجهة النظر الإسلامية المقدمة في هذا الكتاب مصفاة، إن صح التعبير، لعلم النفس الحديث، ليستفيد أبناء الأمة الإسلامية مما صلح من هذا العلم، ويتبينوا ما هو ضار ليجتنبوه.

أما ثالثاً: فإن هذا الكتاب يمثل حافزاَ ومصدراً للباحثين، وطلاب العلم المسلمين ليستمروا في استكشاف، وتطوير المنظور الإسلامي للسلوك، والعمليات العقلية.

أخيراً: أود أن أنوه إلى أهمية هذا العمل من الناحية الزمنية، فإن عالمنا العربي والإسلامي في وجهة نظري، يتخبط في أزمة هوية، فلم تعد حياتنا بسيطة، وواضحة المعالم، مثلما كانت في قرون مضت،. إذ أصبح عالمنا مسرحاً تتداعى عليه أفكار، ووجهات نظر غريبة، بعضها صالح، وأغلبها مدمر. وقد وجدت هذه الأفكار أرضاً خصبة في ظل الفراغ الحضاري، والفكري السائد في مجتمعاتنا الإسلامية، وأيضاً في ظل الوضع الاستهلاكي السلبي (أي: المفتقر إلى الفعالية) في مجتمعاتنا.

وعليه فإن هذا الكتاب خطوة إيجابية من أجل سد الفراغ، وترسيخ هويتنا الإسلامية.

أيها القراء الكرام! إليكم الدكتور محمد كمال الشريف وسكينة الإيمان.

ليس أمامنا من خيار إلا أن نثري هذا العلم بديننا، وتراثنا، وحضارتنا، أو أن نغفل بينما يصممه آخرون، وتشرب الأجيال المسلمة ما يسقيهم غيرهم

الدكتور عبد الرحيم حسين هويدي.
المعالج النفسي في مستشفى الطب النفسي في " أبو ظبي"، والحائز على الدكتوراه في علم النفس الإكلينيكي من جامعة "Wright State University" في أوهايو، في الولايات المتحدة الأمريكية.

مقدمة المؤلف

إنني كلما ازددت من علم النفس المعاصر، ازددت إيماناً بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

الحمد لله رب العالمين..... والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: هذه تأملات طبيب نفسي، وقارئ لعلم النفس مسلم، في أمور تهم المسلم المعاصر، جمعت فيها بين المنظور الديني والنفسي العلمي بالقدر الذي فتح به علي ربي.

وأكثر هذه الفصول القصيرة نشرت في رمضان الماضي (1415 ه) على صفحات الملحق الديني لصحيفة "الإتحاد" الصادرة في "أبو ظبي"، ثم أعدت كتابتها موسعة قليلاَ، وقرأتها على الأخوة المستمعين من إذاعة الإمارات العربية المتحدة من "أبو ظبي" خلال شهري أغسطس (آب) وسبتمبر (أيلول) سنة (1995 م) من خلال برنامج "أنوار الإيمان".

ومن هذه الفصول ما سبق نشره على صفحات مجلة "منار الإسلام" التي تصدرها وزارة الأوقاف بدولة الإمارات العربية المتحدة، وقليل آخر ينشر في هذا الكتاب لأول مرة.

وقد كانت نيتي أن أقوم بالتوسع في هذه التأملات، بحيث تكون بمثابة دراسة وافية مشبعة في موضوعاتها، ولكنني أنشرها اليوم لعلمي أنه قد تمر عدة سنوات قبل أن أتمكن من إنجاز التوسع الذي أرجوه فيها، وللتشجيع الذي لقيته ممن قرأها، وهي مقالات على صفحات جريدة "الإتحاد"، أو مجلة "منار الإسلام"، أو استمع إليها من إذاعة "أبو ظبي".

وكان الثناء والتشجيع صادرين من أهل علم وخبرة، كالأستاذ واصف باقي، والشيخ أحمد الموسى، والشيخ حمد رقيط... أما الأستاذ إسماعيل الفخراني

مسؤول الملحق الديني بجريدة الإتحاد، فكان أول من أشار علي بجمع هذه المقالات في كتاب، ثم كان بعدها بأيام أن حثتني الأخت الكريمة، والزميلة الدكتورة إيمان محمود القماح، المختصة في علم النفس الإكلينيكي (أي: التشخيصي والعلاجي) على نشرها في كتاب، وكان رأيها أن المقالات مفيدة بوضعها الحالي، وتسد ثغرة قائمة، ولا بأس من توسيعها عندما يمكن ذلك...

فاستشرت صديقي وزميلي الدكتور عبد الرحيم حسين هويدي، فكان جوابه على الفور مؤيداً للفكرة، ومبدياً رغبته في تقديم الكتاب إلى الأخوة القراء، وذلك فضل من الله علي أن يتحمس لكتاباتي رجل في خبرة الدكتور هويدي، ومعرفته الواسعة في العلوم النفسية، وبخاصة علم النفس الإكلينيكي.

فاستخرت الله سبع مرات، ووجدت انشراحاً في صدري لإصدارها في كتاب قبل توسيعها كما كنت أحب. ولعل في بقائها فصولاً صغيرة ما يجعل قراءتها أسهل وأمتع في عصر الانشغال والاستعجال الذي نعيش فيه، إذ يمكن للقارئ الكريم أن يقرأ فصلاً خلال بضعة دقائق، ويترك الكتاب إن شاء ليعود إلى فصل مستقل إلى حد ما في مناسبة أخرى، إلى أن يتم الكتاب كله.

وأحب أن أقص عليكم كيف أنني أبديت رغبتي في الاستزادة من علم النفس والتخصص فيه إن أمكن لصديق لي، وذلك عندما كنت طالباً في كلية الطب البشري، فكانت نصيحته لي أن أبتعد عن علم النفس، لأنه بظنه قد يقود إلى الكفر، لكنني بعد هذه السنين الطويلة من القراءة في علم النفس، والعمل في الطب النفسي، أقول لكم: إنني كلما ازددت من علم النفس المعاصر، ازددت إيماناً بما نزل على محمد صلى الله عليه وسلم.

ولعل فصول هذا الكتاب – على ما فيها من اختصار– تبين لكم مدى التناغم والانسجام بين الثابت من علم النفس المعاصر وبين الفهم السليم لنصوص القرآن والسنة.

إنها آيات الله في الأنفس تشهد بعظمة الخالق، كما تفعل آياته في الآفاق ....

فالحمد لله الذي هدانا لهذا، وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

أبو ظبي في 10 / جمادى الآخرة / 1416 ه

الموافق ل 3 / نوفمبر (تشرين الثاني) / 1995 م.

د. محمد كمال محمود الشريف

القســـم الأول: أثـــر العقيـــــدة فـــــي المشاعــــــر

أ – القلق

الفصل الأول: حكمة الخالق في القلق النفسي

ما أكثر ما نسمع أن القلق النفسي مرض العصر! وما أكثر ما نسمع الشكوى من هذا الإحساس الكريه إلى النفوس: القلق!.

ومن منا لا يحلم بحياة لا قلق فيها، حياة تملؤها الطمأنينة، والسكينة، والسلام النفسي؟!.

إن حياة كهذه ستكون بالتأكيد نعمة كبرى، ونعيماً رائعاً، تعيش النفس فيه متمتعة بوجود مريح لذيذ.

والقلق النفسي الذي يسميه القرآن الكريم "الحَزَن"، سيريحنا الله منه في الجنة...

يقول تعالى: {جنت عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير (33) وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحَزَن إن ربنا لغفور شكور (34) الذي أحلنا دار المقامة من فضله لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب}. "فاطر: 33 – 35".

وقد يثور في النفس سؤال: ما الحكمة التي من أجلها خلق الله فينا القابلية للحَزَن، أي: القلق النفسي بمصطلح هذا العصر؟ أمن أجل أن يجعل حياتنا في الدنيا صعبة، فنتشوق إلى الجنة، حيث لا قلق، ولا معاناة نفسية؟ أم لحكمة أخرى فيها خيرنا ونفعنا؟.

وحتى نتبين بعض الحكمة في خلق الله للقلق النفسي في هذه الدنيا، لا بد لنا من التفكر في حالة مقابلة، وهي الألم الجسدي، ذلك الشعور البغيض المزعج الذي لا نصبر عليه إلا إن عجزنا عن إزالته بأي وسيلة، والذي نتمنى دائماً ألا نعاني منه أبداً ما حيينا.

من منا لا يحلم بحياة لا قلق فيها، حياة تملؤها الطمأنينة، والسكينة، والسلام النفسي؟!.

القلق النفسي الذي يسميه القرآن الكريم "الحَزَن"، سيريحنا الله منه في الجنة...

ففي حالات نادرة جداً يولد أطفال طبيعيون في كل شيء، إلا أنهم لا يعرفون الألم الجسدي على الإطلاق، ولا يحسون به أبداً... وللوهلة الأولى قد يغبطهم المرء، وبخاصة الذي جرب الآلام المبرحة، وقد يظنهم في نعيم... لكن الحقيقة غير ذلك... فالألم الجسدي لا تستقيم الحياة من دونه، إذ الألم رسالة تصل من أجزاء جسمنا إلى الدماغ، حيث الوعي، والإدراك، واتخاذ القرار.

تصل الرسالة لتقول: إن هنالك خطراً ما يتهدد عضواً، أو جزءاً من الجسد.

وهي رسالة ملحة يصعب تجاهلها، والتغافل عنها، وبطبيعتها المزعجة للنفس تدفع الإنسان إلى حماية نفسه، وعلاج ما أصابه من أضرار بدنية.

أما الأطفال الفاقدون للألم، فإنهم في خطر دائم، إذ قد يحترق جزء من جسمهم وهم غافلون لا يشعرون، وقد ينكسر عظم من عظامهم فلا ينتبهون له فيعالجوه... وغير ذلك كثير مما يرينا أن في الألم الجسدي نعمة، وأنه لولا الألم الجسدي ما تمتع الإنسان بالصحة والعافية.

لكن الألم الجسدي لا يؤدي دوره إلا بعد أن تحدث الإصابة، أما القلق النفسي وما يتضمنه من إحساس بالخطر وتوقع له، فيدفع الإنسان ليحتاط للأمور قبل حدوثها، إنه يلح، ويحث النفس على أن تعمل، وتسعى، وتبذل الجهد من أجل تأمين المستقبل، وحماية النفس من أية أخطار محتملة...

> القلق النفسي وما يتضمنه من إحساس بالخطر وتوقع له، فيدفع الإنسان ليحتاط للأمور قبل حدوثها، إنه يلح، ويحث النفس على أن تعمل، وتسعى، وتبذل الجهد من أجل تأمين المستقبل، وحماية النفس من أية أخطار محتملة...

فالإنسان يفعل الكثير في حياته حتى يستشعر الأمان، مثلما يعمل حتى يتخلص من آلامه الجسدية، ويستعيد عافيته.

فالقلق النفسي لا بد منه كي يستشعر الإنسان مخاطر المستقبل بما فيها المخاطر المعنوية، والمخاطر على أولاده، والمخاطر على مصيره في الدنيا والآخرة.

ولا بد من القلق كي يحث الإنسان على العمل، وبذل الجهد، والتخطيط للمستقبل دنيا وآخرة، من أجل نفسه، ومن أجل من يحب.

وإذا قام الإنسان بالقضاء على هذا القلق، بأن يخدر نفسه بالخمر، أو المخدرات، ماتت لديه الهمة، والدافعية كي يقوم بما ينفعه في المستقبل هو، ومن يحبهم في هذه الحياة... كما كانت المبالغة في الزهد، وترك معترك الحياة، كما يفعل زهاد الهنود الذين يسمون "الفقراء"، فيعتزلون الدنيا، ويعيشون في غابة، يكتفون بالقليل من الطعام والكساء، وذلك ليتخلصوا من قلقهم النفسي.

هذه المبالغة تقضي على الإنسان كخليفة في الأرض له دور يقوم به، وهي تفقد المجتمع بعض أفراده تماماً كما تفعل المخدرات، وإن كانت المخدرات أشد ضرراً.

فالفقير الهندي الذي اعتزل الدنيا لا يؤذي غيره، أما مدمن المخدرات فكثيراً ما يرتكب الجرائم كي يستطيع الاستمرار في إدمانه.

فسبحان الذي خلق الألم الجسدي، وخلق القلق النفسي، من أجل أن تكون حياتنا أفضل في هذه الدنيا، ولنتمكن من القيام بالدور العظيم الذي خلقنا من أجله كخلائف في الأرض.

القلق النفسي لا بد منه كي يستشعر الإنسان مخاطر المستقبل بما فيها المخاطر المعنوية، والمخاطر على أولاده، والمخاطر على مصيره في الدنيا والآخرة

الفصل الثاني: أنواع القلق الإنساني

القلق عند الإنسان ثلاثة أنواع: الظرفي، والوجودي، والمرضي.

أ - القلق الظرفي:

وهو القلق الذي يخطر ببالنا كلما تحدثنا عن القلق النفسي، فما منا من أحد إلا ومر بظروف أصابه فيها القلق على شيء معين مهم.

كالذي يشعر بالقلق عند الامتحان، لأنه لا يضمن النجاح، ويخشى الرسوب والإخفاق، فينتابه شعور متردد، بين الخوف وتوقع الرسوب، والطمأنينة والثقة وتوقع النجاح.

وهكذا هو، لحظة يتشجع ويتفاءل، وأخرى يركبه الهم ويتوقع الرسوب.

أما إن قلت ثقته بنفسه أكثر، فإن خوفه وتوقعه للرسوب يسيطر عليه أغلب الوقت، أو كل الوقت، ويتحول القلق لديه إلى خوف شديد، ورعب، وهلع، فيشله شلاً، ويتعذر عليه الأداء في الامتحان، ويكون رسوبه مؤكداً، ما لم يهدأ، ويتشجع من جديد.

لا بد من القلق كي يحث الإنسان على العمل، وبذل الجهد، والتخطيط للمستقبل دنيا وآخرة، من أجل نفسه، ومن أجل من يحب

قلق الامتحانات، مثال يسهل علينا جميعاً فهمه، طالما تعلمنا في المدارس، وخضنا تلك الخبرات والتجارب، لكن القلق الظرفي متنوع، فالذي عليه إجراء عملية جراحية لا يضمن الطبيب نتائجها، أو يخشى من حدوث اختلاطات لها غير سارة، أو أنها عملية لطفله الحبيب، أو لزوج غال لا يتصور الإنسان الحياة من دونه، أو القلق على بضاعة استوردها تاجر، لا يضمن هل ستباع كلها، وهل سيربح أم سيخسر.... إلى غير ذلك.

سبحان الذي خلق الألم الجسدي، وخلق القلق النفسي، من أجل أن تكون حياتنا أفضل في هذه الدنيا، ولنتمكن من القيام بالدور العظيم الذي خلقنا من أجله كخلائف في الأرض

حتى قلق السيدة التي تستعد لاستقبال ضيوف أعزاء على وجبة غداء، تراها تنجز كل ما يتوجب إنجازه من نظافة، وترتيب، وطبخ، وتحضير، وتزين... قبل مجيء الضيوف؟، ترى هل سيعجبهم الطعام؟ ترى هل...؟.

أشياء كثيرة يمكن لمن شاء أن يقلق بسببها في ظرف كهذا.

وهكذا كل ظروف الحياة، يمكن للإنسان أن يجد فيها ما يدعو إلى القلق والتوتر.

أما الشفاء والوقاية من القلق الظرفي، فهو في التوكل على الله حق التوكل، وفي بذل الجهد الممكن إضافة للتوكل، ليتحقق ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، عندما سأله أحد أصحابه عما يفعل بناقته خلال فترة سيقضيها في مكان ما: هل يعقلها ويربطها إلى شيء ثابت كي لا تسرح وتشرد وتضيع عنه، أم يطلقها دون تقييد ويتوكل على الله. فقال له النبي الحبيب عليه الصلاة والسلام: [إعقلها وتوكل]. أي: إفعل الأمرين معاً.

إعقلها: لأن الحكمة والعقل السليم تقتضي ذلك، وتوكل على الله: لأن التوكل خلق المؤمن الذي يعلم أن رب العالمين محيط بكل شيء، وناظر لكل شيء، وعلى كل شيء قدير.

وهو سبحانه وتعالى يحب منا أن نعتمد عليه، ونتكل عليه، وهو يحب المتوكلين...

ثم إن الإنسان مهما أخذ من الأسباب، فإن العقل البشري يضع احتمالات لوجود نقص في الأسباب، والإعدادات التي اجتهد الإنسان فيها، إما لأنها فوق طاقته، أو لأنها خارج علمه، أو لأنه نسيها، أو غير ذلك من الاحتمالات التي يمكن أن تؤدي إلى نتائج لا تسرنا رغم أننا أخذنا كل الاحتياطات والأسباب التي نعرفها.

إذاً "إعقلها" وحدها لا تكفي كي ينعم الإنسان بالسكينة وراحة البال والطمأنينة، ولا بد لذلك من التوكل على الله، والثقة أنه سيختار لنا الأحسن، طالما أننا مؤمنون به، ومتوكلون عليه.

إن التوكل الحق على الله يضمن راحة البال، واطمئنان القلب، رغم كل الظروف.

فالشيطان لا سبيل له على القلوب المؤمنة المتوكلة، قال تعالى: {فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم (98) إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (99)} " النحل: 98 - 99".

إذا اجتمع الإيمان مع التوكل، كانت السكينة التي ما بعدها سكينة، وكانت الطمأنينة التي ليس كمثلها طمأنينة، رغم الظروف المختلفة التي تهز النفوس والقلوب.

وقد أشكل على البعض قوله صلى الله عليه وسلم: [إعقلها وتوكل]. وما روي عن عمر بن الخطاب: "إن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة"، فاشترطوا لصحة التوكل على الله، أن يأخذ الإنسان بالأسباب، وإلاّ كان متواكلاً لا متوكلاً، وهذا غير صحيح على الإطلاق.

أما الشفاء والوقاية من القلق الظرفي، فهو في التوكل على الله حق التوكل، وفي بذل الجهد الممكن إضافة للتوكل

لأن مفهوم التواكل بمعنى التوكل على الله دون أخذ بالأسباب، لم يرد في القرآن الكريم، أو الحديث الشريف، بل وردت عبارة "فتواكلنا الكلام" في أحد الأحاديث بمعنى وكل كل منا الكلام إلى صاحبه يريده أن يبدأ الكلام قبل صاحبه.. فالتواكل هنا صيغة مفاعلة من وكل تعني اتكالهم على بعضهم بعضاً ولا علاقة له بالتوكل على الله لا مع الأخذ بالأسباب ولا مع تركها.

وقد سمى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، الأخذ بالأسباب "الكَيْس"، وسمى ترك الأخذ بها "العجز". وقال: [إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمر فقل: "حسبي الله ونعم الوكيل"]. (رواه أحمد وأبو داود وغيرهما)

هو سبحانه وتعالى يحب منا أن نعتمد عليه، ونتكل عليه، وهو يحب المتوكلين...

وقال صلى الله عليه وسلم "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير. احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز. وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا وكذا. ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان". رواه مسلم.

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من العجز والكسل فيقول: (اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والجبن والهرم، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، وأعوذ بك من عذاب القبر). رواه البخاري.

والمؤمن يعد لكل أمر ما استطاع من عدة ولا يتبع نفسه هواها ثم يتمنى على الله الأماني.. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (الكَيِّس من دان نفسه وعمل

لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله.) (رواه الترمذي وحسنه والحكم في مستدركه وقال صحيح على شرط البخاري)

لكن التوكل مع العجز صحيح، وهو توكل وليس تواكلاً كما يقول البعض، بل على العكس كان علماء الأمة القدامى يخشون أن يؤثر الأخذ بالأسباب في صحة التوكل على الله، إذ كانوا يظنون أن التوكل الحق على الله يعني: الثقة به سبحانه وتعالى وحده دون اللجوء إلى غيره من جهد أو أسباب، وبخاصة عندما قرؤوا ما رواه البخاري عن ابن عباس: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، هم الذين لا يسترقون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون).

"أعقلها" وحدها لا تكفي كي ينعم الإنسان بالسكينة وراحة البال والطمأنينة، ولا بد لذلك من التوكل على الله، والثقة أنه سيختار لنا الأحسن، طالما أننا مؤمنون به، ومتوكلون عليه

لكنهم بفضل الله، اهتدوا إلى الحق، وهو صحة التوكل على الله، حتى مع الأخذ بالأسباب، بشرط أن لا يتعلق القلب بتلك الأسباب، بل يبقى تعلقه بالله، ولا يرى نافعاً، ولا ضاراً، ولا رازقاً، إلا إياه، أما الباقون فوسائط وأسباب يرسل الله إلينا فضله عبرها.

إن اشتراط الأخذ بالأسباب لصحة التوكل، يلغي الفائدة النفسية من التوكل، والتي هي أن لا نقلق.. فالإنسان مهما أخذ من أسباب، يبقى لديه شك، أن يكون هنالك أمر نسيه، أو فاته، لجهله ومحدوديته، فلو كان الأخذ بالأسباب شرطاً لازماً لصحة التوكل، والوصول إلى تحقيق هذا الشرط تحقيقاً تطمئن له النفس، ويرتاح له القلب، أمراَ عسير، لكان التوكل على الله بعيد المنال، وكانت السكينة التي تحصل منه عزيزة لا يصل إليها إلاّ القليل...

إن التوكل على الله مستقل عن الكَيْس الذي هو الأخذ بالأسباب، وعن العجز، الذي هو ترك الأخذ بالأسباب، والتوكل مطلوب مع الكَيْس، والكَيْس مطلوب مع التوكل، دون أن يكون أحدهما شرطاً لازماً للآخر، فكل منهما مستقل عن الآخر، وكل منهما مطلوب من المؤمن.

الكَيْس مطلوب، والمؤمن كَيِّسٌ فَطِنٌ كما يقال، والتوكل مرغوب من المؤمن، فالله يحب المتوكلين، ويطمئنهم أنه كافيهم، ولن يحيجهم إلى غيره.

قال تعالى: {فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (آل عمران: 159).

وقال: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً} الطلاق3

وقال: {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلاً} الأحزاب3

وقال: {وَلِلّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللّهِ وَكِيلاً} النساء132

وقال: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً} الإسراء65

وعندما نتوكل على الله، نفوضه أن يختار لنا الأحسن، وما هو خير لنا، فلا نحرص على أمر بعينه، إذ قد لا يكون الخير فيه. ولأننا إن حرصنا على شيء معين سنعيش بالقلق رغم التوكل على الله إذ التوكل يضمن لنا أن يكتب الله لنا ما هو خير لنا لا ما نشتهي ونحب، لأننا قد نحب أمراً ولا ندري أنه شر لنا وقد نكره أمراً ويكون خيرنا فيه، لأننا مهما علمنا فإن علمنا محدود ولا نعلم الغيب كما يعلمه الله:

- {كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون}. (البقرة: 216).

- {فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً}. {النساء:9}

لذا كان الحرص على أمر معين يتعارض مع التوكل على الله الذي هو تفويض الأمر إليه ليقدر لنا الخير كما يعلمه هو لا كما نظن نحن.. ولا مانع أن نرغب في شيء معين لكن نذكر دائماً أننا إن توكلنا على الله فسييسر لنا ما هو خير لنا ولو كان غير الذي رغبنا فيه.. وعلينا أن نرضى بما اختاره ربنا لنا طالما أننا توكلنا عليه، وأن نثق أن الخير كل الخير فيما اختاره لنا، وأن الأيام ستثبت لنا أن ما اختاره لنا ربنا خير مما تمنيناه.

إن التوكل يضمن لنا أن ييسر الله لنا ما فيه الخير، وسيصرف عنا ما فيه السوء والشر، أي: سيختار لنا الأحسن من الأمور الممكنة، وليس بمعجزة تتجاوز القوانين الطبيعية والأسباب التي جعلها الله ضرورية لحدوث مسبباتها.

إن التوكل الحق على الله يضمن راحة البال، واطمئنان القلب، رغم كل الظروف

إذا اجتمع الإيمان مع التوكل، كانت السكينة التي ما بعدها سكينة، وكانت الطمأنينة التي ليس كمثلها طمأنينة، رغم الظروف المختلفة التي تهز النفوس والقلوب

في حالات خاصة، يصدر أمر الله متجاوزاً كل القوانين الطبيعية، كما حدث لإبراهيم عليه السلام، قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري: [كان آخر قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار: "حسبي الله ونعم الوكيل"]. (رواه البخاري) {قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم}. (الأنبياء: 69).

من أجل إبراهيم، وحين توكل على الله حق التوكل، في موقف ليس هنالك أعصب ولا أصعب منه، أمر الله النار على الفور أن تكون برداً وسلاماً على إبراهيم.

لكن من أجلي ومن أجلكم، فإننا نطمع أننا عندما نتوكل على الله حق التوكل، فإنه ييسر ويقدر أموراً تقود إلى حصول الخير الذي نسعى إليه، إذ لا بد لكل شيء من الأقدار التي تصنعه، وتؤدي إليه وفق القوانين الطبيعية، وسنن الله في خلقه ومخلوقاته، تلك السنن التي لن نجد لها تبديلاً ولا تحويلاً.

والله يذكرنا بضرورة الصبر والانتظار مع التوكل، لأن لكل شيء قَدْر، والله بالغ أمره في الوقت المقدر.

{وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً} الطلاق 3 .

التوكل مطلوب مع الكَيْس، والكَيْس مطلوب مع التوكل، دون أن يكون أحدهما شرطاً لازماً للآخر، فكل منهما مستقل عن الآخر، وكل منهما مطلوب من المؤمن.

إذن لا بد حتى نتوكل على الله من أن نفوضه، ونفوض أمرنا إليه، وأن لا نعلق قلبنا بأمر معين، ونحرص عليه بشدة، ثم نقول: توكلنا على الله، لأن الله الذي فوضناه، ووكلناه، ووليناه أمرنا،سيقرر لنا، ويختار لنا، وقد يختار لنا غير الذي تمنيناه لأنفسنا، لأنه يعلم أن الخير فيه..لا بأس أن نرغب في شيء نرى فيه الخير، ونتوكل على الله، ونأمل أن يحققه الله لنا، لكن مع الاستعداد لتقبل ما يقدره الله بدلاً عنه، والرضا به، ثقة منا بأن الله الذي اتخذناه وكيلاً، وهو نعم الوكيل، قد اختار لنا ما هو أحسن، وما هو خير لنا في الدنيا والآخرة.

إن التوكل هو مجرد أن لا نقلق "Do not Worry". لكن من الذي لا يقلق أمام الأمور الهامة في الحياة، إلا طفل غافل، أو غبي جاهل لا يدرك الاحتمالات السيئة الممكنة، أو شخص مستند إلى قوة عظمى، بيدها كل شيء، وتقف إلى

جانبه، ومنحازة إليه، وهل هنالك أعظم من رب العالمين، الذي يدعونا إلى التوكل عليه، والاستنامة إلى عظمته، وقدرته، والطمأنينة في أحضان رحمته، طمأنينة أحلى من طمأنينة الرضيع على صدر أم رؤوم حنون...

أن أتوكل على الله، أي: أن لا أقلق وأنا أجابه ظروف الحياة وضغوطها، رغم كل الاحتمالات، لأني اكتفيت به سبحانه وتعالى {حسبي الله ونعم الوكيل}. {فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَـــهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} التوبة129

بعدما نزل بالمؤمنين والرسول محمد صلى الله عليه وسلم من قرح، ومعاناة، بعد معركة أحد، وهم يلملمون جراحهم، جاءهم من يقول: إن المشركين قد جمعوا حشودهم، ليعيدوا الكرة عليهم، ويفنوهم عن آخرهم، فقالوا: "حسبنا الله ونعم الوكيل"..فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء.. اقرؤوا وتأملوا:

{الَّذِينَ اسْتَجَابُواْ لِلّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ مِنْهُمْ وَاتَّقَواْ أَجْرٌ عَظِيمٌ{172} الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ{173} فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ{174} (آل عمران: 172 – 174).

والله وعدنا على لسان نبيه، أن لو توكلنا عليه حق توكله، لرزقنا كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، أي: تخرج في الصباح وبطونها خاوية خالية، وتروح، أي: ترجع بطاناً، أي: قد ملأت بطونها بما وجدته من القوت والرزق، فالطير يخرج من عشه، ويبحث عن رزقه الذي يجده ملقياً هنا وهناك، حباً أو دوداً، أو غير ذلك، والجهد اللازم، إنما هو في التقاط هذا الرزق، والعودة به إلى العش، ليغذي به صغاره، ويتغذى هو بما يفضل ويزيد عن صغاره.. عن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصا وتروح بطانا. (رواه أحمد وابن ماجة والترمذي وقال حسن صحيح وقال الحكم في مستدركه صحيح الإسناد).

عندما نتوكل على الله، نفوضه أن يختار لنا الأحسن، وما هو خير لنا، فلا نحرص على أمر بعينه، إذ قد لا يكون الخير فيه

إن حرصنا على شيء معين سنعيش بالقلق رغم التوكل على الله إذ التوكل يضمن لنا أن يكتب الله لنا ما هو خير لنا لا ما نشتهي ونحب

المتوكلون يرزقهم الله رزقاً ميسراً، وبسهولة، كما يرزق الطير، بيسر وسهولة، أي: إن للتوكل على الله مكافأة فورية، هي تيسير الرزق، وسهولة الحصول عليه....

كما إن للتوكل على الله مكافأة كبرى هي الفوز بحب الله. {إن الله يحب المتوكلين}. (آل عمران: 159). وهل هنالك ما هو أروع من أن يحبنا الله؟، وهل بعد أن يحبنا ربنا، يمكن أن يخزينا أو يذلنا؟. لا والله، لا يمكن أن يتخلى الودود عمن أحب.

إن التوكل يوصلنا إلى الشعور بالأمان، والطمأنينة، والسكينة، ويقربنا إلى الله، ويضمن لنا أن يقدر الله لنا الخير، وما هو أحسن لنا، مما لنا به علم، أو من حيث لا نعلم.

والتوكل على الله أحد الأسباب التي على المؤمن أن يأخذ بها ليصل إلى ما يريد وهو مكمل للكَيْس الذي دعانا النبي إليه وليس عجزاً وانعدام حيلة. فالتوكل على الله مع الدعاء والطلب من الله أن يعطينا ما نحب من الخير هما من أهم الأسباب التي يسهل على المؤمن الأخذ بها فييسر الله له مراده بأهون الأسباب وأقل الجهد.

إن التوكل يضمن لنا أن ييسر الله لنا ما فيه الخير، وسيصرف عنا ما فيه السوء والشر

ونعود إلى القلق الظرفي، الذي لخص رسول الله صلى الله عليه وسلم شفاءه، والوقاية منه، في قوله: [إعقلها وتوكل]، لنؤكد على أهمية الاجتهاد، وبذل الجهد، والإعداد للأمر قدر المستطاع، لنقلل من دواعي القلق بسببه. فالذي عليه امتحان، عليه الدراسة الجيدة، والمراجعة، والمذاكرة، حتى يتقن المادة المطلوبة منه، وعندها تقل دواعي القلق لديه، وحتى لو رسب، وأخفق، لن يلوم نفسه على التكاسل، والتقصير، لأن الإخفاق سيكون لأمر خارج عن سيطرته.. وكذلك في أمور الحياة الأخرى نبذل من الجهد ما نستطيع ونحن متوكلون على الله فنضمن أن يقدر لنا ربنا الخير وييسره لنا بأهون الأسباب.

2- القلق الوجودي:

أي: القلق النفسي الملازم لوجود الإنسان، إذ بمجرد أن يوجد الإنسان، "Exist" ويدرك ذاته، ويعي نفسه، فإن هموماً وأقلاقاً معينة تفرض نفسها عليه، وتنغص عليه حياته، ما لم يجد لها إجابات مريحة، ومقنعة.

ومن الهموم والأقلاق (جمع قلق) الوجودية قلق الموت، حيث ليس هنالك إنسان واحد يعيش على وهم الخلود في الدنيا، فالبشر كلهم على يقين أنهم سيموتون يوماً ما، وللموت رهبتة، وهو مصدر قلق وخوف في حياة الإنسان.

ومن الأقلاق الوجودية، شعور الإنسان أنه كائن حر مريد، أي: حر وقادر على الاختيار الحر، ويتساءل عما سيفعله بهذه الحرية، وهذه الإرادة.

ثم إن الإنسان مخلوق، لا يقدر أن يحيا دون معنى، فهو يعطي لكل شيء في حياته معنى، ثم يتساءل عن معنى وجوده وحياته، ويكون البحث عن معنى الحياة، واحداً من أهم الهموم والأقلاق الوجودية عند الإنسان.

هذه الأقلاق الوجودية "Existential" لا شفاء لها حقيقي، إلا بالإيمان الصحيح، وكلما كان الإيمان صحيحاً غير محرف، كلما استراحت النفس الإنسانية من القلق الوجودي، ووجدت في عقيدتها الإجابات الشافية، التي تملؤها بسكينة الإيمان.

أما غير المؤمن، فقد يلجأ إلى خداع نفسه، بخرافات نفسية، أو علمية، أو أسطورية، كي يريح عقله وقلبه من ضغط القلق الوجودي على نفسه، وقد يلجأ إلى الخمر، والمخدر، والمتع الحسية، كالجنس، والموسيقى، وغيرها، فيفرط فيها، كي يلهي نفسه، ويشغلها عن تساؤلاتها الوجودية المؤلمة.

النوع الثاني من القلق الإنساني، أي: القلق الوجودي، لا علاج له إلا الإيمان، وإن كان المستكبرون الرافضون للخضوع لرب العالمين يدعون أن الحب، والعمل، يكفيان ليشعر الإنسان بالأمان دون إيمان. لكن واقع حياتهم البائسة، والفلسفة العدمية التي طغت على أفكار الأوربيين خلال النصف الثاني من القرن العشرين، ترينا كيف أخفقوا في التغلب على قلقهم الوجودي دون إيمان.. فلا الحب، ولا العمل، كافيان إن عمل العقل وتساءل عما بعد الحب والعمل، ولا الجنس، ولا الخمر، ولا الموسيقى، وغيرها من المتع الحسية، بقادرة على أن تنسي الإنسان أسئلته الأزلية عن مبدئه ومنتهاه، ومعنى وجوده، وماذا بعد موته.

في أوربا، حيث استغنى الناس بعقولهم عن الله، ظهرت فلسفات عدمية، وكتابات يائسة، تؤكد أن لا معنى لشيء في الحياة الإنسانية، ولعل أشهر الفلاسفة والكتاب الذين عبروا عن الحياة بلا إيمان، سارتر وكامو، وغيرهما.

كان آخر قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار: "حسبي الله ونعم الوكيل"]. (رواه البخاري) {قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم}.

أن أتوكل على الله، أي: أن لا أقلق وأنا أجابه ظروف الحياة وضغوطها، رغم كل الاحتمالات، لأني اكتفيت به سبحانه وتعالى {حسبي الله ونعم الوكيل

لقد دخلت أوربا في النصف الثاني من القرن العشرين، مرحلة ما بعد الحداثة، حيث تشككوا في كل شيء، وفقدوا المعنى والهدف، وصارت الحقائق بالنسبة لهم نسبية، فصاروا يتقبلون ويحترمون كل الأفكار، والمعتقدات، لأنهم فقدوا الشعور بالتأكد واليقين، وفقدوا الثقة بالعقل الإنساني، وبقدرته على الوصول إلى الحقيقة عن طريق العلم والفلسفة، وأورثهم ذلك تسامحاً لم يعرفوه من قبل مع الأديان والمعتقدات الأخرى، وصاروا ينادون بالتعايش في المجتمع بين أفراده، حتى لو اختلفت أديانهم، ورؤاهم للعالم والحياة، طالما أنهم لا يحاولون فرض شيء على غيرهم... لقد شعروا بضياعهم، وضعفهم البشري، لما بعدوا عن الخالق وهدايته، لكنهم حتى الآن لم ينتبهوا إلى أن المخرج هو في الإيمان الصحيح، والدين القويم، القائم على الحق، لا على الأهواء والخرافات....

كما إن للتوكل على الله مكافأة كبرى هي الفوز بحب الله. {إن الله يحب المتوكلين}

لم ينتبهوا إلى الآن إلى أن هنالك حق، وهنالك من يعرف هذا الحق معرفة واضحة، وأنهم لو آمنوا به، لاستعادوا السكينة، والشعور بالأمان، والمعنى في هذا الوجود، ولامتلأت حياتهم بهجة وسعادة، وبخاصة أنهم عمروا دنياهم عمارة رائعة، وحلوا الكثير من المشكلات الحياتية التي تنغص على شعوب وأمم كثيرة حياتها.

إن التوكل يوصلنا إلى الشعور بالأمان، والطمأنينة، والسكينة، ويقربنا إلى الله، ويضمن لنا أن يقدر الله لنا الخير، وما هو أحسن لنا، مما لنا به علم، أو من حيث لا نعلم

3 – القلق المرضي:

وهو ثالث أنواع القلق الإنساني، وهو قلق بلا مقلق حقيقي، إنه خوف بلا مخيف، ورعب بلا تهديد، إنه الخوف والإنذار الذي يجتاح النفس البشرية، لا لأن هنالك خطراً حقيقياً يتهددها، بل لأن خللاً في أجهزة الإنذار فيها أطلق جرساً، أو صفارة تنذر بالشؤم، وتخيف من كارثة، أو مصيبة، على وشك أن تقع، دون أن يكون هنالك أي مبرر لهذا الإنذار.

تخيلوا بناية عظيمة رائعة، بما فيها من شقق فخمة كثيرة، وبما فيها من أجهزة إنذار متطورة، تطلق جرساً عالياً متواصلاً، إذا بدأ حريق صغير في أية زاوية من زواياها.. ينطلق هذا التنبيه، وتضيء لوحات معينة، تشير إلى موقع الدخان، أو الحرارة الزائدة، التي استشعرتها أجهزة الإنذار هذه، كي يبادر القائمون على البناء إلى إطفائها، وتدارك الأمر، قبل أن تنتشر النيران، ويستفحل

الحريق، ويتسبب بالأضرار الكبيرة،كما تنبه القاطنين في المبنى إلى ضرورة إخلائه على الفور، ريثما تتم السيطرة على الحريق، ويستعاد الأمان، والسلامة المهددين به.

هل هنالك أحسن وأروع من نظام كهذا، لحماية السكان من مصائب قد تقع في أية لحظة من ليل أو نهار؟.

لكن تخيلوا جرس الإنذار هذا، وقد انطلق عالياً في هدأة الليل، ليوقظ الجميع من نومهم اللذيذ، بعد يوم من العمل والسهر، وليملأ قلوبهم بالخوف، وليجبرهم على الخروج من بيوتهم، ونزول الأدراج الكثيرة، لأنهم في حال الحريق عليهم عدم ركوب المصاعد، وبعد أن يخرجوا من مبناهم مع أطفالهم، وهم في ملابس النوم يكتشفون أن الإنذار كان كاذباً، أي: أنه انطلق يرن لا لأن حريقاً بدأ يتوهج في مكان ما من المبنى، بل لأن خللاً في الوصلات الكهربائية، أو في الأجهزة الحساسة للدخان، أو الحرارة، أو في الجهاز الذي يجمع المعلومات، ويحللها،ويعطي القرار بإطلاق الإنذار أو عدمه.. المهم: خلل ما تسبب في إنذار، لا داعي له ولا مبرر...

لو حدث هذا مرة، فإن الفرحة بأنه ليس هنالك حريق، وأن الأمور كلها على ما يرام، قد تنسي السكان ما عانوه من إزعاج عندما انطلق الإنذار، وأيقظهم، وأخرجهم.

لكن لو تكرر هذا الخلل، وتكررت الإنذارات الكاذبة، فإن نظام الإنذار الرائع، يتحول إلى مصدر إزعاج للسكان، بدل أن يكون مصدراً للشعور بالأمن والطمأنينة، وعندها ستكون أمنيتهم هي أن يتم إصلاح نظام الإنذار من الحريق في أسرع وقت، فهم لا يستغنون عنه، لأن البناء الضخم الذي ليس فيه نظام استشعار للحرائق، وإنذار للسكان منها، يكون الإنسان فيه معرضاً للخطورة الزائدة أن يشب حريق، ويستفحل قبل أن يعلم به، وعند علمه به يكون قد انسد أمامه طريق الخروج والسلامة...

وهكذا هو القلق المرضي عند الإنسان، إنه ناشئ عن خلل في عمل الأجهزة التي تستشعر المخاطر، وتنبه الإنسان إليها... وتتعرض النفس لإنذارات، وتخويفات، دون سبب حقيقي.

القلق الوجودي أي القلق النفسي الملازم لوجود الإنسان، إذ بمجرد أن يوجد الإنسان، ""Exist ويدرك ذاته، ويعي نفسه، فإن هموماً وأقلاقاً معينة تفرض نفسها عليه، وتنغص عليه حياته، ما لم يجد لها إجابات مريحة، ومقنعة

إنه خوف بلا مخيف، وشعور بالتهديد بلا مهدد، لأنه ناتج عن مشكلة في الأجهزة، وليس عن وجود ما يدعو للحذر، أو الخوف في الحقيقة والواقع.

ومثلما يتحول جهاز الإنذار المختل من نعمة إلى نقمة، يتحول القلق النفسي الذي خلقه الله ليكون لنا نعمة تحمينا من غدر الأقدار التي لا تسرنا، يتحول إلى نقمة، لأن الإنسان ينخدع به في أغلب الأحيان، فيعيش خائفاً يترقب، مع أنه ليس هنالك أي مبرر لخوفه، ولترقبه، ولتوقعه للمصائب، أو المصاعب.

عندما يكون الخلل في جهاز إنذار الحريق، يسهل علينا إدراك ذلك، والاطمئنان إلى أن المبنى في أمان، رغم أن الإنذار يصرخ بأعلى صوته، فنتجاهله، ونعود إلى فراشنا، وننام. لكن الإنذار الذي ينطلق في أعماق نفوسنا، وقلوبنا، يحتاج منا إلى وعي، وفهم، وتبصر، كي ندرك أنه ليس هنالك من خطر ولا تهديد، إنما هي مشاعر قلق كاذب، سببه اختلال في المركبات الكيماوية التي تتعامل بها خلايا الدماغ، وتتفاهم بها فيما بينها، ويدعوها علماء الأعصاب "النواقل العصبية"، "Neurotransmitters". وهي تشبه الهرمونات، إلاّ أنها لا تتجول في الدم بحيث يفيدنا معايرتها فيه، بل المهم وجودها في نقاط محددة جداً، تتلامس فيها خليتان عصبيتان، كما يتلامس رجلان وهما يتصافحان، يمد كل منهما يداً تشتبك بيد الآخر، وهكذا مثال المشبك العصبي "Synapse"، الذي عنده يتم التواصل بين الخلايا العصبية، بإفراز النواقل العصبية التي تنقل الأوامر من خلية إلى أخرى.

والطب حالياً يقول: إن الخلل في عمل النواقل العصبية الرئيسية (السيروتونين، والنورإيبنفرين، والدوبامين، والغابا، وغيرها)، هو المسؤول عن الأعراض النفسية، والعقلية، التي تصيب البشر من قلق، وكآبة، أو هياج، أو وسوسة، أو أوهام، أو هلوسات.

ولا تستغربوا ذلك، لأن النفس البشرية، جهاز حي صنعه رب العالمين بيده، فأحكم صنعه، وجعله في أحسن تقويم، ثم خلق منه زوجه، ومنهما توالدت البشرية، وأثناء توالدها هذا الذي تركه ربنا يحدث بقدره، {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } القمر49 تحدث أخطاء بسيطة جداً في بناء هذا الجهاز الحي العجيب الصنع، فيسبب الأمراض للناس.

كلما كان الإيمان صحيحاً غير محرف، كلما استراحت النفس الإنسانية من القلق الوجودي، ووجدت في عقيدتها الإجابات الشافية، التي تملؤها بسكينة الإيمان

القلق الوجودي، لا علاج له إلا الإيمان، وإن كان المستكبرون الرافضون للخضوع لرب العالمين يدعون أن الحب، والعمل، يكفيان ليشعر الإنسان بالأمان دون إيمان

فإن كان الخلل في جهاز الهضم، كانت المعاناة هضمية.

وإن كان الخلل في جهاز الحركة، كانت المعاناة حركية.

وإن كان الخلل في جهاز الإدراك، والمشاعر، والأفكار، كانت المعاناة نفسية، والقلق، والاكتئاب، والوسواس، وغير ذلك أكثر أنواع المعاناة النفسية حدوثاً لدى البشر.

وهذا النوع من القلق الإنساني لا يتعافى، إلا إن تعافى البدن، وتقوم الخلل الفيزيولوجي الذي سببه. وهذا هو القلق الإنساني الذي يعالجه الأطباء النفسيون، والمختصون النفسانيون، بالأدوية، أو بالعلاج النفساني غير الدوائي.

القلق المرضي يجعل الإنسان يبالغ في الشعور بالمخاطر، فيرى الصغير منها كبيراً، ويرى البسيط منها عظيماً وخطيراً. لذا فإن المصابين بالقلق المرضي، يعانون من القلق الظرفي الشديد في أغلب الأحيان، لأن الخلل الفيزيولوجي لديهم يجعلهم يرون ما لا يراه غيرهم من أسباب الخطر والتهديد، فيعيشون في رعب، بينما غيرهم مطمئن القلب والبال.

إن مرضهم يجعلهم كالذي ينظر إلى الأشياء من خلال عدسة مكبرة، أو يسمع الأصوات من خلال مكبر للصوت، يضاعفه مرات كثيرة، موضوعاً على أذنيه، بحيث يسمع الهمسة صرخة.

وهؤلاء لا يرتاحون من القلق الظرفي، إلا إن عولج قلقهم المرضي، حيث تعود إليهم قدرتهم على التوكل على الله، والامتناع عن القلق، توكلاً عليه، واعتماداً على رحمته ورعايته...

المريض بالقلق، يستفيد من التطمين، والتوكل، لكن فائدته تكون مؤقتة عابرة، وسرعان ما يعود إلى القلق الشديد الذي يصعب عليه وعلى من حوله أن يطمئنه، ويساعده على التخلص منه، ما لم نوقف عملية التضخيم التي يسببها مرض القلق، أو الاكتئاب، أو الوسواس، أو غير ذلك من أنواع المرض النفسي المولدة للقلق....

وفي النصف الثاني من القرن العشرين، ظهرت أدوية كثيرة ورائعة، لعلاج القلق، والاكتئاب، والوسواس، واضطراب العقل بكافة أنواعه. حيث تفيد هذه الأدوية في إعادة التوازن، والفاعلية لعمل النواقل العصبية في الدماغ، التي يعتبرها الطب مسؤولة عن هذه الاضطرابات.

دخلت أوربا في النصف الثاني من القرن العشرين، مرحلة ما بعد الحداثة، حيث تشككوا في كل شيء، وفقدوا المعنى والهدف، وصارت الحقائق بالنسبة لهم نسبية، فصاروا يتقبلون ويحترمون كل الأفكار، والمعتقدات، لأنهم فقدوا الشعور بالتأكد واليقين

وهي علاجات تسيطر على المرض، وتريح الإنسان من أعراضه. كما يسيطر دواء الضغط على الضغط، ويعطينا ضغطاً طبيعياً، طالما نتناول الدواء الخافض للضغط. والفارق بين الضغط والاضطرابات النفسية، أن الضغط مزمن عادة، بينما القلق، والاكتئاب، والوسواس القهري، واضطرابات العقل، تأتي على شكل نوبات يتراوح طولها ما بين أيام قليلة إلى عدة سنوات، تهدأ بعدها حتى لو لم تعالج بالأدوية، ويبقى المريض بخير ما شاء الله أن يبقى، ثم يعاوده مرضه مرة أخرى في أغلب الحالات.

العلاج إذاً يختصر المعاناة، ويعيد المريض إلى طبيعته، وهذا خير من بقاء الأعراض، وما تسببه من معاناة للمريض وأهله، ومن عجز عن أداء دوره في الحياة، سواء في مهنته، أو دراسته، أو حياته العائلية.

وهذا يعني أن الإيمان وحده لن يكفي لشفاء القلق الإنساني المرضي وغيره من الاضطرابات النفسية الناتجة عن خلل عضوي في عمل الخلايا العصبية في الدماغ، وهذا لا يعيب الإيمان أو القرآن في شيء، إلا إن كانت عدم كفايتهما لعلاج الداء السكري، أو أمراض الكلية، أو السرطان، تقلل من شأنهما.

لا بد لعلاج المرض العضوي من إصلاح للخلل المسبب له.. تأمل ما قاله الله تعالى عن زكريا عندما طلب من الله الذرية، وهو شيخ مسن، وامرأته عاقر لا تنجب. {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} الأنبياء90 إذاً كان هنالك خلل عضوي مسبب للعقم، احتاج للإصلاح، قبل أن تتمكن هذه المرأة من الحمل والولادة.... والنبي محمد صلى الله عليه وسلم يقول "لكل داء دواء. فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل". (رواه مسلم)

صحيح أن الأعراض في القلق والاكتئاب والوسواس القهري وغيرها من الاضطرابات النفسية والعقلية، أعراض نفسية، تختلف عن الأعراض البدنية المعروفة في الأمراض العضوية، لكن الدماغ هو الآلة التي تصنع المشاعر، والأفكار، والإدراكات، وفيها الرغبة والنفور والشهوة والفرح والحزن والضحك والبكاء والنوم والنشاط واليقظة وغير ذلك من الوظائف النفسية والعقلية.

القلق المرضي وهو قلق بلا مقلق حقيقي، إنه خوف بلا مخيف، ورعب بلا تهديد، إنه الخوف والإنذار الذي يجتاح النفس البشرية، لا لأن هنالك خطراً حقيقياً يتهددها، بل لأن خللاً في أجهزة الإنذار

القلق المرضي عند الإنسان، إنه ناشئ عن خلل في عمل الأجهزة التي تستشعر المخاطر، وتنبه الإنسان إليها... وتتعرض النفس لإنذارات، وتخويفات، دون سبب حقيقي

وإذا أصاب خلل عضوي الجهاز الذي يقوم بالوظائف النفسية، فإن الأعراض الناتجة عن الخلل العضوي هذا ستكون نفسية. كما لو كان الخلل العضوي في الجهاز الهضمي، كانت الأعراض هضمية. وكذلك إن كان في الجهاز النفسي، وهو الدماغ، كانت الأعراض نفسية، رغم أن الخلل عضوي.

وهذا لا يعني أن كل الأعراض النفسية عند البشر، هي أعراض لخلل عضوي. فالإنسان الذي يفقد عزيزاً، يعاني من حالة نفسية تشبه المرض النفسي، يسيطر عليه فيها الحزن والقلق، ويضطرب نومه وتقل شهيته للطعام والجنس، ويفقد قدرته على الاستمتاع، إلى غير ذلك من أعراض سببها فقده لعزيزه، أو خسارته لشيء غال عليه مالي أو معنوي، وبالتالي ليس سببها عضوياً أبداً، ولا يعالجها الأطباء النفسيون بالأدوية عادة، بل العلاج يكون نفسياً بالكلام، ومحاولة تغيير نظرة المصاب إلى مصيبته، كي يتمكن من هضمها، والتكيف معها، ومع الأوضاع الجديدة في حياته الناتجة عنها.

إن الخلل في عمل النواقل العصبية الرئيسية (السيروتونين، والنورإيبنفرين، والدوبامين، والغابا، وغيرها)، هو المسؤول عن الأعراض النفسية، والعقلية، التي تصيب البشر من قلق، وكآبة، أو هياج، أو وسوسة، أو أوهام، أو هلوسات

وبمرور الوقت، يتجاوز الإنسان المصائب، ويتكيف غير المريض مع المصاعب، وتعود له ابتسامته، وينطلق في الحياة من جديد.

ومع أن الطب النفسي حدد مدة ستة أشهر حداً َأقصى للتكيف مع المصائب والمصاعب، فإذا استمرت الأعراض النفسية بعد ذلك، اعتبرنا الشخص مريضاً نفسياً، وتكون المصيبة عاملاً مسرعاً لحدوث المرض لديه، ومع أن أشد مصائب الحياة العادية على النفس البشرية، هي فقد الزوجة المحبة لزوجها المحب، فإن الخالق الذي يعلم من خلق، حدد مدة أربعة أشهر وعشرة أيام، تخرج بعدها الزوجة من حزنها على فقيدها، وينفتح قلبها للرجال من جديد، إلاّ إن كانت قابلة للاكتئاب النفسي، وكانت وفاة الزوج سبباً في بدء الاكتئاب، أو غيره من الاضطرابات النفسية لديها، فعندها يطول الحزن كثيراً، وقد لا ينتهي إلاّ بالعلاج الطبي النفسي.

والخلاصة:

للقلق والحَزَن في حياة الإنسان ثلاثة أسباب:

أولها: ظروف الحياة وشدائدها.

وثانيها: إدراك الإنسان لوجوده ككائن له ذات مستقلة، وحرة، وذات إرادة، وباحثة عن المعنى، ومدركة لما وراء عالم الشهادة من ممكنات والشعور بالضلال والضياع في غياب الإيمان الصحيح.

وثالثها: الخلل المرضي العضوي في عمل جهاز العقل والمشاعر لديه، أي: الدماغ.

والحكمة تقتضي أن لا يكون العلاج واحداً لأنواع مختلفة من القلق والحزن. إذ لا بد لكل نوع من علاج يناسبه، حتى تتمتع النفس الإنسانية بالسكينة والطمأنينة.

أن الإيمان وحده لن يكفي لشفاء القلق الإنساني المرضي وغيره من الاضطرابات النفسية الناتجة عن خلل عضوي في عمل الخلايا العصبية في الدماغ

3 – الفصل الثالث: شفاء لما في الصدور

عندما عصى آدم ربه، وأكل من شجرة من شجر الدنيا كانت قائمة في الجنة وأمره ربه أن لا يأكل منها، اضطر إلى ما نضطر إليه، من طرح الفضلات المقززة، وبدت له سوأته، كما بدت سوءة زوجه حواء، واستحقا مع إبليس، أن يهبطا إلى الأرض التي خلق أصلاً ليكون خليفة لله فيها. عندها قال تعالى: { قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدو فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى (123) ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى (124)}. (طه: 123 – 124). إذاً بهداية رب العالمين، لا يضل المرء، ولا يشقى، أما إن رفض هذه الهداية، فإن له معيشة ضنكاً، كلها ضلال وشقاء.

إذا أصاب خلل عضوي الجهاز الذي يقوم بالوظائف النفسية، فإن الأعراض الناتجة عن الخلل العضوي هذا ستكون نفسية

والضلال هو السبب الأساسي للقلق الإنساني الوجودي، حيث يحتار الإنسان ماذا يفعل في حياته، وحيث يضنيه البحث عن معنى لوجوده، وللحياة من حوله، فلا يراها إلا فاقدة للمعنى والهدف، ولا تبدو له إلا عبثية عدمية، فيصبح الشعور بالغثيان فلسفة، والشعور بالسأم مزاجاً سائداً، وتصبح اللذة الحسية غاية الوجود، وخير ما يغنمه الإنسان من حياته الفانية، ويزداد الشعور بالضياع والضلال، ويختفي الفرح والسرور من القلوب، وتختفي الابتسامة، لتغشى الوجوه كآبة دائمة، تعكس ما تمر فيه النفس الإنسانية من ضنك ومن ضلال وشقاء، عندما استكبرت على خالقها، ورفضت الانحناء له واتباع نهجه وهداه.

لقد خلق الله في النفوس القابلية للقلق النفسي، ليكون القلق دافعاً لها للعمل، والتخطيط للمستقبل، لتحمي نفسها، وتحمي من تحب من مخاطر الحياة الدنيا، ومخاطر الآخرة.

والعبرة في القلق والاكتئاب، في ما يراه الإنسان خطراً أو خسارة، سواء كانت هنالك خطورة حقيقية، أو كانت الخطورة متوهمة، وسواء كانت الخسارة حقيقية، أو كانت متوهمة، فإن أثرها النفسي واحد، وكل ما تتصوره النفس حقيقة، فهو بالنسبة لها حقيقة، ويؤثر فيها التأثر الكامل.

لذا كانت رؤية الإنسان للأمور، وتقديراته لاحتمالات المستقبل، هي العامل الفعال في وقوعه في القلق، فإن هو أخطأ في تقديراته، أو كان منظوره لأمور الحياة منظوراً خاطئاً، فإنه يفقد الشعور بالأمان والطمأنينة، ويحس بالخسران، ويغمره القلق والاكتئاب، وتكون معيشته ضنكاً كلها معاناة، ويتحول القلق لديه من سبب من أسباب السعادة والنجاة إلى عذاب، ومصدر للمعاناة التي لا تثمر إلا حلولاً متخبطة، طالما أنه رافض لهداية خالقه.

فالإنسان مخلوق، والمخلوق مهما أوتي من قدرات، يبقى محكوماً للذي خلقه، ويبقى خاضعاً للنظام الذي أراده الخالق سبحانه وتعالى...

وما أن يتفكر الإنسان في وجوده في هذه الحياة، حتى يقف وجهاً لوجه أمام تحديات كبرى لا قبل له بمواجهتها، والتغلب على القلق الذي تثيره في نفسه إلا بهداية رب العالمين.

ولعل أهم أنواع هذا القلق، قلق ينشأ عن إدراك الإنسان أن حياته على هذه الأرض مؤقتة، لا بد للموت من أن ينهيها يوماً ما، وإدراكه أنه قد خلق فرداً وحيداً، وسيموت فرداً وحيداً، فهو كائن مستقل عن هذا الكون، وعن كل من حوله، إنه مخلوق له ذاتيته وفرديته، وبالتالي فإنه وحده يحمل تبعات وجوده ونتائجه.

وبسبب إدراكه لضعفه، ومحدوديته كبشر، يغمره إحساس بالوحدة والعزلة يملأ نفسه رعباً وقلقاً.

للقلق والحَزَن في حياة الإنسان ثلاثة أسباب: أولها: ظروف الحياة وشدائدها. وثانيها: إدراك الإنسان لوجوده ككائن له ذات مستقلة، وحرة، وذات إرادة، وباحثة عن المعنى، ومدركة لما وراء عالم الشهادة من ممكنات والشعور بالضلال والضياع في غياب الإيمان الصحيح. وثالثها: الخلل المرضي العضوي في عمل جهاز العقل والمشاعر لديه، أي: الدماغ.

ثم هنالك إحساسه بأنه مخلوق حر مريد، ومع بحثه الدائم عن معنى لوجوده، يغدو الضلال وفقد الهداية من أكبر مصادر القلق في النفس البشرية، إذ يحار من لم تصله الهداية، ويحار من وصلته ولم يتبعها، يحار ماذا يفعل في هذا الوجود، وهو المخلوق الحر المريد، ويحار في معنى وجوده وغايته، فيرى الحياة عبثاً لا طائل وراءه، وتفقد الحياة كل طعم لها، وتكون المعيشة الضنك.

الضلال هو السبب الأساسي للقلق الإنساني الوجودي، حيث يحتار الإنسان ماذا يفعل في حياته، وحيث يضنيه البحث عن معنى لوجوده، وللحياة من حوله، فلا يراها إلا فاقدة للمعنى والهدف، ولا تبدو له إلا عبثية عدمية

وبالإضافة إلى هذه الأسباب الوجودية الكبرى للقلق الإنساني، التي لا شفاء للقلق الذي تثيره إلا بالإيمان، فإن هنالك مصادر كثيرة للقلق في الحياة اليومية، كالخوف من الإخفاق، والخوف من المصائب، والخوف من اتخاذ قرار خاطئ في أمر هام جداً، أو غير ذلك من دواعي القلق...

وللنفس البشرية أساليب وحيل، للتغلب على قلقها والتهرب منه، لكن مهما كانت مهارتها في ذلك كبيرة، فإنها دون الإيمان ما أكثر ما تخفق! فتقع فريسة القلق والاكتئاب والإحباط والمعاناة النفسية... ويتحدث عالم النفس الشهير" كارل يونغ"، عن تجربته فيقول: ".... وعالجت مئات كثيرة من المرضى، فلم أجد مريضاً واحداً من مرضاي الذين كانوا في النصف الثاني من عمرهم، أي: جاوزوا سن الخامسة والثلاثين، لم تكن مشكلته في أساسها إلا افتقاره إلى وجهة نظر دينية في الحياة.... وإنه لم يتم شفاء أحد منهم حقيقة، إلا بعد أن استعاد نظرته الدينية في الحياة".

الإنسان مخلوق، والمخلوق مهما أوتي من قدرات، يبقى محكوماً للذي خلقه، ويبقى خاضعاً للنظام الذي أراده الخالق سبحانه وتعالى...

والمؤمن يصاب بالقلق والاكتئاب والإحباط بقدر ما يغفل عنه أو يجهله من حقائق الإيمان، ويكون في القرآن الكريم الذي يجمع تلك الحقائق الشافية كلها، يكون شفاؤه وطمأنينته وسكينته..

قال تعالى: {يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين}. " يونس: 57".

اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وشفاء صدورنا، وجلاء همنا وحزننا وغمنا.

والإنسان المؤمن يصاب أيضاً بالقلق والاكتئاب والوسواس القهري، وبجميع الحالات المرضية التي يصاب بها البشر، لأن إيمانه لا يخرجه عن بشريته، وقابلية جسمه لأنواع الخلل والاضطراب في أداء وظائفه.

فالإيمان لا يحول دون الإصابة بالداء السكري، أو أمراض القلب، أو الكبد، أو الكلية. وهكذا هي الأمراض النفسية من قلق واكتئاب وغيرهما، إذ تنتج عن خلل في عمل مواد كيماوية معينة في خلايا المخ، فيرتبك أداؤه لوظائفه النفسية والعقلية، ويشعر الإنسان بالأعراض المزعجة من خوف وقلق، وحزن وتشاؤم ووسوسة وغير ذلك.

ما أن يتفكر الإنسان في وجوده في هذه الحياة، حتى يقف وجهاً لوجه أمام تحديات كبرى لا قبل له بمواجهتها، والتغلب على القلق الذي تثيره في نفسه إلا بهداية رب العالمين

وللأسف تنتشر خرافة لدى الكثير من المسلمين تقول: إن المؤمن لا تصيبه الأمراض النفسية، وإن هي أصابته فذاك دليل على نقص إيمانه، وما عليه لعلاجها إلاّ أن يراجع إيمانه، ويستكمل ما ينقصه منه، ويتلافى تقصيره في العبادات، ويكثر من النوافل، إلى غير ذلك من كلام لا تصدر إلاّ عن جهل كامل بطبيعة النفس البشرية التي خلقها الله من تراب، وجعلها من لحم ودم، ومن خلايا تعمل وتتواصل، وجعل لها جهازاً عصبياً مركزياً، ينظم كل شيء فيها، ويقوم بإدراك كل ما يدركه الإنسان، وفيه تتكون المشاعر والأفكار، وفيه يتولد الخوف أو القلق أو الحزن أو الغضب أو الرضى، أو السرور وغير ذلك من مشاعر، وإذا ما أصاب الخلل عمله، فإن صاحبه يعاني من مشاعر وأفكار مزعجة، لا لأنه ناقص الإيمان، بل لأنه مريض. قال صلى الله عليه وسلم: (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت، فسد الجسد كله، ألا وهي القلب). (رواه مسلم)

اللهم اجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا، ونور أبصارنا، وشفاء صدورنا، وجلاء همنا وحزننا وغمنا

والقلب في القرآن والحديث، هو إشارة إلى آلة الفكر والعقل والشعور. {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُوْلَـئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ } الأعراف179

{أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ } الحج46

ورغم قوله تعالى: {في الصدور}. فإن المقصودة: هي الأدمغة التي في الرؤوس.. لكنه جعل القلوب التي في الصدور دليلاً عليها، والقلوب التي في الصدور، بمثابة الشاشة التي عليها نرى ما يقوم به الحاسب الكومبيوتري من

أعمال، وما يقدمه لنا من نتائج ومعلومات، وإننا نظر إلى الشاشة، لنعرف ما يجري في جهاز الكومبيوتر، دون أن نظن لحظة أن الحاسب الحقيقي موجود في الشاشة. وهكذا أراد الله من الناس أن يحكموا قلوبهم في قضايا الإيمان لا عقولهم، لأن تحكيم العقل وحده بعيداً عن القلب ومشاعره، لا يقود إلى الإيمان، فالتفكير العقلي المنطقي يترك دائماً فسحة للشك، ويرى درجة ولو صغيرة جداً من الشك مبررة، ومن هذا الشك يدخل الشيطان من الإنس والجن ليفسد على الإنسان إيمانه.

والعقل نحس بعمله في رؤوسنا من خلال العضلات المحيطة بجماجمنا. أما عندما نحكم كل أدمغتنا بجميع أجزائها، فإن شعورنا بعملها يكون في الصدور، ونعبر عنه بانشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وننسب إلى قلوبنا الحب، والكره والإخلاص والصدق أو النفاق والكذب.

ونعلم أن عضلة القلب لا دور لها في ذلك أبداً، إنما هكذا جعل الله صدورنا، وضربات قلوبنا مرآة تنعكس عليها نشاطات أدمغتنا، عندما تعمل بكليتها ويشترك كل جزء منها في اتخاذنا لقرار ما مثل الإيمان بربنا وحبه وطاعته.

إن قوله تعالى: {القلوب التي في الصدور} وهو يشير إلى أدمغتنا، ليس غلطة علمية، إنما هي أذكى وسيلة للوصول إلى أفهام الناس كلهم، فنحن مهما تقدمنا في العلم، ما نزال نرى الحب في القلب الذي في صدر كل منا، لأننا هناك نحسه، وسنبقى إلى الأبد نقول: إن قلبي أحب أو أبغض، مع أن عضلة القلب، عملها مقصور على ضخ الدم في البدن، وليست إلا مرآة عاكسة، وشاشة نرى عليها نتائج عمل أدمغتنا، وقد امتزجت المشاعر بالأفكار، وصرنا قادرين على الإيمان واليقين، رغم أن تفكيرنا المنطقي وحده لا يستطيع أن يتخلص من ميله إلى الشك.

والمهم بعد هذا الاستطراد، أن نذكر أن المؤمن بشر من لحم ودم وخلايا، ومعرض لأن يصاب بالقلق أو الاكتئاب أو الوسواس القهري أو أي اضطراب نفسي يصاب به البشر عادة. ولا بد لعلاجه من تناول الأدوية، والعلاجات الأخرى، التي أثبتت قدرتها على شفاء غيره من بني البشر، كفاراً كانوا أو مؤمنين، لأن كفرهم لا يغير شيئاً في تركيب خلاياهم، وعمل أجهزة جسمهم المختلفة.

الإنسان المؤمن يصاب أيضاً بالقلق والاكتئاب والوسواس القهري، وبجميع الحالات المرضية التي يصاب بها البشر، لأن إيمانه لا يخرجه عن بشريته، وقابلية جسمه لأنواع الخلل والاضطراب في أداء وظائفه

عندمانحكم كل أدمغتنا بجميع أجزائها، فإن شعورنا بعملها يكون في الصدور، ونعبر عنه بانشراح الصدر، وطمأنينة القلب، وننسب إلى قلوبنا الحب، والكره والإخلاص والصدق أو النفاق والكذب.

لا بد لنا من التحرر من الخرافة التي تظلم المؤمن المريض نفسياً ظلماً كبيراً، إذ تشكك في إيمانه وتقواه، إذا أصابه القلق أو الاكتئاب أو الوسواس القهري، أو أي اضطراب نفسي أو عقلي آخر، فتكون مصيبته مضاعفة، حيث يظن نفسه ضعيف الإيمان، إضافة إلى المرض الذي يعاني منه، فلا يبحث عن العلاج في مكانه، بل يتجه إلى نفسه باللوم والكره، لأنه يظن أنها نفس غير مؤمنة، أو هي نفس اتبعت الأهواء، حتى جعلته يقع فيما لا يقع فيه المؤمن من مشاعر وأفكار، فيزداد عذابه فوق ما فيه من أعراض، وهو مسكين بريء مما يقال عنه، فقد رأيت على مدى السنين من عملي في الطب النفسي، أعداداً كبيرة من الرجال والنساء المؤمنين الملتزمين والمطبقين لدينهم أحسن تطبيق، ورأيت كيف تحسنوا بالعلاج الطبي، فعادت إليهم قدرتهم على التفاعل مع الحقائق الإيمانية، والتمتع بالطمأنينة التي تجدها النفس المؤمنة عند ذكر الله وطاعته.

نذكر أن المؤمن بشر من لحم ودم وخلايا، ومعرض لأن يصاب بالقلق أو الاكتئاب أو الوسواس القهري أو أي اضطراب نفسي يصاب به البشر عادة

المريض النفسي المسلم، مظلوم جداً في هذا الزمان، طالما يخرج على الملأ وعاظ، وحتى علماء كبار يقولون: إن المؤمن الحق لا يصيبه القلق، أو الاكتئاب أو غيره، مع أن القرآن الكريم يحكي لنا ما قاله النبي محمد صلى الله عليه وسلم لصاحبه في الغار: [لا تحزن إن الله معنا] قال تعالى: {إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } التوبة40

إذاً المؤمن بشر يحزن ويقلق في المواقف، ويحزن ويقلق عند المرض الناتج عن خلل في خلاياه العصبية أو في غدده الصماء. فالأطباء جميعهم يعرفون أن زيادة الإفراز لهرمون الغدة الدرقية مثلاً يجعل المريض قلقاً خائفاً، كأن هنالك ما يهدده من المخاطر، بينما لا يعدو الأمر زيادة مستوى الثيروكسين في دمه، والأطباء يعرفون ما يفعله دواء السودوإيفدرين المقبض للأوعية، المستخدم في علاجات الزكام، حيث يؤدي الإكثار منه إلى الشعور بالقلق النفسي الشديد، وكأن هنالك مخاطر محدقة، بينما الأمر ناتج عن تأثير هذا الدواء في خلايا المخ، وإثارته لها إثارة زائدة عن الحد.... أمثلة كثيرة يعرفها الأطباء، ينتج فيها القلق،

أو الحزن، عن خلل في كيمياء البدن، والمؤمن مثله مثل غير المؤمن في ذلك، لأن الإيمان لا يخرجنا من بشريتنا وضعفنا البشري. {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً} النساء28.

وفي تراثنا الرائع، يتمتع الإمام الغزالي بمكانة عظيمة، يلقب فيها ب"حجة الإسلام". ولعله كان أقدر الأقدمين على البحث في أمور القلوب والنفوس من الناحية الإيمانية، كما يشهد بذلك كتابه" إحياء علوم الدين". وهذا الرجل الكبير تقول سيرته: إنه أصيب بالسوداء أي الاكتئاب، واعتزل الناس في غرفة يقيم بها في المسجد الأموي في دمشق، حتى شفاه الله، وخرج من نوبة الاكتئاب، فكان عالماً غزير الإنتاج، وكان أقدر القدماء على فهم أمور النفس، وأحوال القلوب.

ولم يقل أحد من العلماء الأجلاء القدامى، أن الغزالي أصابته السوداء، أي: الاكتئاب النفسي لأنه كان في تلك المرحلة ناقص الإيمان. كما يتهم بذلك المسلم المعاصر، عندما يصاب بالاكتئاب، أو غيره من الأمراض النفسية.

لا بد لنا من التحرر من الخرافة التي تظلم المؤمن المريض نفسياً ظلماً كبيراً، إذ تشكك في إيمانه وتقواه، إذا أصابه القلق أو الاكتئاب أو الوسواس القهري، أو أي اضطراب نفسي أو عقلي آخر، فتكون مصيبته مضاعفة، حيث يظن نفسه ضعيف الإيمان، إضافة إلى المرض الذي يعاني منه

ولعل من أسباب هذا الاعتقاد الخاطئ، والظن أن المؤمن لا يصيبه القلق ولا الاكتئاب ولا غيرهما من الاضطرابات النفسية إلا لخلل في إيمانه. أقول: لعل من أسباب الظن أن النفس المؤمنة، لا بد من أن تكون نفساً مطمئنة، طالما خاطبها المولى في كتابه الكريم قائلاً: يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ{27} ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً{28} فَادْخُلِي فِي عِبَادِي{29} وَادْخُلِي جَنَّتِي{30} } الفجر 27-30 كما أن الله قال عن ذكره: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ }الرعد28. فافترض البعض أن النفس المؤمنة، لا يصيبها القلق، والحزن وغيرهما من أشكال المعاناة النفسية، وإن أصابها شيء من ذلك، فهو إنما يصيبها لأن هنالك نقصاً في إيمانها، أو خطأ في اعتقادها، أو تقصيراً في عباداتها، أو وقوعاً في المعاصي.

ولم ينتبه كثيرون إلى أن النفس المطمئنة المخاطبة بالآية الكريمة، إنما هي النفس المؤمنة التي استحقت الجنة، فبشرت بها بمجرد أن بعثها الله، فاطمأنت، وكانت من الذين. {لا خوف عليهم ولا هم يحزنون}. أي: لا خوف عليهم لأنهم ليسوا في خطر، ولا هم يحزنون لأنهم مبشرون، ويعلمون أنهم ناجون، وأن الجنة

بانتظارهم عندما يحين الوقت.. بل عندما تقبض الروح تكشف الحجب، ويصبح البصر حديداً، يرى ما لا نراه، فيرى الصالح مقعده من الجنة فيقول: "قدموني، قدموني". ويرى الشقي مقعده من النار، فيكره لقاء الله ويقول: "أخروني، أخروني"كما أخبرنا النبي صلى الله عليه وسلم.

لذلك ولأن الملائكة تتنزل على صالح المؤمنين يوم القيامة بالبشرى. {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ }فصلت30 {مَن جَاء بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}النمل89 تكون نفوس الصالحين يوم القيامة مطمئنة لا تحزن ولا تخاف، ثم تدخل الجنة، وهنالك ينزع منها حتى القابلية للحزن والقلق فيتمتع المؤمنون بوجود رائع، ليس فيه قلق ولا حزن ولا خشية ولا هم ولا غم، فينطلق لسانه يحمد الله على هذه النعمة:

> المريض النفسي المسلم، مظلوم جداً في هذا الزمان، طالما يخرج على الملأ وعاظ، وحتى علماء كبار يقولون: إن المؤمن الحق لا يصيبه القلق، أو الاكتئاب أو غيره

وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ{34} الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ{35 فاطر- 3534). وهذه الآية دليل أن الحزن والقلق يلازمان النفس البشرية في الدنيا، حتى لو كانت مؤمنة، وأن زوال القلق والحزن، هو من نعيم الجنة ففي الجنة ليس للقلق والحزن فائدة، لأن الجنة دار السلام والأمان والرعاية والعناية الربانية، ولا يحتاج فيها الإنسان إلى جرس الإنذار الذي يحذره من الأخطار غير المنظورة ليجعله يتوقعها ويتجنبها.

وفي الجنة ينزع من القلوب الحقد والغل. {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ }الحجر47 وهذه الآية الكريمة، تذكرني بالتجارب الحديثة على أدمغة بعض الحيوانات الشبيهة بالإنسان، حيث استأصل الباحثون جزءاً صغيراً من المخ اسمه اللوزة Amygdala فانقلب الحيوان الشرس العدائي، إلى كائن مسالم وصبور، من العسير جداً استثارة غضبه وعدائه. ولا يبعد أن يكون نزع الغل، وإذهاب الحزن من أنفسنا في الجنة، بأن تستأصل من أدمغتنا أجزاء صغيرة تقوم بتوليد تلك المشاعر في الدنيا لحكمة عظيمة، بينما في الجنة لا حاجة لتلك المشاعر السلبية أبداً .

يجب أن نفهم ديننا جيداً، حتى لا نقسو على أنفسنا فنحرجها ونشق عليها.

ولو كان المؤمن لا يحزن ولا يقلق، لما حزن أبو بكر في الغار، وهو خير المؤمنين إيماناً بعد رسول الله، ولما تطلب الموقف أن يطمئنه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ويذكره بمعية الله لهما:

{إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } التوبة40

المؤمن بشر يصيبه ما يصيب البشر من أمراض نفسية وجسدية، وهو بشر تغيب عنه بعض حقائق الإيمان والإسلام الذي ارتضاه لنفسه ديناً، فيتمكن الشيطان من أن يحزنه ويقلقه:

{الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ }البقرة268 يخوف به الشيطان أولياؤه: {إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءهُ فَلاَ تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ }آل عمران175 لكنه لا يقدر على المؤمن الموحد لله حق التوحيد والمتوكل عليه: {إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ } النحل99).

المؤمن بشر يحزن ويقلق في المواقف، ويحزن ويقلق عند المرض الناتج عن خلل في خلاياه العصبية أو في غدده الصماء

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول: [إعقلها وتوكل].

وهنالك ظن خاطئ آخر، متولد مما سبق من اعتقاد غير صحيح، وهو الظن أن القلق والاكتئاب لا علاج له إلا العلاج الديني بالقرآن الكريم والرقية، وإخراج جان توهم المعالج والمريض أنه قد دخل في بدن المريض، ويشجع المريض على ترك الأدوية النفسية، وعلى الذهاب إلى إمام أو مطوّع يعالجه، وتطول معاناة المريض المتدين، لأن كثيراً من الوقت يضيع وهو يحاول الاستشفاء على يد المطوعين والمشايخ، وفي النهاية يحط رحاله عند طبيب نفسي، ويكتشف أن الأمر مرض لا يختلف عن الأمراض الأخرى كالسكري وغيره.

الإيمان لا يخرجنا من بشريتنا وضعفنا البشري. {يُرِيدُ اللّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفاً} النساء28

فمتى نرقى بفهمنا لديننا، فلا نخلط بعقيدتنا أوهاماً ليست منها؟.

الفصل الرابع: لا تخشى الإخفاق

إن من أسباب القلق في حياة الإنسان عموماً الخوف من الإخفاق. هذا النوع من القلق النفسي يعرفه الطالب الذي يخشى الامتحان خوفاً من الرسوب فيه، ويعرفه كل من يقدم على مشروع أو تجارة أو أي عمل يحرص حرصاً شديداً على إنجازه بنجاح ويخاف الإخفاق فيه. وحتى لا يقع المؤمن في مثل هذا القلق، علّمنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أن نأخذ بأسباب النجاح ما استطعنا، فنخطط لما نريد القيام به ونبذل الجهد ونثابر، ولا نعجز فنستسلم للأحلام دون أن نعد للأمر عدته، ودون أن نسعى في سبيل ما نريد السعي اللازم، فقد سمى النبي محمد صلى الله عليه وسلم هذه الحالة من عدم السعي، ومن الاكتفاء بالتمني "عجزاً"، ويقابلها: "الكَيْس"، حيث السعي والأخذ بالأسباب بفطنة المؤمن، واجتهاده، وإتقانه.

أن الحزن والقلق يلازمان النفس البشرية في الدنيا، حتى لو كانت مؤمنة، وأن زوال القلق والحزن، هو من نعيم الجنة ففي الجنة ليس للقلق والحزن فائدة

عن عوف بن مالك ان النبي صلى الله عليه وسلم قضى بين رجلين فقال المقضي عليه لما أدبر حسبي الله ونعم الوكيل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ردوا علي الرجل فقال ما قلت قال قلت حسبي الله ونعم الوكيل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكَيْس فإذا غلبك أمر فقل حسبي الله ونعم الوكيل (أخرجه أبو داود وأحمد وغيرهما).

فمهما استعد الطالب لامتحانه، فإنه لا يضمن ألا يصاب بمرض مفاجئ يمنعه من حضور الامتحان، والأداء فيه كما يجب. ومهما احتاط التاجر، فإنه لا يضمن ألا تقع كارثة طبيعية، أو تنشب حرب غير متوقعة.... إذاً دائماً هنالك ما يدعو إلى الخوف من الإخفاق، ولا علاج لذلك إلا بالتوكل على الله.

وقال صلى الله عليه وسلم: [لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً، وتروح بطاناً]. (رواه الترمذي).

وقال صلى الله عليه وسلم: [كان آخر قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين ألقي في النار.، "حسبي الله ونعم الوكيل"]. (رواه البخاري).

وقد يأتي القلق، نتيجة لضعف الثقة بالنفس، من حيث القدرة على القيام بعمل، أو مهمة أوكلت إلى الإنسان. فقد عالج النبي محمد صلى الله عليه وسلم حالة قلق

نفسي، أصابت أحد أصحابه حين خشي الإخفاق في مهمة تطوع للقيام بها، وتكفل للنبي محمد صلى الله عليه وسلم بتنفيذها. ورد في سيرة ابن هشام أنه: بعد غزوة بدر، ذهب كعب بن الأشرف وهو من شعراء اليهود إلى مكة، يحرض المشركين على قتال المسلمين، ثم عاد إلى المدينة، فشبب بنساء المسلمين، حتى آذاهم، فقد قال شعراً لا يليق عن نساء المسلمين فكان في ذلك إهانة لهن ولرجالهن، ولهذا حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم بوصفه الحاكم والقاضي وبوصف كعب من رعاياه، وقد ارتكب خيانة عظمى لدولة المدينة المنورة، حكم عليه بالقتل فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه: [من لي بابن الأشرف؟ٍ]. " أي: من يقتله؟".

الجنة دار السلام والأمان والرعاية والعناية الربانية، ولا يحتاج فيها الإنسان إلى جرس الإنذار الذي يحذره من الأخطار غير المنظورة ليجعله يتوقعها ويتجنبها

فقال له محمد بن مسلمة: أنا لك به يا رسول الله! أنا أقتله.

قال: " فافعل إن قدرت على ذلك".

فرجع محمد بن مسلمة، فمكث ثلاثاً لا يأكل ولا يشرب، إلا ما يعلق به نفسه، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه، فقال له: "لم تركت الطعام والشراب؟".

فقال: "يا رسول الله! قلت قولاً لا أدري هل أفين لك به أم لا؟".

فقال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "إنما عليك الجهد".

يجب أن نفهم ديننا جيداً، حتى لا نقسو على أنفسنا فنحرجها ونشق عليها

لقد علمنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن الجهد يجب أن يقدر، وألا يقتصر تقديرنا على النجاح والإنجاز، كما هي الحال في الحضارة الغربية المعاصرة، حيث لا يقدر ولا يكافئ إلا الناجحون والمتفوقون.

إن هذه النظرة الإيمانية إلى الأمور، تريح النفس البشرية من القلق الناتج عن خشية الإخفاق، إذ لا لوم على المرء طالما أنه بذل ما بوسعه بإخلاص، بل هو مأجور على جهده الذي بذله.

قال صلى الله عليه وسلم: [إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر]. (أخرجه البخاري)

الفصل الخامس:آجال مكتوبة

يشكل الموت مصدر قلق نفسي شديد للإنسان فهو يقض مضجع النفس البشرية، ويهزها هزاً، إذ ليس هنالك عاقل على وجه الأرض يشك في أنه سيموت يوماً ما. هذا على المستوى العقلي، لكن على مستوى المشاعر، فإن الإنسان عادة يتغافل عن هذه الحقيقة ويتناساها، فيعيش وكأنه لن يموت، فهو في حالة إنكار نفسي لحقيقة أنه سيموت، وكأن الموت حق، ولكن حالته هو حالة خاصة لا تشملها هذه القاعدة.

والإنكار النفسي، أو الغفلة، أسلوب من أساليب النفس البشرية، للتخلص من القلق الذي تسببه مواجهة بعض الحقائق التي لا يمكنها تغييرها، ولا تستطيع لها دفعا. إنه دفن للرؤوس في الرمال، إن لم يفلح في التخلص من الأعداء، فإنه يفلح في إبعادهم عن الحواس والوعي، ريثما يقع القضاء.

ولحكمة عظيمة، أخفى الله عن كل نفس أجلها، إذ لو علم كل إنسان أجله، لقصر أمله، وداخله اليأس، فالإنسان السوي مهما بلغ من العمر، يبقى لديه أمل في أن يعيش أكثر، وتراه يخطط ويبذل الجهد من أجل المستقبل. قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [لا يزال قلب الكبير شاباً في اثنتين: في حب الدنيا، وطول الأمل]. (البخاري:/ 6057/).

وقال أيضاً : [يكبر ابن آدم ويكبر معه اثنتان: حب المال، وطول العمر]. (البخاري: 6058). ولو علم كل منا أجله، لتقاعس أكثرنا عن فعل الخير، ولاتبع أكثر الناس أهواءهم، مؤجلين التوبة إلى السنة الأخيرة من حياتهم، أو حتى إلى الشهر الأخير.

ومن جهة أخرى، فإن غير المؤمن، يظن أن الإنسان يموت بحسب المصادفات، ومع ظنه أن العافية البدنية تضمن استمرار الحياة، فإنه يبقى في رعب وقلق، إذ قد يكون مصاباً بداء خفي يقربه من الموت كل يوم خطوات، وقد يموت في حادثة غير متوقعة، فلا العافية ولا الشباب يضمنان البقاء، إذ ما أكثر ما يموت الشباب، بل وحتى الأطفال! وبهذا يحيا غير المؤمن في قلق دائم من الموت، طالما أنه لم يؤمن أنها آجال محددة من الخالق. وقد عبر الشاعر العربي الجاهلي عن اعتقاده أن الموت أمر عشوائي يصيب سيئ الحظ، فقال:

المؤمن بشر يصيبه ما يصيب البشر من أمراض نفسية وجسدية، وهو بشر تغيب عنه بعض حقائق الإيمان والإسلام الذي ارتضاه لنفسه ديناً، فيتمكن الشيطان من أن يحزنه ويقلقه

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تُمِتْهُ ومن تخطئ يعمر فيهرم

لكن المؤمن يعرف أن الأمر ليس كذلك، إنما هي آجال يكتبها الله عندما يكون الإنسان جنيناً في بطن أمه، ويضمن الله القدير أن يعيش كل منا إلى أن يبلغ أجله. قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ}. (الأعراف: 34).

وقال: {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ}. (الزمر: 42).

إذاً هو أجل قد سماه الله.، إذ حدد لكل منا عمراً يعيشه، ولن تستطيع قوة في الكون أن تميت إنساناً إلا إذا جاء أجله. قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً}. (آل عمران: 145).

ومن أجل ذلك، وكل الله بكل إنسان ملائكة تحفظه من الموت، حتى يحين أجله. قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}. (الأنعام: 61). وقال أيضاً: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ}. (الرعد: 11).

وقال: {وَالسَّمَاء وَالطَّارِقِ{1} وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ{2} النَّجْمُ الثَّاقِبُ{3} إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ{4}}. (الطارق: 1- 4).

إن لمعرفة هذا كله أثره البالغ في بث السكينة والطمأنينة في النفس المؤمنة... وهي خير من الإنكار النفسي والتغافل. فشتان ما بين الطمأنينة التي تأتي من الغفلة، والطمأنينة التي تأتي من إدراك أن كل شيء في هذا الكون بقدر من الله القاهر فوق عباده، المسيطر على كل شيء في الوجود.

فالإنكار والتغافل لا يصمدان أمام الأحداث اليومية التي تذكرنا بالموت، وبخاصة إذا ما وقع الموت قريباً منا: في صديق، أو قريب. عندها تكون المواجهة مع الحقيقة، ولا يريحنا من القلق الناتج عنها إلا الإيمان الصحيح.

تطول معاناة المريض المتدين، لأن كثيراً من الوقت يضيع وهو يحاول الاستشفاء على يد المطوعين والمشايخ، وفي النهاية يحط رحاله عند طبيب نفسي، ويكتشف أن الأمر مرض لا يختلف عن الأمراض الأخرى كالسكري وغيره

الفصل السادس: نعمة الوجود

في عصرنا هذا، وبعيداً عن هداية الله، بحث الفلاسفة والأدباء الوجوديون في أسباب القلق النفسي الإنساني، فوصلوا إلى أن القلق والمعاناة النفسية أمران ملازمان للوجود الإنساني، مجرد الوجود في هذه الحياة، إذ طالما أن الإنسان وُجِد، فلا بد له من مواجهة القلق والمعاناة.

ولكن مع الإيمان وهداية رب العالمين، يصبح الوجود، مجرد الوجود، نعمة ما بعدها نعمة، فالذي يسر الله له سبيل الهداية، وأعانه على التقوى، وبشره النبي محمد صلى الله عليه وسلم أن جنة الخلد في انتظاره، حيث الخلد، وحيث السلام النفسي، والمتع بأنواعها كافة، حيث أعد الله للمؤمنين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر...المؤمن الذي عرف هذا، لم يكن ليسره، لو أن الله لم يخرجه إلى هذا الوجود، مع أن هذا الوجود، وفي المرحلة الدنيوية فيه الكبد والكدح والمشقة، وفيه الابتلاء والامتحان، وفيه خطورة الوقوع فيما يؤدي إلى العذاب في نار جهنم. لكن المؤمن الذي استعان بالله على الهداية، والثبات على الحق، ويتوقع أن يدخله الله الجنة وهو مطمئن إلى أن الله لن يظلم أحداً، هذا المؤمن، يصبح وجوده نعمة كبيرة، تهون أمامها أية صورة من صور الحرمان التي تزعج الآخرين، فالحرمان مؤقت، وهنالك الجائزة العظيمة.

> الإنكار النفسي، أو الغفلة، أسلوب من أساليب النفس البشرية، للتخلص من القلق الذي تسببه مواجهة بعض الحقائق التي لا يمكنها تغييرها، ولا تستطيع لها دفعا

فما أعظم فرحة المؤمن أن أتاح الله له دخول هذا الامتحان، وأعانه على الهداية، ووعده أن يهديه سبله ما دام يجاهد في الله، كي تكون الجنة محطته الأخيرة، ودار مقامته السرمدية.

وهذا الوجود الذي رآه الوجوديون المتشائمون ملازماً للقلق والمعاناة، هذا الوجود تحرص عليه النفس حرصاً ما بعده حرص، لذا كان أهم أسباب القلق الإنساني: خوفه على هذا الوجود، ورعبه من العدم.

ومن دون الإيمان بالله واليوم الآخر، يصبح الموت في نظر الإنسان عودة إلى العدم المرعب، ويعيش هذا الإنسان في خوف دائم من الموت.

ولربما أدت به نظرته إلى الموت على أنه نهاية الوجود، إلى الحرص على استغلال كل لحظة من حياته في المتع الحسية، ولا يهم عندها أن تكون المتع من

حلال أو حرام، فيقع في الخمر، والمخدرات، والعلاقات المحرمة، ولا يتورع عن السرقة، أو غير ذلك من جرائم، من أجل الحصول على المتعة.، ليملأ بها حياته القصيرة التي يرى العدم نهاية لها.

لكن المؤمن يتمتع بالوجود نفسه.، لأنه يعلم أن الإنسان خُلِق ليبقى، وأن الله قد ضمن له الخلود، ويعلم أن الموت ليس عودة إلى العدم واللا وجود، بل الموت حالة من حالات الوجود، بينه وبين النوم شبه كبير.

وقد سأل الصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أينام أهل الجنة؟". فقال: [لا، النوم أخو الموت، وأهل الجنة لا يموتون، ولا ينامون].(رواه البزار والطبراني والبيهقي بإسناد صحيح عن جابر كما قال العجلوني رحمه الله).

وكان صلى الله عليه وسلم إذا استيقظ من نومه يقول: [الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا، وإليه النشور]. (البخاري).

ويتشابه الموت والنوم في أمر هام، وهو انعدام الشعور بالزمن... فالنائم إذا قام من نومه لا يمكنه أن يعرف كم أمضى من الوقت نائماً، إلا أن ينظر إلى الساعة، أو أن يبحث في الطبيعة حوله عما يعينه على ذلك، كأن يرى الشمس قد أشرقت، أو غير ذلك من الدلائل التي يستنتج منها في أي وقت هو.

وهكذا الحال مع الموت. فمهما طالت السنون منذ موت الإنسان، وإلى أن يبعث يوم القيامة، فإنه لا يشعر بمرورها إلا كما يحس النائم إذا أفاق. يقول تعالى: {يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زرقاً (102) يتخفتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً (103) نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثلهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً }.(طه: 102 – 104).ويقول أيضاً: {ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون (55) وقال الذين أوتوا العلم والإيمن لقد لبثتم في كتب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون}. (الروم: 55 – 56).

ويوم القيامة يجسد الله الموت كبشاً يذبح أمام الجميع، فإذا مات الموت نفسه، بقي الخلود المضمون من الله تعالى.

إنما هي آجال يكتبها الله عندما يكون الإنسان جنيناً في بطن أمه، ويضمن الله القدير أن يعيش كل منا إلى أن يبلغ أجله. قال تعالى: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}. (الأعراف: 34).

الفصل السابع: قلق الموت

عندما يختار الإنسان سبيل الشاكرين، فيكون أول شكره إيمانه بالله تعالى، إيماناً لا يلابسه شرك، ويكون ثاني شكره إيمانه باليوم الآخر، وثالث شكره أن يعمل صالحا، فإنه لن يضل ولن يشقى، وكيف يضل وأنوار الإيمان تنير سبيله، وتضيء قلبه؟، وكيف يشقى وعنده هداية الخالق العظيم؟.

والذي يتوقعه العقل، أن هذا العبد الشاكر، لن يخشى الموت، ولن يكون الموت مصدراً للقلق النفسي لديه، وهذا صحيح، وإن كانت الفطرة تجعله يكره الموت، لأنه حببت إليه الحياة، لكنه قد تكون لديه أحياناً بعض الأسباب التي تجعله يخشى الموت، ويحس بالقلق بسببه.

فشتان ما بين الطمأنينة التي تأتي من الغفلة، والطمأنينة التي تأتي من إدراك أن كل شيء في هذا الكون بقدر من الله القاهر فوق عباده، المسيطر على كل شيء في الوجود

فالبعض قد يتصور أن الموت نفسه عملية مؤلمة إلى أبعد الحدود.، لذا فهو يخشى ألم الموت، ويصاب بالقلق خشية مواجهة معاناة يرى أنها تفوق التصور والاحتمال.

لكن هذا الظن يجب تصحيحه، فمع أن للموت سكرات، كما كان يردد النبي محمد صلى الله عليه وسلم قبيل وفاته (كما روى البخاري)، فإن الموت سيكون بداية العذاب للكافرين المعاندين لهداية رب العالمين، قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُواْ الْمَلآئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ (50) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ }. (الأنفال: 50 – 51).

لكن هنالك صورة مقابلة لهذه الصورة، وعلى النقيض منها، صورة وفاة المؤمنين المتقين... قال تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}.(النحل: 32). إن هذه الآية الكريمة، مطمئنة إلى أبعد الحدود لكل مؤمن تقي، أن وفاته ستكون طيبة يشملها السلام والبشرى بجنة الخلد، والنعيم المقيم.

ثم إن البشر جميعهم، مؤمنهم وكافرهم يخشون الموت، لأنه يخرجهم مما هم فيه من نعم ومتاع وزينة، ويفرقهم عن المال، والبنين، والجاه، وغير ذلك مما يحبون.

أما المؤمن التقي، فيعلم أن جنة عرضها السموات والأرض بانتظاره، وأنه له فيها أزواج مطهرة، ومتع لم تخطر على بال، ينالها بعد الموت جزاء وفضلاً، ورحمة من الله تعالى.

فالمؤمن التقي، يجب ألا يخشى فراق ما يحب في الدنيا.، لأنه صائر إلى ما هو خير منه، كما أن الله سيلحق به من صلح من آبائه، وذريته، وأزواجه: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ } {الرعد :23}..فلن يكون الموت سبباً للخسارة، بل هو الربح الكبير، والفوز بالكثير جزاء على عمله القليل.

وقد يخشى مؤمن الموت أن ينزل به في أية لحظة، لأنه لا يرى نفسه جاهزاً للقدوم على ربه، فذنوبه كثيرة، وهو يخشى الله، ويخشى أن يعذبه بها.

ولا علاج لهذا القلق لدى المؤمن إلا بتجديد التوبة، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، وإلا باجتناب الكبائر، والاطمئنان إلى أن الصلوات الخمس، وغيرها من الصالحات، تمحو ما يقع المؤمن فيه من الصغائر واللمم.قال تعالى {إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً} النساء31. وهذا ليس من قبيل أمن مكر الله، إنما هو ما بشرتنا به آيات القرآن الكريم، أما الذي يتبع نفسه هواها على أمل أن يتوب قبل أن يموت، فإنه قد وقع في أمن مكر الله، ونسي أن الله قد يباغته بالموت قبل أن يتوب، وأن الله إذا غضب من العبد من كثرة كبائره، قد يحول بينه وبين قلبه، فلا يميل قلبه إلى التوبة، ويموت دون أن يتوب، فيكون مستحقاً للعذاب الشديد.

ويبقى لدى المؤمن سبب آخر لخشية الموت، فالذي له أطفال صغار قد يخشى الموت.، لأنه يخاف على صغاره مرارة اليتم والفاقة.

وهذا المؤمن، مدعو أولاً إلى أن يدخر ما يمكنه ادخاره من دخله، فلا يبسط يده كل البسط إن كان في رزقه سعة، أما إن كان ممن قدر عليهم رزقهم فقل دخلهم، فيبقى له التوكل على الله، والدعاء لأولاده، والتقوى والصلاح، ثم لينم بعدها مطمئناً على أولاده، فإن الله لن يضيعهم.

بحث الفلاسفة والأدباء الوجوديون في أسباب القلق النفسي الإنساني، فوصلوا إلى أن القلق والمعاناة النفسية أمران ملازمان للوجود الإنساني

مع الإيمان وهداية رب العالمين، يصبح الوجود، مجرد الوجود، نعمة ما بعدها نعمة

أما كلف الله الخضر – عليه السلام – ليقيم جداراً في قرية للئام، وذلك حفظاً وحماية لكنز ادخره الله تحت ذلك الجدار ليتيمين في المدينة؟! وما ذلك إلا لأن أباهما كان صالحاً. قال تعالى: {وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً} (الكهف: 82).

وقال تعالى: {وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافاً خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلاً سَدِيداً }النساء9.. إنه تأمين للأطفال لا يضاهيه التأمين عند أكبر شركات التأمين، وإن أقساطه التقوى والقول السديد، أما حمايته لأطفالنا فمضمونة لأننا قد أمنا لهم عند رب العالمين.. وهل يضيع من تكفّل رب العالمين برعايته وكفايته وحمايته؟.

من دون الإيمان بالله واليوم الآخر، يصبح الموت في نظر الإنسان عودة إلى العدم المرعب، ويعيش هذا الإنسان في خوف دائم من الموت

الفصل الثامن: فلنحيينه حياة طيبة

إن النفس الخالية من الإيمان وأنواره، نفس مظلمة، يعشش فيها الخوف والقلق والاضطراب، ومن دون الإيمان بالله، والتوكل عليه، تغدو النفس البشرية، ألعوبة بيد الشيطان، يبث فيها الحزن والقلق، كي تستجيب لدعائه لها إلى الفحشاء، والمنكر.

أما النفس المؤمنة المتوكلة، فإنها عصية على الشيطان، حصينة في وجه وساوسه، قال تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ{98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{100}}. (النحل: 98 – 100).

والخوف من الفقر، سبب هام للقلق النفسي، فالإنسان يخشى الفقر، لأن الفقر يحرمه من كثير من الأشياء التي يحبها، ولأن الفقر إذا اشتد قد يحرمه من الأساسيات.

ثم إن الإنسان يخشى الفقر، لأنه حتى لو لم يحرمه من الأساسيات، فإنه ينزله من المكانة الاجتماعية التي يحتلها إلى مكانة دونها، فاحترام الناس وتقديرهم له، قد ينقص إن رأوا فقره، واحتياجه.

وقد وجد علماء النفس، أن الأمن والرزق هما أهم حاجتين إنسانيتين، والإنسان عادة لا يفكر بغيرهما من الحاجات، كالحاجة إلى الحب، والتقدير، وتحقيق الذات، إلا بعد أن يحصل على الحد الأدنى من الأمن والرزق.

ولقد من رب العالمين على قريش بما أعطاهم من الرزق والأمن، قال تعالى: {لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ{1} إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيْفِ{2} فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ{3} الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ{4}}. (سورة قريش).

والنبي محمد صلى الله عليه وسلم بين أن العافية مع الأمن والرزق، ثلاثة أشياء هي الأساسيات للإنسان، قال صلى الله عليه وسلم: [من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا]. (رواه الترمذي، وابن ماجه).

ولقد طمأن رب العالمين المؤمنين على أرزاقهم حتى لا يفقدهم الخوف من الفقر سكينة نفوسهم المطمئنة، فأكد لهم أن الرزق كالأجل يكتبه الله والإنسان جنين في بطن أمه، فالرزق بيده تعالى يحدده بنفسه، ولا يمكن لأحد أن يحرم أحداً رزقاً قد كتبه الله له... قال تعالى: {وَفِي السَّمَاء رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ{22} فَوَرَبِّ السَّمَاء وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ}. (الذاريات: 22 _ 23).

وقد ربط المولى بين المغفرة والفضل والرزق. قال تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}. (البقرة: 268).

ولارتباط المغفرة بالفضل، كان الاستغفار مدعاة للفرج، والمخرج من الهم والضيق، وجالباً لرزق الله يأتي من حيث لم يحتسب المؤمن. قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب]. (رواه أبو داود وابن ماجه والبيهقي).

وللتقوى جائزة مماثلة... قال تعالى: {... وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً{3}}. (الطلاق: 2 – 3).

وكما تستدعي التقوى الرزق والفضل، فإن الذنوب قد تستدعي الحرمان من الرزق.. قال صلى الله عليه وسلم: [لا يزيد في العمر إلا البر، ولا يرد القدر إلا

المؤمن يتمتع بالوجود نفسه.. لأنه يعلم أن الإنسان خُلِق ليبقى، وأن الله قد ضمن له الخلود، ويعلم أن الموت ليس عودة إلى العدم واللا وجود، بل الموت حالة من حالات الوجود، بينه وبين النوم شبه كبير

الدعاء، وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها]. (ابن ماجه، حديث رقم /90/).

فالعمل الصالح مع الإيمان، خير ضمان لحياة طيبة، بكل ما تعنيه الطيبة في الحياة من معنى... إنها الحياة الطيبة في الدنيا، ثم الجزاء والمكافأة في الآخرة... قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ{97}}. (النحل: 97).

ووعد الله الذين يداومون على تلاوة القرآن الكريم ويقيمون الصلاة ولا يتهاونون فيها ويؤدون الزكاة وما استطاعوا من الصدقات، وعدهم أن يزيدهم من فضله فقال: {إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرّاً وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ{29} لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ{30}} فاطر: 29-30}

كما وعد الشاكرين له على نعمه أن يزيدهم منها فقال: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} { إبراهيم: 7 }

إنه مع نور الإيمان والطاعة، لا يبقى للقلق الناتج عن خشية الفقر مكان في النفس المؤمنة، وقد قال العلماء الذين فقهوا كلام الله تعالى وأقوال رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، قالوا: "ما افتقر تقي"، إذ كيف يفتقر والرزاق يرزقه من حيث لا يحتسب؟!. وإن كان هذا لا يعني أن كل فقير هو عاصٍ لله لأن التقوى حالة من الطاعة أرقى من الحد الأدنى الذي لا بد للمؤمن منه.

المؤمن التقي، يجب ألا يخشى فراق ما يحب في الدنيا.. لأنه صائر إلى ما هو خير منه، كما أن الله سيلحق به من صلح من آبائه، وذريته، وأزواجه

9 - الفصل التاسع: قَدَر حتى لو كان مصادفة

قال تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً{1} الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَداً وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً{2}}. (الفرقان: 1 - 2).

إن من الأسباب الهامة للقلق النفسي عند الإنسان ظنه أن المصائب تقع عليه بشكل عشوائي، وأنه لا يحميه منها إلا حذره واحتياطه، وهو مع ذلك يبقى قلقاً، لأنه مهما احتاط، فإنه لا يعرف من أين تأتيه المصائب أحياناً ....

كما أنه لا غنى للإنسان، عن الكثير من الأعمال اليومية التي تنطوي على شيء من الخطورة حتى لو كان قليلاً، فالذي يخرج من بيته إلى عمله معرض لحوادث السير ولحوادث العمل وغيرها من المخاطر، والمرأة التي تطهو الطعام لأسرتها معرضة للحريق وغيره من المخاطر.

أما المؤمن، فيحميه إيمانه بقضاء الله وقدره من هذا النوع من القلق، إذ لا يكتمل الإيمان ما لم تكتمل أركانه كلها، ومنها الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

فكل ما يجري في الكون، حتى لو كان ناتجاً عن فعل القوانين الطبيعية المتفاعلة مع الصدفة، أو عن فعل كائنات لها بعض الحرية، وتساهم في إحداث ما يحدث في هذا الكون، إن ذلك كله يجري بقدر الله تعالى، الذي خلق القوانين الطبيعية، والذي منح الحرية والإرادة، والقدرة لبعض مخلوقاته، وهو يعلم كل شيء، ويعلم ما سيحدث في المستقبل، وهو قادر على كل شيء، وقادر على التدخل ومنع حدوث ما يريد له ألا يحدث، أو تغيير مسار الأحداث بالاتجاه الذي يشاؤه سبحانه وتعالى، أو أن يأذن بحدوث ما علم أنه سيحدث، دون أن يتدخل فيه.

لن يكون الموت سبباً للخسارة، بل هو الربح الكبير، والفوز بالكثير جزاء على عمله القليل

وفي جميع الأحوال، لا يحدث في الكون شيء صغير أو كبير، إلا بعلمه وإذنه، أو بعلمه ومشيئته المتعمدة.

والإذن نوع من المشيئة، حتى لو لم يتدخل الرب في مسار الأحداث، بل كانت نتاج الصدفة، والعشوائية والاحتمالات، أو بفعل القوانين الطبيعية، أو بفعل إنسان عاقل يتمتع بقدر من الحرية والإرادة.

أما الذي يتبع نفسه هواها على أمل أن يتوب قبل أن يموت، فإنه قد وقع في أمن مكر الله، ونسي أن الله قد يباغته بالموت قبل أن يتوب

طالما أذن ربنا بحدوث أشياء معينة، وهو عالم بها قبل أن تحدث، وقادر على منع حدوثها، فإنها لم تقع إلا بقدره ومشيئته.

لقد ظن كثير من الناس، أن القدر يعني: أن الله يتدخل في كل صغيرة وكبيرة، ويسيّر الأمور بتعمد، ليحدث ما يريده هو، وكأن الله يجبر الأشياء والأشخاص على فعل ما يشاؤه ولو ضد إرادتهم، أو هو يجعل الأشياء تبدو وكأنها تحدث بقوانين طبيعية أو بالمصادفة، وبحسب قوانين الاحتمالات، أو بفعل الإنسان صاحب الإرادة الحرة. لكن ذلك كله مظهر خارجي، بينما الحقيقة: أن الله دفع الأشياء لتقع كما أراد لها. وهذا فهم خاطئ للقدر.

وقد جاء الاختلاط في فهم القدر، من عدم الانتباه إلى أن مشيئة الله نوعان:

الأول: مشيئة التعمد والقصد.

والثاني: مشيئة الإذن بوقوع الحدث، مع القدرة على منعه، والعلم المسبق به.

ليست إذاً الموافقة على الفعل، بل تركه يقع، والامتناع عن التدخل فيه، مع القدرة على ذلك والعلم أنه سيقع قبل أن يقع.

إذن العلم المسبق بما سيقع وتركه يقع أي الإذن بوقوعه هو نوع من المشيئة التي لا تتنافى مع حقيقة أننا نفعل ما نفعل في الحياة بإرادتنا الحرة التي وهبنا الله إياها، وأن ما يحدث في الطبيعة بمقتضى الصدفة والاحتمالات، وبحسب القوانين الطبيعية التي اكتشف العلم المعاصر الكثير منها، إنما هو قدر لله تعالى.

أي: نحن نريد، ونختار بحرية، والله عالم بما سنقدم عليه، وقادر على التدخل فيه، لكنه يتركه يقع، فنكون نحن المسؤولين عنه، والفاعلين له. ويكون الله هو الذي قدره، لأننا لم نفعل شيئاً إلا بقدره، وبالتالي يكون ما وقع وجرى على أيدينا فعل لله أيضاً. فهو قد استخدمنا، وبأيدينا جرت أقداره، وهو في الوقت ذاته لم يفرض وقوع شيء ضد إرادتنا وحريتنا، وبالتالي نحن مسؤولون عما فعلنا ولو كنا فعلناه بقدر الله.

إن النفس الخالية من الإيمان وأنواره، نفس مظلمة، يعشش فيها الخوف والقلق والاضطراب

أي: ما نفعله نحن البشر له فاعلان:

الأول: هو نحن الذين نفعل الشيء بحرية وإرادة، ونكون مسؤولين عنه.

والثاني: هو الله الذي علم من قبل ما سنفعل، وهو القادر على منعنا من فعله، لكنه لم يمنعنا، بل تركنا نفعله، ففعلناه بعلمه وإذنه، أي: بقدره. وكل ما يقع بقدره، إنما هو من فعله، دون أن يقلل ذلك من مسؤوليتنا عما فعلنا، ودون أن يقيد حريتنا فيما نفعل.

وكما يبدو لنا فإن الأصل أن الله يأذن للأحداث أن تقع، ولا يتدخل فيها، إلا في حالات محددة.

كل ما يقع في الوجود، يقع بقدره.. عن طاوس أنه قال أدركت ناسا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون كل شي بقدر قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {كل شيء بقدر حتى العجز والكَيْس أو الكَيْس والعجز.} (رواه مسلم).

كل حركة لكل ذرة، أو ما هو أصغر منها، أو ما هو أكبر، وكل اهتزاز لورقة على شجرة، أو لجناح طائر، أو دورة لجهاز صنعه إنسان، أو فعل إرادي قام به كائن عاقل، كلها لا تقع إلا إن كان الله قدر وقوعها، وهذا لا يعني أن الله قد تعمد حدوث كل هذه الأشياء على كيفية معينة، إنما يعني أن الله علم بها من قبل، وقدر على منعها، لكنه أذن بحدوثها فحدثت، وبالتالي أصبحت من قدره، قال تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ }{الصافات: 96} وعن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: {خلق الله كل صانع وصنعته} { رواه البزار ورجاله رجال الصحيح غير أحمد بن عبدالله أبو الحسين بن الكردي وهو ثقة كما قال الهيثمي في مجمع الزوائد.}.

أي: أن الله يخلق النجار، ويخلق السرير الذي صنعه النجار، دون أن نبخس النجار دوره ككائن ذي إرادة حرة، قام بصنع السرير بإرادته الحرة ومهارته وجهده، فهو صانع السرير، والله صانعه هو وسريره.

أي: إن للسرير صانِعَيْن، أو قل خالِقَيْن النجار ورب العالمين، الذي خلق النجار، وقدر الأقدار، فقطع النجار الأشجار، وصنع سريراً من أخشابها.

وهو خالقنا وخالق أعمالنا بالقدر لا بالتعمد لها إذ نحن الفاعلون لها نعملها بعلمه وإذنه سواء منها ما يحب من الخير أو ما يبغض من الشر، وكونه خالقنا وخالق ما نعمل لا يعفينا من المسؤولية عن أعمالنا لأنه خالق كل شيء يقع بقدره، ولا يقع في الوجود شيء إلا بقدره، ولا يلزم أن يتعمده حتى يقع بقدره، بل يعلمه قبل أن يقع ويأذن به – وهو الذي على كل شيء قدير– فيكون من قدره ومخلوقاً له.

ربنا يخلق كل شيء بقدر. {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ } {القمر49}.

والخلق: هو التقدير،كما يقول صاحب لسان العرب وليس الإيجاد من العدم كما يظن أكثرنا، والنجار لم يتعلم صنعته إلا بقدر الله، ولم يتحرك حركة إلا وهي من قدر الله، وبالتالي فإن ما ينتج عن عمله، إنما هو من صنع الله خالق كل شيء.

من دون الإيمان بالله، والتوكل عليه، تغدو النفس البشرية، ألعوبة بيد الشيطان، يبث فيها الحزن والقلق، كي تستجيب لدعائه لها إلى الفحشاء، والمنكر

ويجب أن لا نتشنج وننزعج من القول: إن النجار خلق السرير، لأن الخلق من الناحية اللغوية، لا يعني إيجاد الشيء من العدم كما يظن كثيرون، بل هو الصنع والتقدير، وإعادة تشكيل ما هو موجود. مثلما خلق الله آدم من قبضة من طين لازب، حملها جبريل إليه من الأرض. وكما خلق عيسى من الطين طيوراً نفخ فيها، فكانت طيوراً حية، كباقي الطيور التي خلقها ربنا سبحانه وتعالى.

يقول تعالى على لسان عيسى عليه السلام، وهو يذكر بني إسرائيل بمعجزاته:

{وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـــي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} آل عمران49

فطيور عيسى لها خالقان، عيسى ورب العالمين. وكل ما نفعله، أو نصنعه له صانعان وفاعلان، نحن ورب العالمين، تبارك ربنا أحسن الخالقين، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ} المؤمنون14

ولنتأمل بعض ما جاء في لسان العرب حول مادة خلق، قال ابن منظور:

{خلق: الله تعالى وتقدَّس الخالِقُ والخَلاَّقُ، وفي التنزيل: هو الله الخالِق البارئ المصوِّر؛ وفيه: بلى وهو الخَلاَّق العَليم؛ وإِنما قُدّم أَوَّل وَهْلة لأَنه من أَسماء الله جل وعز. الأَزهري: ومن صفات الله تعالى الخالق والخلاَّق ولا تجوز هذه الصفة بالأَلف واللام لغير الله عز وجل، وهو الذي أَوجد الأَشياء جميعها بعد أَن لم تكن موجودة، وأَصل الخلق التقدير، فهو باعْتبار تقدير ما منه وجُودُها وبالاعتبار للإِيجادِ على وَفْقِ التقدير خالقٌ. والخَلْقُ في كلام العرب: ابتِداع الشيء على مِثال لم يُسبق إِليه: وكل شيء خلَقه الله فهو مُبْتَدِئه على غير مثال سُبق إِليه: أَلا له الخَلق والأَمر تبارك الله أَحسن الخالقين. قال أَبو بكر بن الأَنباري: الخلق في كلام العرب على وجهين: أَحدهما الإِنْشاء على مثال أَبْدعَه، والآخر التقدير؛ وقال في قوله تعالى: فتبارك الله أَحسنُ الخالقين، معناه أَحسن المُقدِّرين؛ وكذلك

وجد علماء النفس، أن الأمن والرزق هما أهم حاجتين إنسانيتين، والإنسان عادة لا يفكر بغيرهما من الحاجات، كالحاجة إلى الحب، والتقدير، وتحقيق الذات، إلا بعد أن يحصل على الحد الأدنى من الأمن والرزق

قوله تعالى: وتَخْلُقون إِفْكاً؛ أَي تُقدِّرون كذباً. وقوله تعالى: أَنِّي أَخْلُق لكم من الطين خَلْقه؛ تقديره، ولم يرد أَنه يُحدِث معدوماً. ابن سيده: خَلَق الله الشيء يَخلُقه خلقاً أَحدثه بعد أَن لم يكن، والخَلْقُ يكون المصدر ويكون المَخْلُوقَ؛ وقوله عز وجل: يخلُقكم في بطون أُمهاتكم خَلْقاً من بعد خَلق في ظُلمات ثلاث؛ أَي يخلُقكم نُطَفاً ثم عَلَقاً ثم مُضَغاً ثم عِظاماً ثم يَكسُو العِظام لحماً ثم يُصورّ ويَنفُخ فيه الرُّوح، فذلك معنى خَلَقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث في البَطن والرَّحِم والمَشِيمةِ،........ والخِلْقةُ: الفِطْرة. أَبو زيد: إِنه لكريم الطَّبيعة والخَلِيقةِ والسَّلِيقةِ بمعنى واحد... والخُلُق الخَلِيقة أَعني الطَّبيعة. وفي التنزيل: وإِنك لَعلَى خُلُق عظيم، والجمع أَخْلاق، لا يُكسّر على غير ذلك. والخُلْق والخُلُق: السَّجِيّة........ والخَلْق: التقدير؛ وخلَق الأَدِيمَ يَخلُقه خَلْقاً: قدَّره لما يريد قبل القطع وقاسه ليقطع منه مَزادةً أَو قِربة أَو خُفّاً؛ قال زهير يمدح رجلاً: ولأَنتَ تَفْري ما خَلَقْتَ، وبعـــــضُ القومِ يَخْلُقُ، ثم لا يَفْري يقول: أَنت إِذا قدَّرت أَمراً قطعته وأَمضيته وغيرُك يُقدِّر ما لا يَقطعه لأَنه ليس بماضي العَزْم، وأَنتَ مَضّاء على ما عزمت عليه؛..... وفي حديث أُخت أُمَيَّةَ بن أَبي الصَّلْت قالت: فدخَلَ عليَّ وأَنا أَخلُقُ أَدِيماً أَي أُقَدِّره لأَقْطَعه. وقال الحجاج: ما خَلَقْتُ إِلاَّ فَرَيْتُ، ولا وَعَدْتُ إِلاَّ وَفَيْتُ...... والخَلْقُ: الكذب. وخلَق الكذبَ والإِفْكَ يخلُقه وتخَلَّقَه واخْتَلَقَه وافْتراه: ابتدَعه؛ ومنه قوله تعالى: وتخْلُقون إِفكاً. ويقال: هذه قصيدة مَخْلوقة أَي مَنْحولة إِلى غير قائلها؛ ومنه قوله تعالى: إِنْ هذا إِلا خَلْقُ الأَوَّلين، فمعناه كَذِبُ الأَولين، وخُلُق الأَوَّلين قيل: شِيمةُ الأَولين، وقيل: عادةُ الأَوَّلين؛ ومَن قرأَ خَلْق الأَوَّلين فمعناه افْتِراءُ الأَوَّلين؛ قال الفراء: من قرأَ خَلْقُ الأَوَّلين أَراد اختِلاقهم وكذبهم، ومن قرأَ خُلُق الأَولين، وهو أَحبُّ إِليَّ، الفراء: أَراد عادة الأَولين؛ قال: والعرب تقول حدَّثنا فلان بأَحاديث الخَلْق، وهي الخُرافات من الأَحاديث المُفْتَعَلةِ؛ وكذلك قوله: إِنْ هذا إِلاَّ اخْتِلاق؛ وقيل في قوله تعالى إِن هذا إِلاَّ اختِلاق أَي تَخَرُّص. وفي حديث أَبي طالب: إِنْ هذا إِلا اختلاق أَي كذب، وهو افْتِعال من الخَلْق والإِبْداع كأَنَّ الكاذب تخلَّق قوله، وأَصل الخَلق التقدير قبل القطع. الليث: رجل خالِقٌ أَي صانع، وهُنَّ الخالقاتُ للنساء........... }

قال صلى الله عليه وسلم: [من أصبح منكم آمناً في سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا]

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [من لزم الاستغفار جعل الله له من كل ضيق مخرجاً، ومن كل هم فرجاً، ورزقه من حيث لا يحتسب]

الله يخلق ما يخلق بالقدر، فتكون كل بذرة حملتها الريح، فوقعت في التراب، وصادف التراب مطراً أنبتها، يكون خالقها وزارعها هو الله، لأنها زرعت بقدره، ونبتت بقدره، دون أن يشترط لهذا القدر أن يكون قدر تعمد، بل هو قدر العلم والقدرة والإذن.

إنه علم ما سيقع للبذرة المعينة، وقدر على تغيير مصيرها، لكن أذن لها أن تقع في التراب، وتنبت لتثمر وفق ما وضع فيها من برمجة مخزونة في الجينيات (المورثات).

العقيدة الصحيحة في القدر، ليست الاعتقاد أن الله وضع خطة لحياة فرد معين، فهي تسير وفق ما تعمده رب العالمين لهذا الشخص أو الشيء. إنما هي الإيمان أن كل شيء في الوجود، من أي نوع، وبأي سبب، وبأي مقدار، إنما يقع بقدر الله، لأن الله علم بوقوعه قبل أن يقع، ولو شاء له ألا يقع، لكان من المستحيل له أن يقع، وهو لا يقع إلاّ بإذن الله.

وهذا يعني أن الإيمان بوجود قوانين طبيعية، وطبائع للأشياء، تجعلها تتصرف بشكل محدد، ومحتم في المواقف المختلفة، كأن يتمدد الحديد كلما ارتفعت حرارته، ويتقلص كلما برد وهبطت حرارته، وكذلك الإيمان أن الكثير من الأشياء تقع بالمصادفة وفق قوانين الاحتمالات، والإيمان أن من الكائنات من هو حر، وله إرادة حرة حرية حقيقية، وتفعل ما تفعل بكامل حريتها، الإيمان بذلك كله، لا يناقض الإيمان بالقدر في العقيدة الإسلامية، لأن الله جعل للأشياء طبائع، وقوانين تحكمها. {قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى{50}}. (طه: 50).وتركها تتفاعل في الزمان والمكان، لينتج عنها ما يمكن أن ينتج، بحسب طبائعها، وبحسب القوانين الفيزيائية والكيميائية، وغير ذلك من قوانين طبيعية تحكمها، دون أن يعني ذلك أن ما يحدث لها خارج من دائرة قدر الله، بل كل شيء يقع إنما يقع بقدره، حتى لو لم يتدخل فيه، ولم يفرض عليه مساراً معيناً، بل تركه يقع بحسب إرادة حرة لكائن حي، أو بحسب قانون طبيعي، أو بحسب صدفة من الصدف.

العمل الصالح مع الإيمان، خير ضمان لحياة طيبة، بكل ما تعنيه الطيبة في الحياة من معنى... إنها الحياة الطيبة في الدنيا، ثم الجزاء والمكافأة في الآخرة...

نعم هنالك صدفة، وقوانين احتمالات، يمكننا بها أن نتوقع ما سينتج عن صدفة معينة، وهنالك قوانين ثابتة في الطبيعة، وطبائع للأشياء، تتحكم في نتيجة تفاعلها مع بعضها بعضاً. لكن رغم هذا كله، فإن كل شيء يقع من الأشياء أو الأشخاص أو يقع لهم، إنما هو قدر لله تعالى.كل شيء يحدث لأي شيء، وبفعل أي شيء، إنما هو قدر لله تعالى، فهو الذي لا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ} {سبأ: 3} وهو الذي على كل شيء قدير، وهو الذي لا يقع شيء إلا بإذنه وعلمه، وبالتالي بقدره.

إن التفكير العلمي المعاصر، الذي نما عند الغربيين بعيداً عن الإيمان، لا يتعارض مع إيماننا بالقدر، كما بينه لنا ربنا ورسولنا، بل نبحث في الكون من حولنا كما يبحثون، ونحاول معرفة طبائع الأشياء، والقوانين الطبيعية التي تحكمها، لنتمكن من تسخيرها، ونحن نؤمن أن الله الذي خلق الأشياء، وجعلها بالخصائص والطبائع التي هي عليها، ما يزال مسيطراً عليها سيطرة علم وإحاطة بها كلها، فلا يعزب عن علمه شيء صغير أو كبير، ومسيطر عليها سيطرة قدرة وقهر وتحكم، فلا يقع فيها شيء على الإطلاق إلا بإذنه.

لكن حكمته اقتضت أن يأذن بوقوع كل ما نراه يقع، دون أن يعفينا من مسؤولية ما نقوم به، فنكون مستحقين للثواب والعقاب، لأن خالقنا لم يجبرنا ولم يكرهنا على شيء، وإن كان كل شيء فعلناه قدراً له، لأن كل شيء يقع من جماد أو حيوان أو إنسان أو ملاك، أو جان أو أي كائن أو مخلوق، لا يقع إلا أن يقدره الله.. وحتى يقدره الله، يكفي أن يعلم به، وهو بكل شيء عليم، وأن يأذن بوقوعه، مع قدرته على منع حدوثه، وهو على كل شيء قدير، وهذا ينطبق على كل شيء وقع أو سيقع في الوجود، وما وقع علمنا أنه هو قدر الله، أما ما لم يقع حتى الآن، فلا نتأكد أن الله قدره حتى يقع فنحن لا نعلم الغيب وإن كنا نجزم أن ما سيقع لن يقع إلا بقدر الله.

يختلف الإيمان بالقدر في الإسلام عن باقي الأديان، بوضوحه وشموله وعدم تناقضه مع الإيمان بالحرية والإرادة الإنسانية، أو الإيمان بالقوانين الطبيعية، ودور المصادفات العشوائية في حدوث ما يحدث، وفي تولد شيء من شيء.

وعد الله الذين يداومون على تلاوة القرآن الكريم ويقيمون الصلاة ولا يتهاونون فيها ويؤدون الزكاة وما استطاعوا من الصدقات، وعدهم أن يزيدهم من فضله

فالمسلم الذي يؤمن أن القدر خيره وشره من الله تعالى، يستطيع أن يؤمن بحرية الإنسان، وبجبرية الأشياء وبالمصادفة، وغير ذلك من مكتشفات العلم المعاصر. وهكذا يجمع المسلم، بين عقيدته التي تنسب كل فعل للخالق سبحانه وتعالى، والاعتقاد بالقوانين، والنظريات العلمية التي تركز في بحثها على الفاعل المنظور، وتترك الحديث عن الفاعل الأكبر المقدر لكل ما يقع للدين والإيمان.

يستطيع المسلم المعاصر، بفضل عقيدة القدر الواضحة لديه، أن يكون مؤمناً عميق الإيمان، وعلمياً وعقلياً إلى أبعد الحدود في الوقت ذاته.

بقي أن لله سبحانه وتعالى طريقة ثانية يخلق بها الأشياء متجاوزاً فيها القوانين الطبيعية والصدفة وطبائع الأشياء، ولا يحتاج خلق الأشياء بواسطتها إلى أقدار، يقود أحدها إلى الآخر، حتى ينتج ما قدر الله خلقه. فالخلق يكون عادة بالقدر كما قال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} {القمر:49}.

الطريقة الثانية: هي إيجاد ما يريد الله إيجاده وخلقه بالأمر وكلمة "كن" فيكون. فهو إن أراد شيئاً معيناً، لن تؤدي إليه الأحداث الطبيعية، يقول الله له "كن"، فيكون على الفور، لا يتأخر ولا حتى جزءاً من ثانية.

لذلك قال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ{49} وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ{50}}. (القمر: 49-50).

وقال: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } الأعراف54

وعلماؤنا قديماً، ظنوا أن المقصود هنا "الأمر الشرعي"، لكن تدبر الآيات المختلفة، يبين لنا بوضوح أن الأمر هو الوسيلة الثانية لإيجاد الموجودات بطريقة المعجزات التي لا تلتزم القوانين الطبيعية. {{قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ } { الأنبياء: 69}.. ومتى كانت النار برداً وسلاماً على كائن حي من لحم ودم؟.

إن من الأسباب الهامة للقلق النفسي عند الإنسان ظنه أن المصائب تقع عليه بشكل عشوائي، وأنه لا يحميه منها إلا حذره واحتياطه، وهو مع ذلك يبقى قلقاً، لأنه مهما احتاط، فإنه لا يعرف من أين تأتيه المصائب أحياناً....

وبالأمر تتحول المادة غير المتشكلة إلى بنيان، تسري فيه الحياة، كما تحولت قبضة الطين التي سواها ربنا بيديه تمثالاً من صلصال كالفخار، ولما نفخ

فيها من روحه، تحول الصلصال إلى خلايا متنوعة الأشكال، والوظائف، منتظمة في بنيان ليس هنالك أحسن منه، فكان إنساناً كامل الخلقة سوياً، جمع كل صفات الكمال البشري في أحسن تقويم.

لم تمر الذرات والجزيئات بمراحل وأطوار ما بين الطين اللازب الذي ترك حتى يجف، ثم بأمر الله، وكلمة "كن"، كان آدم جسداً حياً.كما لو كان قد حملت به أم في رحمها تسعة أشهر، بل كان أكمل خلقاً وأقوم.

وما يَبْرَؤُه الله بكلمة "كن"، يكون كلمة الله، لأنه جاء إلى الوجود بكلمة الله.كما كان عيسى ابن مريم، كلمة الله ألقاها إلى مريم، لأن الحيوان المنوي الذي لقح ببيضة مريم، لم يتكون في خصية رجل، بل خلقه الله من التراب ابتداء بكلمة "كن"، فكان هذا الحيوان المنوي، الذي لا تراه إلا المجاهر شديدة التكبير، كان كلمة الله، التي تجسدت خلقاً لا يقل روعة عما يخلق ربنا بالقدر، بطريقة الخلق المألوفة لنا عبر الأسباب والمسببات وفق القوانين الطبيعية.

أما المؤمن، فيحميه إيمانه بقضاء الله وقدره من هذا النوع من القلق، إذ لا يكتمل الإيمان ما لم تكتمل أركانه كلها، ومنها الإيمان بالقدر خيره وشره من الله تعالى

عيسى هو الحيوان المنوي المخلوق بكلمة الله، المتحد مع بييضة مريم المخلوقة بالقدر، ثم حملت به مريم، وتخلق في رحمها، كما يتخلق كل جنين بشري، حتى حانت ساعة ولادته، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة،: {فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً } { مريم: 23} .

وكلمات الله أي: مخلوقاته التي أوجدها بالكلمة، هي غير كلماته التي حملت إلينا المعاني التي أوحاها وأرسلها إلى العباد لهدايتهم "كالقرآن الكريم". ففي القرآن كلمات الله، وفي الكون كلمات أخرى له، هي كل كائن، أو شيء، خلقه الله، وبرأه بقولة "كن".

في جميع الأحوال، لا يحدث في الكون شيء صغير أو كبير، إلا بعلمه وإذنه، أو بعلمه ومشيئته المتعمدة

ولعل أهم هذه الكلمات، التي لا تعد ولا تحصى، ملائكته الكرام، الذين لم تحمل بهم أنثى، وليس لهم آباء، إنما يخلقهم مولاهم بالأمر، وبقولة "كن"، فيكونون.

لقد اختلطت الأمور على كثيرين عندما تذكر الكلمة في كتاب مقدس سماوي، فقد يكون المقصود جبريل، وقد يكون المقصود غيره.

وفي القرآن الكريم،كان عيسى هو الكلمة التي ألقاها إلى مريم، أي: الحيوان المنوي المخلوق بكلمة الله، والذي نفخه الملك في رحم العذراء الطاهرة مريم، وبذلك نفهم كيف تُلْقى كلمة من كلمات الله إلى مريم. {أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ}. الخلق وفق القوانين الطبيعية، وطبائع الأشياء، وبفعل الفاعلين، من مخلوقات الله ذات الإرادة.. والأمر، لا ينتظر تفاعلات الكيمياء، ولا تبدلات الفيزياء، بل يكون الانتقال من نوع من الوجود، إلى نوع آخر، بطريقة نعجز حتى عن فهمها وتخيلها.

جاء الاختلاط في فهم القدر، من عدم الانتباه إلى أن مشيئة الله نوعان:
الأول: مشيئة التعمد والقصد.
والثاني: مشيئة الإذن بوقوع الحدث، مع القدرة على منعه، والعلم المسبق به

احتار إبراهيم في كيفية إحياء الله للموتى، فقال: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـــي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـــكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } {البقرة: 260}.. كان يريد أن يرى الكيفية ليهدأ باله، ويطمئن قلبه المعذب بحيرته، فأمره الله أن يذبح أربعة طيور، ويوزع لحومها على أربعة جبال، ثم يدعو الطيور إليه، فإذا هي حية مقبلة عليه.

ويبقى السؤال: هل رأى إبراهيم من الكيفية التي يحيي بها الله الموتى، ما يريح فؤاده من فضوله وتساؤلاته؟. قطع لحم مقطعة، اجتمعت، والتحمت، وعادت طيوراً، تخفق بأجنحتها.

إن ما يبرؤه الله بكلمته وأمره، يبقى فوق قدرتنا على الفهم، لأن عقولنا مبرمجة على أن لكل شيء سبباً، والأمر يتجاوز الأسباب.

وكما أن ما يبرؤه الله بكلمته، يصبح مخلوقاً من مخلوقات الله، مع أنه لم يخلق عبر الأقدار التي تخلق بها الأحياء، والأشياء الأخرى. لكن الخلق بالأمر والكلمة، نوع من الخلق، وهو أيضاً من قدر الله، لكن الكلمة التي تصفه وصفاً أدق أنه: قضاء الله.

القضاء من القدر... لكن القضاء،كما هو حكم القاضي الذي يقضي فيه على المختصمين لديه، هو حكم يأتي من فوق ومن أعلى. إنها الإرادة النافذة للخالق، عندما يتعمد أن يوجد شيئاً فيوجده بأمره، لا أنه ينتظره ليحدث بالأقدار التي يأذن بها وفق القوانين الطبيعية التي سنها لمخلوقاته.

وقد التبس القضاء في أذهان الكثير من الناس فظنوا القدر كله قضاء، وظنوا أن كل ما قدره الله إنما هو بتعمد منه، فوسعوا بذلك دائرة القضاء حتى شمل القدر كله، وصار من الصعب تصور القدر مع حرية الإنسان في العمل ومسؤوليته عن أعماله، القضاء هو ما تعمده الخالق من أقدار وهو جزء من القدر لا القدر كله.

عندما يتعمد ربنا شيئاً على نحو معين، فإنه يقضي أن يكون كذلك... تأمل قصة خلق الكون... لقد خلق الله الكون بكلمة "كن"، فكان الكون، وإن صحت نظرية الانفجار العظيم، فإن الكون كله ظهر إلى الوجود، في جزء صغير جداً جداً من الثانية، وانطلاقاً من كمية مكثفة من المادة ذات حجم صغير جداً...ربما كانت كذلك، وانفجرت تلك الكتلة، وتبعثرت أجزاؤها، كواكب، وشموس، وأقمار، وغبار كوني، وحجارة سابحة في الفضاء، إلى غير ذلك، وعلى الأغلب، كان ذلك أمراً عشوائياً، لا يبالي ربنا هل كانت شموسه أكثر أو أقل من عدد معين، لكنه متحكم بكل شيء، وكل ما تكون رغم العشوائية، إنما تكون بعلمه، وإذنه، أي: بقدره.

العلم المسبق بما سيقع وتركه يقع أي الإذن بوقوعه هو نوع من المشيئة التي لا تتنافى مع حقيقة أننا نفعل ما نفعل في الحياة بإرادتنا الحرة التي وهبنا الله إياها

لكن المولى أراد السماوات أن يكن سبع سماوات لا أكثر ولا أقل، فقال: {فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاء أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ } {فصلت: 12}.قال فقضاهن سبع سماوات ولم يقل: فقدرهن سبع سماوات، مع أن قضاء الله، إنما هو بعض قدره، لكن عنصر القصد والتعمد الموجود فيه، يجعله قضاء وحكماً، لا مجرد علم وإذن، مع القدرة على التدخل، لكن دون ممارسة لهذه القدرة، كما هو حال أغلب الأقدار.

وهكذا عندما عصت بعض الأقوام، وفسقت عن أمر ربها، أخذها الله بقضائه، أي: بأمره. حيث كانت أدوات العقاب غير عادية، وغير متوقعة، من خلال الأقدار عادة، بل هو أمر من الله.

ولنتأمل هذه الآيات الكريمة:

{حَتَّى إِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ} هود40

{وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ } هود58

{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحاً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ }هود66

{فَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ} هود82

{وَلَمَّا جَاء أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مَّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ} هود94

{فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَاء أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ} المؤمنون27

هو قضاء، وهو حكم، وهو أخذ ربك.

كل ما نفعله، أو نصنعه له صانعان وفاعلان، نحن ورب العالمين، تبارك ربنا أحسن الخالقين

ومع أن الله على كل شيء قدير فإن كل ما أخبرنا أنه خلقه سواء بالقدر أو بالأمر خلقه من مادة أولية تم منها بناؤه وصنعه فالإنسان من تراب الأرض ومثله جميع الكائنات الحية من نبات وحيوان أما الملائكة فمن نور والجان من مارج من نار، وهذا التأكيد على المادة الأولية للخلق يتمشى مع المنطق العلمي وإن كنا نؤمن أن الله قادر على إيجاد الأشياء من العدم لأنه على كل شيء قدير لكنه أخبرنا أن كل مخلوقاته كانت من مادة أولية سبقتها في الوجود وبذلك يكون الخلق بشكليه الخلق بالقدر والخلق بالأمر شيئاً غير الإيجاد من العدم الذي لم يخبرنا ربنا عنه ومتى كان وكيف كان، بل أخبرنا عن خلقه الكائنات والأشياء من مادة أولية سبق له أن أوجدها ولا أعرف الكلمة الصحيحة المعبرة عن الإيجاد من العدم لأن الخلق غير الإيجاد من العدم كما رأينا. ولعل الباحثين يهتدون إليها لنعبر بها عن أمر سبق الخلق وهو إيجاد المادة التي منها تخلق المخلوقات .

ومما يؤكد اشتمال القضاء على الأمر تعبير القرآن الكريم عن الأمر بالقضاء كما في قوله سبحانه وتعالى: {{وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيماً} {الإسراء23} فالقضاء هنا أمر محض.

وقد يشكل على البعض أن الله قال :{قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} { التوبة51} فيظننون أن ما كتبه الله لنا إنما كتبه تعمداً وقضاء وهذا غير صحيح فربنا قال: ما كتب الله لنا ولم يقل علينا ولعل ذلك ليبعد شبهة الإجبار في الأقدار، لأن الكتابة علينا قد تأتي بمعنى الفرض علينا كما كتب علينا الصيام والقتال، لكن كتابة ما يصيبنا من خير وشر هي مجرد كتابة مثل الكتابة بالقلم لما علم الله أنه سيأذن بوقوعه من الأقدار، لا كتابة الفرض والقضاء إلا في بعض الأمور كالأجل وما شابه مما يأمر به الله أمر تعمد، ويتبين لنا هذا المعنى واضحاً في قوله تعالى: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ } {الحديد22}.

العقيدة الصحيحة في القدر، ليست الاعتقاد أن الله وضع خطة لحياة فرد معين، فهي تسير وفق ما تعمده رب العالمين لهذا الشخص أو الشيء. إنما هي الإيمان أن كل شيء في الوجود، من أي نوع، وبأي سبب، وبأي مقدار، إنما يقع بقدر الله، لأن الله علم بوقوعه قبل أن يقع، ولو شاء له ألا يقع، لكان من المستحيل له أن يقع، وهو لا يقع إلاّ بإذن الله

الفصل العاشر:المصائب ابتلاء وأقدار لا انتقام

ويبقى في النفس خوف من عقاب الله على ما تقع فيه من المعاصي، إذ يظن الكثيرون، أن الله يعاقب على الذنوب في الدنيا، وأن ما يحل بنا من مصائب، إنما هي انتقام من الله وعقوبة، فيظن المبتلى، أن الله غاضب عليه وناقم، ويتعمد أذيته، عقاباً له على ما وقع فيه من ذنوب. بينما الواقع مليء بأصحاب الكبائر، بل من الملحدين المحاربين لدين الله، وهم ينعمون بالعيش الرغيد، والعافية، وكل ما تتمناه النفس البشرية من النعم الدنيوية.

لنتأمل هذه الآيات الكريمة:

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ } {وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً } الكهف58 النحل 61

{وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاء أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيراً} فاطر45

{لَّوْلاَ كِتَابٌ مِّنَ اللّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} الأنفال68

{وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} العنكبوت 53

حكمته اقتضت أن يأذن بوقوع كل ما نراه يقع، دون أن يعفينا من مسؤولية ما نقوم به، فنكون مستحقين للثواب والعقاب

لو كان الله يؤاخذ الناس في الدنيا لما ترك على الأرض لا بشر ولا حيوان، ذلك أن أخذه شديد..قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ } هود102 والقرآن الكريم يحكي لنا حكاية عقاب فوري وقع على فئة من قوم موسى عليه السلام أساؤوا الأدب بحق رب العالمين فأخذتهم صاعقة محتهم من على وجه الأرض في طرفة عين قال تعالى:

{يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُواْ مُوسَى أَكْبَرَ مِن ذَلِكَ فَقَالُواْ أَرِنَا اللّهِ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَلِكَ وَآتَيْنَا مُوسَى سُلْطَاناً مُّبِيناً{153}} {النساء 153}

لقد أزالهم الله من الوجود عقاباً على كلمة بينما نرى الآن من يبلغ سوء الأدب أن يسب الله بأعلى صوته إذا غضب ولا يقع عليه أي عقاب، لأن المؤاخذة في الدنيا هي الاستثناء لا القاعدة أما القاعدة فهي الإمهال حتى الموت. ولولا الإمهال لاستوت المعصية الصغيرة مع الكبيرة لأن في كليهما عصيان لله الكبير المتعال، لكن مع الإمهال صار ممكناً التمييز بين الكبائر والسيئات حيث الأمر متروك للملائكة تكتب كل ذنب بحسبه بينما الحساب والمؤاخذة مؤجلان لما بعد الموت.

> ما وقع علمنا أنه هو قدر الله، أما ما لم يقع حتى الآن، فلا نتأكد أن الله قدره حتى يقع فنحن لا نعلم الغيب وإن كنا نجزم أن ما سيقع لن يقع إلا بقدر الله

وحتى هؤلاء جرى عليهم الإمهال حتى الأجل فقد بعثهم الله بعد موتهم ليستفيدوا من الإمهال لعلهم يستغفرون فيغفر لهم قال تعالى عنهم: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ{55} ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِّن بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{56}} {البقرة 55-56}.

وقد آخذ ربنا أمماً سابقة عاندت وعصت رسل الله وفسقت واستكبرت فانتقم ربنا منهم بعد صبر طويل عليهم وبعد استنفاد كل المحاولات لهدايتهم لكنهم أصروا على استكبارهم على الله ورسله وعلى المؤمنين فكان انتقام الله منهم ماحقاً ساحقاً لا يذر منهم أحداً، وكان انتقاماً بأمر الله الذي لا ينتظر العوامل الطبيعية والكوارث التي يمكن أن تتسبب بها، بل جاء أمر الله فأغرقهم أو أرسل عليهم أعاصير أبادتهم أو غير ذلك من وسائل الإهلاك الاستثنائية.

قال تعالى: {فَكُلّاً أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ } العنكبوت40

أما ما نراه من كوارث طبيعية فهي مما جرت به الأقدار الطبيعية وفق القوانين الطبيعية التي طبع الله مخلوقاته عليها، ووقوعها مستقل عن معاصي البشر لله لكن الله قادر على تلطيفها أو تلطيف أثارها على الأمم الخيرة تعجيلاً منه للمكافأة لهم على أعمالهم الصالحة، أما إن كثرت معاصيهم فإنه يترك المصائب تقع عليهم لعلهم يتضرعون أو يصبرون فيكفر عنهم بصبرهم ما ارتكبوه من الذنوب والمعاصي.

إذن ربنا الحليم الصبور العفو الغفور الغفار الرحمن الرحيم، أمهلنا حتى نموت، وأعطانا فرصة لنستغفر فيغفر لنا. ولا يكون هنالك ما يوجب العقوبة، أو نعمل الصالحات فتمحو الحسنات السيئات، ولا يكون علينا عقوبة، أو تصيبنا مصائب الحياة، التي لم يتعمد هو إنزالها فينا، إنما هي من طبيعة الحياة، كالمرض والموت والخسارة، والألم وغير ذلك من الكوارث الطبيعية، أو التي يرتكبها أناس، أضلهم الشيطان، فيعتدون على غيرهم، ويتسببون في أذاهم، أو تقع بالخطأ والنسيان.... فيصبر المؤمن ولا يتذمر، بل يحمد الله على ما قدر عليه من مصيبة، فيرضى الله عنه، لأنه رضي بقضائه وقدره وصبر على بلوائه، فيكافئه بأن يحتسب المصيبة عقوبة للمؤمن على معاصيه، فيمحو عنه معاصيه، مع أنه لم يستغفر لها، بل هو صبر على ما ابتلاه به ربه من مرض أو فقد أو ألم أو غير ذلك.

المسلم الذي يؤمن أن القدر خيره وشره من الله تعالى، يستطيع أن يؤمن بحرية الإنسان، وبجبرية الأشياء وبالمصادفة، وغير ذلك من مكتشفات العلم المعاصر

إن معاقبة الله في الدنيا ليست متعمدة، إنما هي المصائب التي هي من أصل الحياة الدنيا، يعتبرها ربنا عقوبة للمؤمن، لا لأنه مستعجل على العقوبة، بل هي المحاباة للمؤمن الحبيب لربه الغفور الرحيم، الذي يثيبه على الصبر، ويكفر عنه بصبره الخطايا.

لكن الله يقول: {وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ} الشورى30

هذه الآية تقول: إن الله قدر المصائب في حياة الناس عموماَ، وأذن بوقوعها –دون أن يتعمدها– لأنهم خطاؤون، والمصائب نافعة لهم، لتكفير خطاياهم، وإن كان يعفو عن الكثير من ذنوبهم دون عقاب.

والذي يفهم من هذه الآية الكريمة، أنه لو كان البشر كالملائكة، لا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون، لوقاهم الله المصائب، ومنع حدوثها، ولم يقدرها عليهم.

إن الله يختبرنا بالشر، أي: الضر،كما يختبرنا بالخير، أي: النفع. {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ } الأنبياء35. وهو يريد منا الصبر على الشر، أي: على المصائب، والشكر على الخير، أي: على العطاء والفضل، فإن فعلنا ذلك،كفر بالمصائب ذنوبنا، وزادنا بالشكر عطاء وفضلاً، فصار واحدنا يمشي، وليس عليه خطيئة، من كثرة الابتلاء.

عن مصعب بن سعد عن أبيه قال قلت:

- "يا رسول الله، أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فان كان في دينه صلبا اشتد بلاؤه، وان كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه، فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة". رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح، ورواه الحكم في مستدركه وقال حديث صحيح على شرط مسلم ورواه أحمد في مسنده.

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

- "ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقي الله وما عليه خطيئة". رواه الترمذي وقال هذا حديث حسن صحيح.

إن معاقبة الله للمؤمن الصابر في الدنيا، ليست من قبيل المؤاخذة، لأن أخذ الله شديد، إنما هي منحة، وإكرام للمؤمن الصابر، لا ينالها المؤمن الساخط، إذ لا تحتسب له المصيبة عقوبة،كما لا ينالها الكافر وهو أولى بسخط الله وعقابه، لكن كما قلنا، ربنا لم يعجل لنا العقوبة، بل أمهلنا حتى نموت. والمتأمل يجد: أن احتساب المصيبة عقوبة للمؤمن الصابر، هي من قبيل الحب له والرحمة والعطاء، لا من قبيل المؤاخذة والعقوبة والانتقام.

أما قوله تعالى {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} {الروم: 41} فهو عما يفسده الناس من البيئة، في البر والبحر، بل هم وصلوا في إفسادهم إلى الجو، وإلى طبقة الأوزون،

يستطيع المسلم المعاصر، بفضل عقيدة القدر الواضحة لديه، أن يكون مؤمناً عميق الإيمان، وعلمياً وعقلياً إلى أبعد الحدود في الوقت ذاته

وغيرها، مما يهدد البشرية بأن تذوق بعض ما صنعت من احتباس حراري، وما يمكن أن يجره من مصائب. إنهم سيذوقون بعض الذي عملوا، لأن الذي يخالف القوانين الطبيعية في البيئة أو في نفسه، تقع عليه عقوبة ملازمة لفعله، هي ناتجة عن فعله ذاته، وليست عقوبة مرسلة من الله، ولا متعمدة منه... إنها طبيعة الأشياء، فالمدخن القابل لسرطان القصبات، يصيبه هذا السرطان، وقد يقضي عليه، لا لأن الله غضب، فأنزل غضبه، ونقمته على هذا المدخن، بل لأن النتيجة ملازمة للفعل، ويكون سرطانه ابتلاء، فإن كان مؤمناً صابراً، احتسب الله ذلك له كفارة لذنوبه كلها... وقد يدخن آخر لديه مناعة أكثر مما دخن الأول دون أن يصيبه السرطان .

إن ما يبرؤه الله بكلمته وأمره، يبقى فوق قدرتنا على الفهم، لأن عقولنا مبرمجة على أن لكل شيء سبباً، والأمر يتجاوز الأسباب .

هنالك بعض الأعمال التي نهى الله عنها، أو أعطانا الحكمة،كي ننهى أنفسنا عنها، إن وقعنا فيها، نالنا وبال ما صنعنا على الفور في الدنيا، لأن هذا الوبال، هو من العواقب الطبيعية، لما وقعنا فيه، وليس عقوبة من الله معجلة.

إن تسونامي وغيره من الكوارث الطبيعية ناتجة على الأغلب من أنواع الإفساد البيئي، الذي أوقعه البشر في البر والبحر. وقد أخطأ من قال أن تسونامي كان عقاباً لأهل إقليم آتشه الإندونيسي حيث كانت الخسائر البشرية على أشدها لأن منهم من ارتكب بعض المعاصي على الشواطئ بينما شواطئ العري الكامل في أماكن عديدة لم يصبها شيء، وجهل هذا الذي فسر الأمر على أنهم عقاب من الله لأهل هذا الإقليم أن هذا الإقليم كان مسرح معارك كثيرة بين بعض أهله والحكومة الاتحادية الإندونيسية لأنهم يريدون تطبيق الشريعة الإسلامية في هذا الإقليم، وهو ما تحقق لهم بعد مصيبة تسونامي.

لكن كتابة ما يصيبنا من خير وشر هي مجرد كتابة مثل الكتابة بالقلم لما علم الله أنه سيأذن بوقوعه من الأقدار، لا كتابة الفرض والقضاء إلا في بعض الأمور كالأجل وما شابه مما يأمر به الله أمر تعمد

وبالمقابل فإن الله برحمته، يعجل بعض المثوبة في الدنيا للمؤمن الصالح، ويدخر له في الآخرة ما لا عين رأت، ولا خطر على قلب بشر .

قال هود عليه السلام لقومه: {يَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلاَ تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ} [هود: 52]

ويحكي نوح عليه السلام عن دعوته لقومه فيقول:{ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً{5} فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَاراً{6} وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا

أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً{7} ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً{8} ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً{9} فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً{10} يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً{11} وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً{12} مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً{13}} {نوح: 5-13}

وقال تعالى: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً} الجن16

{وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ} النحل41

{مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} النحل97

{وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيهِم مِّن رَّبِّهِمْ لأَكَلُواْ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاء مَا يَعْمَلُونَ} المائدة66

{وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ } الأعراف96

{وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْاْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُواْ خَيْراً لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ } النحل30

{قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ } الزمر10

{وَآتَيْنَاهُ فِي الْدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ } النحل122

{وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ } البقرة201

{فَآتَاهُمُ اللّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} آل عمران148

ويبقى السؤال: ألا يتدخل ربنا في حياتنا أبداً؟.

بل هو يتدخل، وما أكثر ما يتدخل، لكنه يتدخل دوماً ليسوق لنا الخير، أو ليخفف عنا بعض ما قدر علينا من مصائب، فيصيبنا بمصيبة صغيرة، ليصرف بها عنا مصيبة أكبر أو يكافئنا، فيسوق لنا خيراً، ما كان يسوقه، لو لم يكن عنا راضياً .

المصائب إما إنها من الأقدار المتوقعة بطبيعة الحياة، والعوامل الطبيعية والبشرية. أو إنها متعمدة ليرد الله بها عنا ما هو أكبر، أو ليسوق لنا من خلالها خيراً عظيماً.

طالما أن كل ما يقع لا يقع إلا بعلم العليم، وإذن الذي على كل شيء قدير، فإن كل ما يقع في الوجود قدر لله.

ولو تأملنا قصة موسى عليه السلام، مع الرجل الذي آتاه الله من لدنه علماً، والذي يعتقد أن اسمه" الخضر"، فإننا نستطيع أن نفهم طبيعة التدخل الرباني في أقدارنا. فقد جسد الخضر، قدر الله المتعمد الذي يقع، دون ذنب من البشر، أو دون مبرر مفهوم. فقد ركب موسى والخضر في سفينة، فقام الخضر بخرقها، وإحداث ثقب فيها، يجعلها سفينة معيبة.. لم يجد موسى مبرراً لهذا الفعل، لكن الخضر أخبره في النهاية، أن السفينة كانت لمساكين يعملون في البحر، وأراد الخضر أن يعيبها، لينقذها من أن يصادرها ملك يأخذ كل سفينة سليمة غصباً .

وما فعل الخضر ذلك عن أمره، بل هو أمر الله، فالله قدر على هؤلاء المساكين مصيبة صغيرة، وهي أن تخرق سفينتهم وتثقب، لا لذنب فعلوه، بل رحمة بهم، لأن هذا الخرق جعل فيها عيباً، فلا يأخذها الملك الغاصب، وتبقى لأصحابها المساكين، ويستطيعون إصلاحها، بعد أن نجاها الله من المصادرة رحمة بهم.

عن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال يا رسول الله أرأيت دواء نتدواى به ورقى نسترقي بها وأشياء نفعلها هل ترد من قدر الله قال يا كعب بل هي من قدر الله}

ثم يسير موسى مع الخضر، فيجدا غلاماً فيقتله الخضر، دون مبرر ظاهر، ويغضب موسى مرة أخرى، لأنه لا يعلم الغيب، لكن الخضر يبين له في نهاية الرحلة أن الغلام كان أبواه مؤمنين، أما هو فعلم الله أنه لو عاش حتى يكبر، لكان كافراً طاغياً، ومرهقاً لأبويه، فأراد رب العالمين أن يريح هذين الأبوين المؤمنين من طغيان ابنهما وكفره، فقدر موته وهو غلام، ولعله يدخل الجنة مع أبويه، لأن الغلام مرفوع عنه القلم، ثم قدر الله أن يرزقهما غيره، ذرية تكون خيراً منه، تتبعهما بإيمان. إنها مصيبة ترد مصيبة أكبر، جائزة من الرحمن، لأبوين مؤمنين، متوكلين عليه، يختار لهما ما هو خير وأحسن لهما، والله يعلم وأنتم لا تعلمون.

ثم يسير موسى والخضر، ويدخلان قرية أهلها لئام، يرفضون أن يضيفوهما، وفي قرية اللئام، يرى الخضر جداراً يريد أن ينقض، أي: إنه جدار متهالك، يكاد أن يقع وينهار، فيشمر الخضر عن ساعدي الجد، ويقيم الجدار، فيثبت دعاماته ويقويه فلا يقع، بل يقوم متماسكاً، يستطيع الصمود السنين الطويلة. لم يتقاضى الخضر أجراً على ما فعل، فعجب موسى، واستغرب من الرجل، أن يبذل الجهد الكبير ليقيم جداراً بلا مقابل لقرية أهلها لئام لم يضيفوه، وهو المسافر الجائع

المتعب، فبين له الخضر، أن الجدار كان لغلامين يتيمين في قرية اللئام، وكان تحت الجدار كنز للغلامين، ولما كان أبوهما المتوفى صالحاً، أراد رب العالمين، أن يكبر الغلامان، ويستخرجا كنزهما بنفسيهما، أما لو انهار الجدار، لانكشف الكنز، ولنهبه أهل القرية اللئام، ولم يعطوا منه للغلامين شيئاً. نعمة هبطت على أهل القرية اللئام، رجل ساذج يبني جدارهم دون مقابل، لكنهم يجهلون أن الله حرمهم بذلك من الكنز، وادخره للغلامين إكراماً لأبيهما الصالح. إنه تدخل مباشر من رب العالمين في الأقدار، جزاء لصلاح رجل مؤمن، توفي وترك غلامين يتيمين.

وربنا يتدخل في الأقدار حين ندعوه، ونلح عليه في الدعاء، ويريد أن يعجل لنا ما دعوناه من أجله. ربنا قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، لكن الإنسان يدعو أشكالاً وألواناً، وقد يدعو يطلب شيئاً فيه شر له.

{وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً} الإسراء11

{كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ} البقرة216

وقد يدعو الله يطلب خيراً، لكن ربنا يريد أن يعطيه ما هو خير منه، وقد يدعو الله يطلب منه أمراً لا يتحقق إلا بمعجزة، وربنا في جميع هذه الحالات يجيب الدعاء، ويلبي النداء، لكنه رحمة بعبده لا يعطيه ما سأل، بل يدخر له ثواب الدعاء، لأن الدعاء مخ العبادة، أو قد يعطيه من الخير ما يعادل ما دعاه له، لكنه لا يهمل دعاءه، لأنه وعد الإجابة، ووعده حق.

أما إن دعا المؤمن، يسأل الله خيراً، لا يحتاج إلى معجزة، وهو خير مؤكد، فإن الله يعجل له ذلك، ويسوق له الخير الذي سأله، لكنه يسوقه له من خلال الأقدار والأسباب، وقد يكون ذلك بعد حين، والشيطان يقول للمؤمن: إن ما طلبت من الله كان سيأتيك، سواء دعوت، أم لم تدع، وهذا إضلال من الشيطان، لأننا لا نعلم الأقدار كيف كانت لو لم ندع الله.

وعلينا الثقة أن دعاءنا مجاب في جميع الأحوال، وإن كانت إجابته لا تعني أن يعطينا ما طلبناه منه، لأن ذلك يسمى تعجيل الدعاء، وتعجيل الدعاء له شرطان حتى يقع.

طالما أن كل ما نفعله نفعله بقدر الله، فلم لا نحرص على ما ينفعنا، ونجتهد في الأخذ بأسباب النجاح في شؤون الدنيا والآخرة، ولا نجعل من إيماننا بالقدر خيره وشره من الله تعالى سبباً للعجز والاستسلام لأقدار يصنعها غيرنا

أولهما: أن يكون ما تطلبه خيراً، ليس فيه ضرر (إثم) لأحد..{عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل قيل يا رسول الله ما الاستعجال قال يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجيب لي فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء} رواه مسلم.

وثانيهما: أن يكون مما تجري به الأقدار عادة، لا مما يحتاج إلى معجزة ليقع، لأن الله خلق كل شيء بالقدر، وإن كان إذا أراد شيئاً قال له: "كن"، فيكون، لكنه لا يجيب الدعاء "بكن فيكون" إلا في حالات خاصة، وهي غالباً للأنبياء والرسل....

{قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ} الأنبياء69

{فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ} الشعراء63

{وَإِذِ اسْتَسْقَى مُوسَى لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُواْ وَاشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ اللَّهِ وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ} البقرة60

لكن تأمل موسى عندما فر من مصر إلى مدين ودعا: "ربي نجني من القوم الظالمين".

{وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ{23} فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ{24} فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ{25} قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ{26} قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ{27} قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ{28} أقدار عادية.. فقد سقى للمرأتين قطيعهما ثم آوى إلى الظل ودعا ربه: " فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ".

إننا إن فهمنا القدر الفهم الصحيح، انطلقنا في الكون نسخره لنا، ونؤدي دور الخلافة في الأرض، التي خلقنا الله لها، نصنع الأقدار، ونعلم أننا نصنعها بعلمه وإذنه جل في علاه، ولا نقف مجرد متلقين للأقدار، ومنفعلين بها بسلبية وعجز، ونظن أن ذلك مقتضى إيماننا بالقدر خيره وشره من الله تعالى

فكان الجواب على الفور.. إحداهما جاءته تدعوه ليجزيه أبوها أجر سقايته لهما، ثم لتطلب من أبيها أن يوظفه، أي "فرصة عمل" وهو في أمس الحاجة إليها.

ويعرض الأب الحكيم على موسى أن يزوجه ابنته المعجبة به، مقابل أن يعمل لديه بأجر ثماني سنوات... ليس في هذا معجزات، لكنها الأقدار، ساقها الله لموسى فآواه وزوجه وآنسه، ورزقه وكفاه، وأغناه بفضله عما سواه.

وهكذا تقع أقدار طيبة في حياتنا، قد تكون متعمدة من الله رحمة بنا، ومكافأة دنيوية على عمل صالح تقبله منا.

لكن لن يتعمد الله أن يصيبنا بمصيبة على سبيل الانتقام والعقوبة. فالمصائب إما إنها من الأقدار المتوقعة بطبيعة الحياة، والعوامل الطبيعية والبشرية. أو إنها متعمدة ليرد الله بها عنا ما هو أكبر، أو ليسوق لنا من خلالها خيراً عظيماً.

لنتأمل قصة يوسف عليه السلام... طفل صغير أحبه أبوه أكثر من إخوته، لِما رأى فيه من صفات أعجبته، وبشرت بمستقبله العظيم في الصالحين، رأى الطفل رؤية مبشرة له بمكانة عالية بين الناس، فخاف أبوه عليه من إخوته أن تدعوهم غيرتهم منه وحسدهم له إلى إيذائه، وبالفعل حدث ما كان يخشاه الأب النبي الكريم يعقوب.

فقد ألقي يوسف في بئر على طريق القوافل المسافرة، واستخرجه بعض المسافرين إلى مصر، وباعوه عبداً بثمن بخس قليل، لكن الله قدر أن يشتري يوسف عزيز مصر، وأن يربيه كما لو كان ابنه، فعلى ما يبدو، كان الرجل لا ولد له.

كبر يوسف، وكان وسيماً وسامة تفوق الوصف، فحاولت زوجة العزيز ومعها صديقاتها زوجات رجالات الدولة، أن يغوين يوسف، ليرتكب الفاحشة معهن، استجابة لشهواتهن، فعصمه الله واتهمته زوجة العزيز أنه حاول اغتصابها، لكن الله برأه.

وتضايق يوسف من ملاحقة النسوة له، فدعا ربه ليصرف عنه كيدهن، فاستجاب له ربه، فصرف عنه كيدهن.

إن إيماننا بالقدر، يقيننا من الفرح الذي هو الاختيال، والفخر، والتعالي عند النجاح، وهو الفرح المحرم بخلاف الفرح بمعنى السرور والغبطة والسعادة وهو المعنى الشائع في هذا الزمان لكلمة فرح

لكن أمراً غريباً وقع، فقد قرر العزيز، ومن معه من رجالات الدولة، أن يسجنوا يوسف حتى حين، لتقع أقدار كانت بالغة الأثر في حياة يوسف، وأبويه، وإخوته.

فقد دخل مع يوسف السجن فتيان، رأى أحدهما في المنام نفسه يعصر خمراً، وكان ساقي الملك، ورأى الثاني في المنام نفسه يحمل فوق رأسه خبزاً تأكل الطير منه، وكان خباز الملك. وكان يوسف يتنبأ بالطعام الذي سيأتيهم هم وباقي المساجين، قبل أن يأتيهم، وكان قادراً على تأويل الرؤى، فلجأ إليه الفتيان فدعاهما إلى الله الواحد الأحد، ثم أول لهما رؤيتيهما: خباز الملك يصلب، وتأكل الطير من رأسه. أما ساقي الملك، فينجو، ويرضى عنه مالكه، ويعود إلى خدمة الملك كسابق عهده.

إيماننا بالقدر يحمينا أيضاً من اليأس والقنوط عند المصائب

لم يفت يوسف أن يغتنم الفرص، فقال لساقي الملك: " اذكرني عند ربك". أي: عند مالكك، والرب هو المالك والراعي، لكن ساقي الملك، نسي أن يخبر الملك عن يوسف، ومرت بضع سنين، ويوسف في السجن، نسيه من أودعوه فيه ظلماً، ونسيه ساقي الملك.

إن الإيمان أن كل ما وقع ما كان ليقع لولا أن الله قدره وكتبه يريح النفس عند المصائب، ويزيل عن المصائب العشوائية الظاهرة، مع أن كثيراً من المصائب لا يتعمدها الله، لكنها ليست خارجة عن إحاطته، وقدرته، وتحكمه

لكن الله لم ينسه، وقد كان بشره عندما ألقاه إخوته في البئر، بأنه سيأتي يوم، ينبئ يوسف إخوته بفعلتهم هذه، ويعاتبهم عليها، فهو عائد إليهم لا محالة، وبقي يوسف صابراً في السجن، حتى صحا الملك يوماً من نومه، وقد رأى في منامه، سبع بقرات سمان، وسبع بقرات عجاف ضامرات، يأكلن البقرات السبع السمان، ورأى سبع سنبلات خضر، وسبع سنبلات يابسات...

كانت رؤيا عجيبة مليئة بالمعنى، لكن لم يعرف تأويلها أحد.

هنالك تذكر ساقي الملك يوسف الذي كان يعبر الرؤيا في السجن، ويتنبأ بالطعام قبل أن يأتي، فحدث الساقي الملك عن يوسف، فأرسله الملك إليه يسأله عن تأويل رؤياه، فقال يوسف: {قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تَأْكُلُونَ{47} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ{48} ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ{49}} {يوسف 47-49}

أي تزرعون سبع سنين دأباً، فما حصدتم فذروه في سنبله، إلاّ قليلاً مما تأكلون، ثم يأتي من بعد ذلك سبع سنوات شداد، يأكلن ما قدمتم لهن مما ادخرتم من حبوب، إلا قليلاً مما تحافظون عليه جيداً، ليكون بذاراً للسنة التي بعدها، حيث فيها يغاث الناس بالمطر الكثير، والماء الوفير، وفيه تثمر أشجارهم، ويعصرون ثمارها، كما اعتادوا من قبل.

أعجب الملك كثيراً بهذا التأويل، الذي استخلص المعنى من رؤياه التي عجز الحكماء عن فهمها، ومعرفة ما ترمز إليه، فقال: ائتوني بيوسف أستخلصه لنفسي. ويذهب الداعي إلى السجن، يدعو يوسف ليكون جليس الملك ومستشاره، فيأبى يوسف أن يستجيب لدعوة الملك، قبل أن يتحقق الملك مما اتهم به يوسف، وتتأكد براءته.. وهكذا كان. خرج يوسف من سجنه ليصبح عزيز مصر، وليتولى خزائنها في السنين المعطاءة والسنين العجاف، وليتولى تنفيذ ما نصحت به رؤيا الملك، وليأتي إخوة يوسف من فلسطين، يطلبون أن يشتروا بعض الطعام، إذ السنين العجاف كانت على المنطقة كلها، ويعرفهم يوسف، دون أن يعرفوه، ويحتال ليجعلهم يحضروا له أخاه الحبيب إليه، الذي من أمه وأبيه، بينما كان البقية من أم أخرى، ثم يعرفهم بنفسه، ويدعوهم مع والديه لترك البادية، والاستقرار في مصر، حيث تكاثر أولاد يعقوب (إسرائيل)، أي: يوسف وإخوته، إلى أن صاروا شعباً كبيراً على مدى القرون.

والشاهد في القصة، أن الله قدر ربما متعمداً، أن يسجن يوسف، وأن يكون ذلك في اليوم الذي يدخل فيه السجن ساقي الملك، الذي يتعرف على يوسف، ومقدرته العجيبة على تأويل الرؤيا، ثم ينجو الساقي، ويعود إلى عمله عند الملك، وتمضي سنون عدة، ليرى الملك رؤياه التي لا يعبرها إلا يوسف.

وينتقل يوسف من عبد مملوك متهم ومسجون، ولا ناصر له إلا الله، إلى عزيز مصر، المسؤول عن خزائنها في أشد وأصعب أوقاتها، ولتتحقق رؤيا يوسف التي رآها وهو صغير، وليتغير التاريخ تغيراً كبيراً .

ترى لو لم يدخل يوسف السجن، هل كان ما حدث سيحدث؟. في الغالب، كان سينفد صبر الرجال الذين علموا أن زوجاتهم مفتونات بيوسف ويراودنه عن

يكون في إيماننا بالقدر:

أولاً: معرفة قَدْر الله تعالى، وأنه غالب على أمره، وقاهر فوق عباده، وعلى كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

وثانياً: راحة وسكينة عند المصائب، وعند النعم، فلا نخرج عن شعورنا أننا لسنا وحدنا في هذا الكون، بل نحن خلفاء لرب العالمين، الذي استخلفنا في الأرض، واستعمرنا فيها، وهو الفاعل لكل ما نفعله

نفسه، وقد يقوم أحدهم بقتله للتخلص منه، فهو مجرد عبد مملوك، وهم علية القوم.. لكن الله ألهمهم أن يسجنوه، فحماه من شرهم ومن كيد نسائهم، وقدر له اللقاء بساقي الملك، كي يقع ما وقع، عندما رأى الملك رؤياه، إلى آخر الأقدار التي وقعت، وقادت إلى أن يأتي اليوم الذي يسجد فيه أبواه وجميع إخوته له، "سجود التحية". فهو عزيز مصر، وهم أجانب ضيوف، وقد كان كريماً معهم ومتسامحاً مع إساءتهم إليه.

هكذا يقود كل قدر إلى قدر آخر، والله لا يتدخل ليعيق ما نعمل، ويحبط ما نبذل الجهد له، لأنه لا يتعمد معاقبتنا، ولا الانتقام منا مهما عملنا.

اللهم أمتعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني (أي: أن أموت قبل أن تموت أعضائي)

بينما مكافأته لنا منها ما هو معجل في الدنيا، فيسوقه الله لنا من خلال الأقدار، وقد يلزم أن يقدر الله على أحدنا محنة لتكون سبباً لمنحة وعطاء. لكن علينا أن لا ننسى الدعاء، وبخاصة دعوة المظلوم، إذ وعد ربنا بنصرتها والاستجابة لها، ولو بعد حين. وقد يعجل ربنا دعوة مظلوم على ظالم، فيبتليه بما دعا المظلوم به، استجابة للمظلوم، لا تعجيلاً للعقوبة من الله.

والنتيجة واحدة: وهي أن تقود معصية، وهي ظلم الناس إلى عقوبة دنيوية، لكن ربنا لا يعاقب في الدنيا على المعاصي في حقه، لأنه أمهل الناس حتى يموتوا، أما إن ظلم الناس بعضهم بعضاً،فقد يلجأ المظلوم إلى الدعاء على الظالم، وتقع المصائب على الظالم بدعاء المظلوم. وإن كان ربنا كثيراً ما شجع المظلومين على المغفرة، ووعدهم أن يعوضهم عما ظُلموه.

ثم إن هنالك الدعاء بالخير، الذي يعجل ربنا ما فيه خيرنا، وذلك من خلال الأقدار، ويكون تدخل ربنا للخير والعطاء، ولو مر ذلك بمرحلة مصيبة تقود إلى نعمة، أو فيها خير كثير هي بحد ذاتها. كما سجن يوسف بضع سنين ظلماً كما وجدنا، فكان سجنه حماية له، وإيصالاً له إلى الملك، وإلى المنصب السامي.

ربنا لا يقدر ما فيه معاندة لجهودنا، إلاّ إن كنا ظالمين لأحد، واستجاب فينا دعوة مظلوم، وقد يكون لعقوق الوالدين بعض الأثر. أما ما عدا ذلك، فلا يتدخل ربنا في الأقدار إلاّ لخيرنا. ولتعودوا إلى تأمل حكاية موسى عليه السلام مع الخضر الذي جسدت أفعاله تدخل الخالق في الأقدار لحكمة يراها، لكنها كلها تدخلات لخير العباد.

إن الإيمان الصحيح بالقدر، يجعل المؤمن فاعلاً في الحياة، يبذل وسعه وجهده لتتجح مساعيه، وهو يحس كما يقال في علم النفس: أن مركز التأثير في حياته، إنما هو داخله، فهو يعلم أن ما يفعله في الحياة كله من قدر الله، وأنه لو شاء الله أن لا يفعل ما فعله، لكان مستحيلاً عليه أن يفعله، وبالتالي فإن المؤمن يدافع القدر الذي لا يحبه، بقدر يحبه، أي: يسعى ويأخذ بالأسباب، وهو يعلم أن قدر الله لن يكون منيعاً على الأقدار الأخرى التي تدافعه. إذ قدر الله، لا يتمرد على القوانين الطبيعية إلاّ عندما تكون معجزة، أو أمراً أمر فيه ربنا بمحو أمة فسقت عن أمر ربها، وأهانت رسولها، واستنفدت جميع الفرص التي أتاحها لها الحليم الرحيم... وهذا النوع من الأخذ انقضى مع انتهاء الرسل، وختمهم بخاتمهم محمد صلى الله عليه وسلم.

عندما يحدد ربنا الأجل، فإنه يضمن أن لا يموت أحد قبل أن يستوفي أجله

أقدار الله من حولنا لا تخرج على قوانين الله وسننه في مخلوقاته، فموقع الشيء أو الكائن في الزمان والمكان، يحدد قدره بحسب هذا الموقع، وبحسب سنن الله في النفوس، وفي الطبيعة. وطالما أن كل ما يقع لا يقع إلاّ بعلم العليم، وإذن الذي على كل شيء قدير، فإن كل ما يقع في الوجود قدر لله.

لا يغتر الإنسان بصحته، ولا بتقدم الطب، لأنه لو قدر الله موته في ساعة معينة، فإنه سيموت، مهما توفر له من عناية ورعاية

والذي يمرض ويبحث عن الطبيب الماهر أملاً في الدواء المناسب، لا يكون معانداً لقدر الله، فوقوعه في المرض، يعني أن الله قدر عليه المرض، وإذا وصل إلى الطبيب الماهر، فوصف له الدواء المناسب، وكان الشفاء بإذن الله، فهذا يعني أن الله قدر له الشفاء، مثلما قدر عليه المرض. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لكل داء دواء. فإذا أصيب دواء الداء برأ بإذن الله عز وجل".(صحيح مسلم)

{عن كعب بن مالك عن أبيه أنه قال يا رسول الله أرأيت دواء نتدواى به ورقى نسترقي بها وأشياء نفعلها هل ترد من قدر الله قال يا كعب بل هي من قدر الله} (رواه الحاكم والترمذي والطبراني)

فالعقيم الذي لا ينجب، ليس عقيماً إلاّ بقدر الله، لكن ذلك لا يعني أن يستسلم لهذا القدر، ولا يبحث عن وسيلة لينجب ما يرغب فيه من ذرية، بحجة أن سعيه وراء العلاج معاكسة لقدر الله. إن كل ما نمر به في حياتنا هو قدر لله، فكلما

عطشنا، فإننا نعطش بقدر الله، وكلما جعنا، فإننا نجوع بقدر الله. فهل يعني ذلك أن لا نأكل، ولا نشرب حتى لا نعاكس قدر الله؟. لو شربنا، فسنشرب بقدر الله، ولو أكلنا، فسنأكل بقدر الله، ولو امتنعنا عن الطعام والشراب، فسنمتنع بقدر الله، لأن كل ما يقع في الوجود لا يقع إلاّ بقدر الله.

نحن نسعى إلى الشفاء من العقم بكل ما يتيسر لنا من وسائل مشروعة، وإن كان الله يريدنا أن لا ننجب، فإن جهودنا لن تأتي بنتيجة، لكن ما أدرانا ما هي إرادة الله لنا، ألا يمكن أنه يريدنا أن ننجب أطفالنا بالأنبوب، أو غيره من الوسائل.

إذاً: نسعى لتغيير القدر الذي لا يعجبنا، ونفر من قدر الله إلى قدر الله. كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عندما كان في طريقه إلى الشام، قيل له إن وباء حل فيها، فرجع عمر ولم يدخلها فقال له الصحابي الذي يرافقه وكان أبا عبيدة بن الجراح: " أفراراً من قدر الله؟".

التفاوت مقصود كي يسخر بعضنا بعضاً، فيخدم كل منا الآخرين، ويؤدي كل منا دوره في المجتمع

فعلمه عمر درساً رائعاً في القدر، إذ أجابه أنه يفر من قدر الله إلى قدر الله. وضرب له مثلاً لو كان هنالك واد له جانبان أحدهما معشب، والآخر لا زرع فيه، في أيهما يرعى إبله، وذكره أنه إن رعاها في المعشب، رعاها بقدر الله، وإن رعاها في المجدب الذي لا زرع فيه، رعاها بقدر الله. روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج إلى الشأم، حتى إذا كان بسَرْغ لقيه أمراء الأجناد، أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه، فأخبروه أن الوباء قد وقع بأرض الشأم. قال ابن عباس: فقال عمر: ادع لي المهاجرين الأولين، فدعاهم فاستشارهم، وأخبرهم أن الوباء قد وقع بالشأم، فاختلفوا، فقال بعضهم: قد خرجت لأمر، ولا نرى أن ترجع عنه، وقال بعضهم: معك بقية الناس وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا نرى أن تُقْدِمَهُمْ على هذا الوباء، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي الأنصار، فدعوتهم فاستشارهم، فسلكوا سبيل المهاجرين، واختلفوا كاختلافهم، فقال: ارتفعوا عني، ثم قال: ادع لي من كان ها هنا من مشيخة قريش من مهاجرة الفتح، فدعوتهم، فلم يختلف منهم عليه رجلان، فقالوا: نرى أن ترجع بالناس ولا تُقْدِمَهُمْ على هذا

الوباء، فنادى عمر في الناس: إني مُصَبِّحٌ على ظَهْرٍ فأصبِحُوا عليه. قال أبو عبيدة بن الجراح: أفراراً من قدر الله؟ فقال عمر: لو غيرك قالها يا أبا عبيدة؟! نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت وادياً له عدوتان، إحداهما خصبة، والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟ قال: فجاء عبد الرحمن بن عوف، وكان متغيِّباً في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علماً، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (إذا سمعتم به بأرض فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً منه). قال: فحمد اللهَ عمرُ ثم انصرف.

وطالما أن كل ما نفعله نفعله بقدر الله، فلم لا نحرص على ما ينفعنا، ونجتهد في الأخذ بأسباب النجاح في شؤون الدنيا والآخرة، ولا نجعل من إيماننا بالقدر خيره وشره من الله تعالى سبباً للعجز والاستسلام لأقدار يصنعها غيرنا، ويأذن الله بوقوعها، ولا نعمل شيئاً إلاّ أن نستسلم، ونترك غيرنا يتحكم بحياتنا.

إننا إن فهمنا القدر الفهم الصحيح، انطلقنا في الكون نسخره لنا، ونؤدي دور الخلافة في الأرض، التي خلقنا الله لها، نصنع الأقدار، ونعلم أننا نصنعها بعلمه وإذنه جل في علاه، ولا نقف مجرد متلقين للأقدار، ومنفعلين بها بسلبية وعجز، ونظن أن ذلك مقتضى إيماننا بالقدر خيره وشره من الله تعالى.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إن الله يلوم على العجز ولكن عليك بالكَيْس، فإذا غلبك أمر فقل: "حسبي الله ونعم الوكيل"]. (رواه أحمد وأبو داود وغيرهما) وقال: (الكَيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله.) (رواه الترمذي وحسنه والحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط البخاري)

فإن كانت أفعالنا تصنع الأقدار، فلم ننسبها إلى الله تعالى؟.

ننسبها إلى الله لنتواضع ولا يصيبنا الكبر والغرور عندما نحقق إنجازاً، فنحن نعترف أنه ليس أمر علم عندنا ومهارة و" شطارة"، إذ علمنا لا يفيدنا بشيء، لو لم يقدر الله لنا الظروف المناسبة لنحقق ما حققناه، ولو لم يمنحنا ربنا القدرة والعافية والعلم والمهارة، لنحقق ما حققناه..فالله محيط بنا، ونحن كل لحظة وفي

دون الإيمان يبقى التعالي في النفوس، فيرى الطبيب، أو المهندس، أو المدير نفسه فوق عامل النظافة

كل موقف تحت رحمته ولطفه، ولن نفعل شيئاً إذا شاء الله أن لا نفعله. لكن رجلاً جاحداً لفضل الله عليه قال عن ماله الكثير: إنما أوتيته على علم عندي.

قال تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{76} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ{78}} {القصص: 76-78}

لا يطمئن أحد إلى دوام نعمة الله عليه إلا الشاكرون..قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ}

إن إيماننا بالقدر، يقينا من الفرح الذي هو الاختيال، والفخر، والتعالي عند النجاح، وهو الفرح المحرم يخلاف الفرح بمعنى السرور والغبطة والسعادة وهو المعنى الشائع في هذا الزمان لكلمة فرح. وإيماننا بالقدر يحمينا أيضاً من اليأس والقنوط عند المصائب. قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ{22} لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ{23} }. { الحديد 22-23}

إن الإيمان أن كل ما وقع ما كان ليقع لولا أن الله قدره وكتبه يريح النفس عند المصائب، ويزيل عن المصائب العشوائية الظاهرة، مع أن كثيراً من المصائب لا يتعمدها الله، لكنها ليست خارجة عن إحاطته، وقدرته، وتحكمه.

إذ لا شيء في الكون، خارج عن سيطرته.

وهكذا يكون في إيماننا بالقدر:

أولاً: معرفة قَدْر الله تعالى، وأنه غالب على أمره، وقاهر فوق عباده، وعلى كل شيء قدير، وبكل شيء عليم.

وثانياً: راحة وسكينة عند المصائب، وعند النعم، فلا نخرج عن شعورنا أننا لسنا وحدنا في هذا الكون، بل نحن خلفاء لرب العالمين، الذي استخلفنا في الأرض، واستعمرنا فيها، وهو الفاعل لكل ما نفعله. {{فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـــكِنَّ اللّهَ

قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } {الأنفال17}. وهذا يعني أنك وإن كنت الذي رماهم بسهامه وأرداهم فإن الرامي الحقيقي لهم وقاتلهم هو الله الذي قدر على يديك رميهم وقتلهم، كما لو أعطاك رجل مالاً أنت في أمس الحاجة إليه فإنه يؤجر على عطائه لك لكن يبقى المعطي الحقيقي لك هو الله الذي قدر عطاء الرجل لك ذاك المال ويبقى الذي رزقك هو الله رغم أن الرجل سيؤجر على ما فعل، فهو قد أعطاك ولكنه ما كان له أن يعطيك لو لم يُقَدِّر الله ذلك: {{وَمَا تَشَاؤُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً} {الإنسان30} بينما فعل الله لا يتوقف على مشيئة أحد سواه لذا كان الله هو الفاعل الحقيقي رغم أن البشر أيضاً هم فاعلون ويؤجرون أو يعاقبون على ما يفعلون.. والله هو الخالق لما نصنع ونخترع، لأن ما صنعناه، وما اخترعناه، إنما صنعناه، واخترعناه بقدر الله، والله يخلق بالقدر، ولسنا إلاّ جزءً من قدره المحيط بنا، وبالتالي يكون الله خالق كل شيء، بما في ذلك أفعالنا التي نفعلها خيرها وشرها، ونكون نحن أيضاً فاعلين لأفعالنا، ونستحق عليها المثوبة أو العقوبة، لأن الله لم يجبرنا عليها، بل كانت أقداره من حيث أنه علم بها قبل أن تقع، وأذن لها أن تقع، وهو القدير على الحيلولة دون أن تقع، تقدير تجتمع فيه مشيئة الله غير المباشرة التي هي إذنه، مع إرادتنا الحرة المباشرة، فينسب الفعل لنا وله في الوقت ذاته، ونستحق عليه المثوبة أو العقوبة، ويستحق هو الحمد على ما وفقنا فيه إلى الخير، ولا لوم إلاّ علينا فيما أسأنا فيه، فهو لم يجبرنا عليه، إنما تركنا نفعل ما شئنا، لا لأنه تعمد أن نقع فيما وقعنا فيه، بل هو أذن به، لأنه يريد أن يمتحننا، ويرى أينا أحسن عملاً .

قال صلى الله عليه وسلم: [الدنيا حلوة خضرة، وإن الله مستخلفكم فيها، فينظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء، فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء]. وفي حديث بشار: [لينظر كيف تعملون]. (صحيح مسلم).

ورغم أن أغلب الأقدار في حياتنا، وفي الطبيعة من حولنا تقع بإذن الله وعلمه، فتكون أقداراً منه دون أن يتعمدها، فإنه جل جلاله احتفظ بأهم أمرين تقلق النفوس البشرية عليهما، وهما الأجل والرزق.

إن الإيمان، يريحنا من هذا القلق الناجم عن خشية فقد المكانة في المجتمع، لأنه يقرر أن كرامة الإنسان ومكانته لا علاقة لهما بغناه أو فقره، ولا علاقة لهما بمنصبه، أو مهنته، ولا بنوع سيارته، وفخامة منزله

فهو يحدد الأجل والرزق، عندما يكون الجنين في بطن أمه، فيقضي ربنا أجله ورزقه بما شاء. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إذا مر بالنطفة اثنتان وأربعون ليلة، بعث الله إليها ملكاً فصورها، وخلق سمعها، وبصرها، وجلدها، ولحمها، وعظامها، ثم قال: يا رب أذكر أم أنثى؟، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب أجله؟، فيقول ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يقول: يا رب رزقه؟، فيقضي ربك ما شاء، ويكتب الملك، ثم يخرج الملك بالصحيفة في يده، فلا يزيد على ما أمر ولا ينقص]. (مسلم 2645).

وروى مسلم أيضاً في صحيحه، أن أم حبيبة زوج النبي محمد صلى الله عليه وسلم قالت: "اللهم أمتعني بزوجي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [قد سألت الله لآجال مضروبة، وأيام معدودات، وأرزاق مقسومة، لن يعجل شيئاً قبل حله، أو يؤخر شيئاً عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر، كان خيراً وأفضلٍ]. (صحيح مسلم: رقم 2663).

رجل فقير صالح خير في ميزان الله من ملء الأرض من رجل من أشراف الناس لكنه منافق لا يساوي عند الله شيئاً

أي: أن عمر الإنسان قد حدده ربنا، ولن يتقدم أو يتأخر بفعل الدعاء، أو غيره من الأسباب، لذا كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم، يطلب من الله العافية مدى الحياة لا طول العمر. فكان يقول: اللهم أمتعني بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني (أي: أن أموت قبل أن تموت أعضائي) كما روى الحاكم في مستدركه وقال هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

وكنت أتساءل عن معنى: "واجعله الوارث مني"، فتبين لي عندما درسنا في كلية الطب، كيف تنقل الأعضاء من شخص مات لتوه، ولم تمت أعضاؤه بعد، كالكلية والكبد وغيرهما فتنقل إلى شخص مريض، ليتعافى بها.

والذي نفهمه من أن الآجال مضروبة وثابتة، أن الإنسان مهما اعتنى بصحته، فإنه باعتنائه بها، يمكن أن ينعم بالعافية والقوة، ربما طيلة حياته. لكنه لن يتمكن من إطالة حياته، إذ للموت أسباب عديدة، منها الحوادث والجرائم، والكوارث الطبيعية....

وعندما يحدد ربنا الأجل، فإنه يضمن أن لا يموت أحد قبل أن يستوفي أجله.

ولذلك جعل الله الملائكة التي تكتب أعمالنا، حافظين لنا من الموت، بأمر الله، حتى يحين الأجل.

{وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ{10} كِرَاماً كَاتِبِينَ{11} يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ{12}} {الإنفطار 10-12}

{لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ} الرعد11

وكذلك الرزق، أراد ربنا أن نعلق قلوبنا به وحده فيما يخص الرزق والأجل، كي ننعم بالشعور بالأمان في هذه الحياة، ولا نذل لأحد غير الله، إذ لا أحد يملك من أجالنا أو أرزاقنا شيئاً.

والمتأمل للواقع يجد: أن آجال الناس تطول، عندما تتقدم الرعاية الصحية في بلد من البلدان، وأرزاقهم تزيد عندما تكون هنالك تنمية وعدالة في المجتمع، وكل ذلك يقع بقدر الله، والله في أقداره لا يحرص على إحباط جهودنا الخيرة، ولا يعاكس السنن التي وضعها لتحكم مسار مخلوقاته كلها.

ولكن فيما يخص فرداً من الأفراد، فإن عمره بيد الله مباشرة، بغض النظر عن كل النواميس والقوانين.

أي: لو اجتمع أطباء العالم، على العناية بشخص معين، فإنهم قد ينجحون في تحسين صحته، ونوعية حياته، لكنهم لن يؤخروا أجله لحظة، إذ كما قلنا: للموت أسباب تقهر العافية البدنية، وإن قدرها الله على شخص، فسيموت وهو في أوج عافيته.

وهذا يعني أن لا يغتر الإنسان بصحته، ولا بتقدم الطب، لأنه لو قدر الله موته في ساعة معينة، فإنه سيموت، مهما توفر له من عناية ورعاية.

وبالمقابل، عندما نخطط للمجتمع، نخطط بكل عناية، وحرص، واهتمام، كما لو أن جهدنا هو الذي على أساسه تتحدد أعمار الناس، فنحمل المسؤولية عن حياة الناس، ولا نهمل ونقول: هي آجال مضروبة، لأن الله لم يطلع أحداً على أجله، أو أجل غيره، وقد جعل الله لكل شيء سبباً .

إن المؤمن الذي يسعى إلى المكانة عند الله يكون في راحة من مشقة السباق القائم بين الناس، مع أنه لا يقف في مكانه، بل يتقدم في الحياة والمجتمع

وكونه حدد عمراً لإنسان معين، أن يعيش مدة معينة، ثم جاء من قتله، وتسبب في موته، فإن تحديد الله لأجله، لا يعفي قاتله من المسؤولية، ولا يقبل منه حجة أن المقتول مات بأجله. إذ إن الله لم يكلف القاتل بإنفاذ مشيئته في أن يموت المقتول في الوقت الذي مات فيه.

نعم علم ربنا أن قاتلاً سيقتله في لحظة معينة، فجعل أجله تلك اللحظة، لكنه سيعاقب القاتل، لأنه قتله بمحض إرادته الحرة.... أما القول أن المقتول مات بأجله، إنما هو لتتعزى نفوس محبيه عند موته. ولنعلم جميعاً ، أنه لا شيء مفلت من تحكم ربنا فيه، وأن الله حافظنا من الموت حتى ساعة الأجل التي كتبها هو، وليس لغيره قدرة على تعديلها. فمهما حاول أحد أن يقتله، أو حاول هو أن يقتل نفسه، فإنه لن يموت إلاّ بأجله، ولن يموت إلاّ بإذن الله. {وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ الله كِتَاباً مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ } {آل عمران : 145}

هو في راحة لأن السعي وراء المكانة عند الله لا يجلب القلق، أو الإحباط إلى النفس، إنما يملؤها سكينة، وطمأنينة، ورضاً

الفصل الحادي عشر: مكانة عند الله لا عند الناس

خلق الله الناس متفاوتين في قدراتهم البدنية والذكائية، ومتفاوتين في فضل الله عليهم من مال، أو جاه، أو فرص مواتية للتعلم وتحصيل الشهادات العالية، أو غير ذلك من عوامل مؤثرة في وضع كل منهم وفي دوره في المجتمع.

والله لم يفضل أحداً بزيادة على الآخرين إكراماً له، ولم يضيق على أحد إهانة له، إنما هي حكمته كي تتنوع الأدوار في المجتمع، ويقوم كل منا بخدمة الآخرين من موقعه وفي مجاله، فتتكامل هذه الأدوار، ولا يبقى في المجتمع حاجة يترفع أحد عن القيام بها....

كثير من علماء النفس، يرون الإحباط سبباً هاماً من أسباب اضطراب النفس وقلقها وفقدانها لسكينتها واطمئنانها

قال تعالى: {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ{31} أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ {32}}. (الزخرف: 31 - 32).

إذاً التفاوت مقصود كي يسخر بعضنا بعضاً، فيخدم كل منا الآخرين، ويؤدي كل منا دوره في المجتمع.

لكن الناس إذا غفلوا عن هداية الله اعتبروا دوراً اجتماعياً أعلى قدراً وأكرم من دور آخر، فنظروا إلى مهن على أنها راقية، وإلى أخرى على أنها قليلة القدر والقيمة، وبالتالي رأوا أن من يؤدي بعض الأدوار أعلى قدراً وكرامة من الآخرين، وأعطوه الحق ليستعلي على الآخرين، فجعلوا للغني قدراً وكرامة أكبر مما للفقير، وجعلوا لصاحب الجاه أو السلطان كرامة أكبر من الآخرين، واعتبروا صاحب المهنة التي تدر المال الوفير أو الجاه العريض أكرم من أصحاب المهن الأخرى.

والحق غير ذلك، فبين الحين والآخر تحدث اضطرابات عمالية في مدن كبرى حديثة، فيضرب العمال في مهنة معينة عن العمل ليذكروا المجتمع أن دورهم هام، وعليه أن ينصفهم في أجورهم، فعندما يضرب عمال النظافة في مدينة كبرى مثل لندن أو باريس، يتذكر الناس قيمة عامل النظافة وقدره، إذ تغرق مدينتهم الجميلة في قاذوراتها.. فتزداد أجور العاملين.

ولكن دون الإيمان يبقى التعالي في النفوس، فيرى الطبيب، أو المهندس، أو المدير نفسه فوق عامل النظافة.

إن هذا الواقع الذي تعيشه أغلب المجتمعات، يجعل الإنسان يسعى دائماً إلى رفع مكانته في المجتمع من خلال مهنته، وثرائه، وسلطته، أو غير ذلك، فترى الذي لم يحصل على ما يعتبر نفسه أهلاً له من المكانة، يسيطر عليه الإحباط، والشعور بالسخط، والتذمر، والحرمان.

أما الذين وصلوا إلى مكانة في المجتمع ترضيهم، فإنهم يعانون من القلق.، لأنهم يخشون أية مصيبة في الصحة، أو المال، أو المنصب، تنزلهم من رتبة إلى رتبة دونها، ولا يطمئن أحد إلى دوام نعمة الله عليه إلا الشاكرون..قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} {إبراهيم: 7}.

إن الإيمان، يريحنا من هذا القلق الناجم عن خشية فقد المكانة في المجتمع، لأنه يقرر أن كرامة الإنسان ومكانته لا علاقة لهما بغناه أو فقره، ولا علاقة لهما بمنصبه، أو مهنته، ولا بنوع سيارته، وفخامة منزله، إنما الأمر كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ{13}}. (الحجرات: 13).

الإسلام أراح المسلم من الإحباط عندما جعله يتعلق بثواب الله، ويسعى في كل صغيرة وكبيرة إلى رضاء الله لا إلى إعجاب الناس به، ولا إلى الظهور بينهم، أو اعتلاء مكانة في المجتمع

فالمؤمن، ومن البداية لا يجعل المكانة في المجتمع غايته وهدفه.، لأن السعي وراء المكانة والإحساس أنه فوق الآخرين، هو نوع من العلو في الأرض الذي قال تعالى عنه: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ {83}}. (القصص: 83).

المؤمن لا يدخل السباق على المكانة مع الآخرين.. فالناس في هذه الحياة، يشبهون ركباً في سفر، أما الذين يتنافسون على المكانات فيجعلون سفرهم سباقاً بينهم، فيضيفون تعباً إلى تعبهم، أما المؤمن فإنه لا يدخل هذا السباق أبداً، إنما يسير في طريقه يسابق الزمن، ولا يسابق الناس، إنه يريد مكانة عند الله لا عند الناس.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره]. (البخاري).

وقال أيضاً: [ألا أخبركم بأهل الجنة؟! كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل جواظ متكبر]. (البخاري والترمذي).

روى البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد الساعدي أنه قال: مر رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال لرجل عنده جالس: (ما رأيك في هذا). فقال: (رجل من أشراف الناس، هذا والله حريٌّ إن خطب أن يُنكح، وإن شفع أن يُشَفَّع، قال: فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم مر رجل، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما رأيك في هذا). فقال: يا رسول الله، هذا رجل من فقراء المسلمين، هذا حريٌّ إن خطب أن لا يُنكح، وإن شفع أن لا يُشَفَّع، وإن قال أن لا يُسمع لقوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (هذا خير من ملء الأرض مثل هذا).

إذن رجل فقير صالح خير في ميزان الله من ملء الأرض من رجل من أشراف الناس لكنه منافق لا يساوي عند الله شيئاً.

إن المؤمن الذي يسعى إلى المكانة عند الله يكون في راحة من مشقة السباق القائم بين الناس، مع أنه لا يقف في مكانه، بل يتقدم في الحياة والمجتمع. وهو في راحة لأن السعي وراء المكانة عند الله لا يجلب القلق، أو الإحباط إلى النفس، إنما يملؤها سكينة، وطمأنينة، ورضاً .

قالوا: "يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟". قال: [أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟! فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر].

الفصل الثاني عشر: لا إحباط مع الإخلاص

عندما يتعرض الإنسان لما يعوقه، ويصده، ويحول بينه وبين تحقيق أهدافه، أو إشباع الدوافع النفسية.، التي فطره الله عليها، فإنه يكون معرضاً للشعور بالإحباط النفسي "Frustration"، الناجم عن هذه الإعاقة والصد.

وكثير من علماء النفس، يرون الإحباط سبباً هاماً من أسباب اضطراب النفس وقلقها وفقدانها لسكينتها واطمئنانها.

والإنسان الغربي يعاني من الإحباط النفسي بسبب عجزه عن تحقيق ذاته في حضارة تدفع الإنسان فيها إلى السعي إلى العلو، والظهور، والتفوق.

لكن الإسلام أراح المسلم من الإحباط عندما جعله يتعلق بثواب الله، ويسعى في كل صغيرة وكبيرة إلى رضاء الله لا إلى إعجاب الناس به، ولا إلى الظهور بينهم، أو اعتلاء مكانة في المجتمع.

إنما يسعى المؤمن إلى مكانة حميدة عند الله تعالى.. والساعي إلى ثواب الله والمكانة عنده لا يمكن أن يتعرض إلى الإحباط، لأن الوسائل إلى بلوغ تلك المكانة عديدة، ولا تعتمد دائماً على الصحة، أو المال، أو غير ذلك.

فالمؤمن الذي يصلي، إن مرض صلى قاعداً، وإن عجز عن القعود صلى على جنبه.

والمؤمن الغني يؤدي الشكر لله لترتفع مكانته عنده، أما المؤمن الفقير، فإنه يبلغ المكانة ذاتها بصبره، ورضاه عن الله.

وقد جعل الله كل عمل نعمله من شؤون دنيانا عبادة شريطة أن نحرص فيه على الحلال ونتجنب الحرام فيصبح المباح سبباً لنيل الأجر لما تضمنه من الحرص على الحلال واجتناب الحرام، وشريطة أن تخلص نوايانا من أية رغبة في العلو في الأرض، أو الفساد فيها.

قال تعالى: {تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{83}}. (سورة القصص: 83).

فالذي لا يريد العلو في الأرض، ولا الفساد فيها، وهو مؤمن بالله واليوم الآخر تصفو نيته، وتخلص لله في كل شيء، ويكون عمله الذي به يكسب رزقه

المكانة عند الله مستقلة عن القوة البدنية، أو الغنى، أو الجاه، وأي فقر أو حرمان من الصحة، أو المال، أو غير ذلك، لن يمنع المؤمن من بلوغ المنزلة الكريمة عند رب العالمين؟!.

عبادة، وسعيه من أجل الرزق الحلال عبادة، والمال الذي ينفقه على زوجته وأطفاله صدقة عظيمة الأجر.

ولنتأمل ما رواه أبو هريرة – رضي الله عنه- إذ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

{دينار أنفقته في سبيل الله، ودينار أنفقته في رقبة، ودينار تصدقت به على مسكين، ودينار أنفقته على أهلك، أعظمها أجراً الذي أنفقته على أهلك}. (رواه مسلم).

إذاً الرجل المؤمن المخلص لله، الذي يعمل، وينفق على زوجته وأطفاله، أجره أعظم ممن يتصدق، أو يعتق الرقاب، أو حتى ينفق في سبيل الله، وذلك ما بقي إنفاقه على عياله فيما أحل الله، ودون إسراف، أو تبذير، أو تباه وتفاخر.

وقد سألت أم سلمة -رضي الله عنها- رسول الله صلى الله عليه وسلم عن نفقتها على أولادها الذين مات أبوهم، وليست بتاركتهم على أية حال، هل لها فيها أجر؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: [نعم، لك أجر ما أنفقت عليهم]. (متفق عليه).

وقال صلى الله عليه وسلم: [وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى ما تجعل في في امرأتك]. (متفق عليه). (أي في فمها)

وقال أيضاً: [إذا أنفق الرجل على أهله نفقة يحتسبها فهي له صدقة]. (متفق عليه).

وبالإخلاص أيضاً: يصير عمل المرأة في بيتها، وتربيتها لأطفالها، عبادة كالجهاد في سبيل الله.. وحتى الشهوة إن أتاها المؤمن بالحلال مجتنباً الحرام، كان له فيها أجر تقواه التي تجلت خلال إتيانه لها، فعن أبي ذر – رضي الله عنه- أن أناساً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا للنبي محمد صلى الله عليه وسلم:

"يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون بفضول أموالهم".

قال: [أو ليس جعل الله لكم ما تصدقون، إن لكم بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن منكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة].

الإسلام بعقيدة التوحيد الخالص، يعلمنا أن الله هو النافع، وأن الله هو الضار، وأن الناس لن ينفعونا إلا بشيء قد كتبه الله لنا، ولن يضرونا إلا بشيء قد كتبه الله علينا

اعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف]

قالوا: "يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟".

قال: [أرأيتم لو وضعها في حرام، أكان عليه وزر؟! فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر]. (رواه مسلم).

وحتى الأكل والشرب، يكون للمؤمن فيهما أجر، ويرفعان مكانته عند الله.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها، أو يشرب الشربة فيحمده عليها]. (رواه مسلم).

وحتى إن كف الإنسان شره عن الناس يكون له بذلك أجر، قال أبو ذر – رضي الله عنه– قلت: يا رسول الله! أي الأعمال أفضل؟.

قال: [الإيمان بالله والجهاد في سبيله].

قلت: " أي الرقاب أفضل".

قال: [أنفسها عند أهلها، وأكثرها ثمنا].

قلت: " فإن لم أفعل؟".

قال: [تعين صانعاً، أو تصنع لأخرق].أي تعين آخر في عمله وإن كان لا يحسن العمل تقوم أنت بالعمل بدلاً منه.

قلت: "يا رسول الله! أرأيت إن ضعفت عن بعض العمل؟".

قال: [تكف شرك عن الناس، فإنها صدقة منك على نفسك]. (متفق عليه).

وحتى العاهات الشديدة كالعمى، والشلل، لا تحبط المؤمن، ولا تعوقه عن بلوغ مكانة عند الله تعالى.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم عمن يبتليه الله بحبيبتيه، أي: بعينيه فيصيبه بالعمى: [إن الله عز وجل قال: {إذا ابتليت عبدي بحبيبتيه عوضته منهما الجنة}]. (رواه البخاري).

وهذا لمن صبر، أما من سخط، فله السخط والغضب من الله فوق مصيبته.

فالمكانة عند الله مستقلة عن القوة البدنية، أو الغنى، أو الجاه، وأي فقر أو حرمان من الصحة، أو المال، أو غير ذلك، لن يمنع المؤمن من بلوغ المنزلة الكريمة عند رب العالمين؟!.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره]. (رواه البخاري).

إننا لو حللنا القلق النفسي إلى المشاعر المكونة له، لوجدناه يتضمن الخوف من أن يأتي المستقبل بما لا يسر مع الإحساس بالعجز، وانعدام الحيلة تجاه ذلك

وقال أيضاً: [ألا أخبركم بأهل الجنة: كل ضعيف متضعف، لو أقسم على الله لأبره، ألا أخبركم بأهل النار: كل عتل جواظ متكبر]. (رواه البخاري).

ومما ورد عنه صلى الله عليه وسلم قوله: [رب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره].

الفصل الثالث عشر: لا قلق مع التوحيد الخالص

إن للقلق الإنساني أسباباً متنوعة، ومن هذه الأسباب، اعتقاد المرء أن أحداً من الناس يملك له نفعاً أو ضراً .

فإنك إن ظننت أن إنساناً ما بيده أن ينفعك، أو أن يضرك، بغض النظر عن إرادة الله، فإنك عندها تصبح فريسة القلق النفسي، لأن ابن آدم متقلب بطبعه، وأنت لا تعرف متى ينقم عليك فيحرمك النفع الذي يأتيك عن طريقه، أو يوقع بك الضر الذي تخشاه.

لكن الإسلام بعقيدة التوحيد الخالص، يعلمنا أن الله هو النافع، وأن الله هو الضار، وأن الناس لن ينفعونا إلا بشيء قد كتبه الله لنا، ولن يضرونا إلا بشيء قد كتبه الله علينا.

وهذا اعتقاد أساس لصحة عقيدة المسلم، إذ الظن أن أحداً من الناس يملك لنا نفعاً أو ضراً هو نوع من الشرك الخفي، الذي يفقد النفس أمنها، واطمئنانها، وسكينتها.

قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَـئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ (الأنعام: 82).

وأيضاً: {وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } (لقمان: 13).

وقال ابن عباس – رضي الله عنهما –: كنت خلف النبي محمد صلى الله عليه وسلم يوماً فقال: [يا غلام! إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك. إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف]. (الترمذي وقال: حسن صحيح).

المؤمن يجب ألا يشعر بالعجز أبداً، فهو بعد أن يبذل وسعه وما يقدر عليه، ويتوكل على الله، يبقى لديه الدعاء، والدعاء ليس وسيلة الضعيف العاجز، بل هو سبب من الأسباب يجب أن نبدأ به، وأن نضيفه إلى كل جهد نبذله

لذا فإن تعرض المؤمن لتهديد من الناس، فإنه يأخذ حذره، ويعد عدته لحماية نفسه، وهو في الوقت نفسه متوكل على الله الذي قال في كتابه الكريم: {وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً} (الطلاق: 3).

وعندما وصلت الأنباء إلى المسلمين بعد مصيبتهم في أحد، أن المشركين قد جمعوا لهم، قالوا: حسبنا الله ونعم الوكيل.... {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَاناً وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ{173} فَانقَلَبُواْ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُواْ رِضْوَانَ اللّهِ وَاللّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ{174}}. (آل عمران: 173 – 174).

أما الخير فيطلبه المؤمن من الله وليس من العباد، فما هم إلا وسائل يقدر الله الخير من خلالها. { ابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ }. (العنكبوت: 17).

{{قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىَ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ } (آل عمران: 26).

ثم إننا لو حللنا القلق النفسي إلى المشاعر المكونة له، لوجدناه يتضمن الخوف من أن يأتي المستقبل بما لا يسر مع الإحساس بالعجز، وانعدام الحيلة تجاه ذلك.

فلو خاف الإنسان من وقوع أمر لا يحبه، لكنه أحس بالثقة أنه يستطيع أن يفعل شيئا ليمنع وقوعه، وليتلافاه، فإنه لن يشعر بالقلق، ذلك أن الإحساس بالعجز تجاه الخطر المتوقع، والإحساس أنه ليس باليد حيلة، هو السبب الرئيس وراء القلق.

لكن المؤمن يجب ألا يشعر بالعجز أبداً، فهو بعد أن يبذل وسعه وما يقدر عليه، ويتوكل على الله، يبقى لديه الدعاء، والدعاء ليس وسيلة الضعيف العاجز، بل هو سبب من الأسباب يجب أن نبدأ به، وأن نضيفه إلى كل جهد نبذله.

ومع التوكل والدعاء، يجب على المؤمن أيضاً ألا يحرص على شيء بعينه حرصاً شديداً، فيتصور عدم الحصول عليه خسارة ما بعدها خسارة، فلعل فيه الشر له وهو لا يعلم.

قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ}. (البقرة: 216).

الذي يذنب في حق الله، ويرتكب المعاصي، فيكون في أعماقه خوف من أن يأتيه الموت قبل أن يتوب إلى الله

الشعور بالذنب، ولوم النفس المرافق له مظهران لقدرة النفس البشرية على إدراك أخطائها، ومحاسبة ذاتها، وهذا جعله الله فيها ليكون لها حافزاً على التوبة، وإصلاح ما أفسدت، وتعويض الآخرين عن إساءتها إليهم

الفصل الرابع عشر: لا قلق مع الاستغفار والتوبة

قال تعالى عن المتقين: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {135} أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ {136}}. (آل عمران: 136-135).

وقد بينت الدراسات النفسية الحديثة: أن الشعور بالذنب سبب هام من أسباب القلق والاكتئاب النفسيين. فالذي يشعر بالذنب لأنه أساء إلى إنسان ما دون حق، ويشعر أنه قد ظلمه، واعتدى عليه، وأن ذلك يسخط الله منه، هذا المذنب معرض لمشاعر القلق النفسي والاكتئاب.

والقلق يأتي في هذه الحالة من نواح مختلفة، لعل أهمها أننا نحس في أعماقنا أنه "كما تدين تدان"، وأن الله قد يعاقبنا على إساءاتنا إلى غيرنا، وينتقم لهم منا، وبذلك يكون المسيء إلى غيره مهدداً بانتقام الله منه، فيصبح قلقاً لا يدري هل سيكون انتقام الله في نفسه، أم في ماله، أم في عياله.

أما الذي يذنب في حق الله، ويرتكب المعاصي، فيكون في أعماقه خوف من أن يأتيه الموت قبل أن يتوب إلى الله.

وقد يموت لأحدنا عزيز، فيشعر أنه قصر في حقه، ويظن أنه لو أعان في علاجه لما مات، فيعتبر نفسه مذنباً، ومسؤولاً بشكل من الأشكال عن موت هذا العزيز... ويخشى العقوبة من الله، فتمتلئ نفسه بالقلق.

وقد ينتج الشعور بالذنب عن فعل قام به لا يعرف هل هو حرام أم حلال، وتشتبه الأمور عليه، إلى غير ذلك من أسباب الشعور بالذنب.

والشعور بالذنب، ولوم النفس المرافق له مظهران لقدرة النفس البشرية على إدراك أخطائها، ومحاسبة ذاتها، وهذا جعله الله فيها ليكون لها حافزاً على التوبة، وإصلاح ما أفسدت، وتعويض الآخرين عن إساءتها إليهم.

ولوم النفس يدل على الخير في هذه النفس التي تعترف بخطيئتها، وتحاسب ذاتها، أما النفس الظالمة المكابرة المتبعة لهواها، فقلما تلوم نفسها، إنما هي دائماً تتعامى عن أخطائها وعيوبها، بل تضع اللوم على الآخرين، وتحملهم مسؤولية ما أصابها وأصابهم على يدها.

لوم النفس يدل على الخير في هذه النفس التي تعترف بخطيئتها، وتحاسب ذاتها، أما النفس الظالمة المكابرة المتبعة لهواها، فقلما تلوم نفسها، إنما هي دائماً تتعامى عن أخطائها وعيوبها

فعندما عصى آدم ربه علمه كيف يستغفر فاستغفر فتاب الله عليه ..قال تعالى: {فَتَلَقَّى آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ }البقرة37

وعندما قتل موسى رجلاً قتلاً غير متعمد قال: {قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}. (القصص: 16).

لكن عندما عصى إبليس ربه اتهم الله أنه أغواه، ورفض أن يرى خطيئته، وأنكر مسؤوليته عما فعل، فقال: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{39} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{40}}. (الحجر: 39 – 40).

وقال: {قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ{16} ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ{17}}. (الأعراف: 16 – 17).

لأن النفس اللوامة تصدر عن موقف إيماني لا يبطر الحق، ولا يغمط الناس، ولا يستعلي على رب العالمين، موقف من طبعه الإقرار بالحق لا الكذب على النفس وعلى الغير

ولأن النفس اللوامة تصدر عن موقف إيماني لا يبطر الحق، ولا يغمط الناس، ولا يستعلي على رب العالمين، موقف من طبعه الإقرار بالحق لا الكذب على النفس وعلى الغير.، لأن النفس اللوامة تصدر عن مثل هذا الموقف، فقد أظهر المولى تقديره لها عندما أقسم بها فقال:

{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ {1} وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ {2}}. (القيامة: 1 – 2).

لكن لوم النفس إذا كان شديداً لا يتناسب مع الموقف الذي أدى إليه، أو إذا رافقه نوع من اليأس من مغفرة الله، تحول إلى مرض نفسي يشل الإنسان، ويثبطه، ويصبغ حياته بالكآبة والحزن.

وهذا ما لا يريده الله لنا على الرغم من أنه أقسم بالنفس اللوامة تقديراً لها.، لذا جعل الله التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وفتح باب المغفرة والتوبة للعبد حتى يغرغر عند وفاته.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم:

[يقول الله تعالى: يا بن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي. يا ابن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك. يا ابن آدم! إنك لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً لأتيتك بقرابها مغفرة]. (حسن صحيح رواه الترمذي).

وقال صلى الله عليه وسلم: [والذي نفسي بيده! لو لم تذنبوا لذهب الله تعالى بكم ولجاء بقوم يذنبون، فيستغفرون الله تعالى، فيغفر لهم]. (رواه مسلم).

أما رب العالمين فيقول: {{قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعاً إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}. (الزمر: 53).

وكلنا يعلم أن من حج فلم يرفث، ولم يفسق، رجع بلا خطايا، كيوم ولدته أمه، وأن من صام رمضان إيماناً واحتساباً، غفر له ما تقدم من ذنبه.

أبواب كثيرة مفتوحة للمؤمن كي يتطهر من ذنوبه، وتغمر أنوار الإيمان قلبه، تبث فيه السكينة، والطمأنينة.

الفصل الخامس عشر: لم يبق من النبوة إلا المبشرات

على الرغم من كل جوانب القوة في الكائن البشري، إلا أن جهله بالغيب يشكل واحداً من أهم عناصر ضعفه....{قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً إِلاَّ مَا شَاء اللّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ}. {الأعراف: 188}.

وجهل الإنسان بالغيب، وخشيته من أن يأتي المستقبل المغيب بما يسوءه، جعلاه يتعلق بأي شيء قد يكون فيه كشف لبعض حجب الغيب والمستقبل، من أجل أن يخفف قلقه ومخاوفه.

لذا عقد البشر الكثير من الآمال على الأحلام والمنامات.

ذلك أن بعض الرؤى كان فيها بالتأكيد إشارة إلى أمور وقعت بعدها بزمان، طال أحياناً أو قصر.

لكن الغالبية العظمى من أحلام البشر، التي لا تعد ولا تحصى، لا يتحقق منها شيء، ومع ذلك قد يرى أحدنا مناماً تقع فيه أحداث خطيرة لو صدقها الواقع لكانت مصائب عظمى.

وقد تكون مثل هذه الأحلام المخيفة مصدر قلق نفسي شديد للإنسان، الذي يخشى أن تصدق هذه الأحلام، وأن يقع في الواقع ما رآه فيها.

وعلماء النفس الغربيون الذين يرفضون الإيمان بالغيب، يصرون على أن أحلام الإنسان كلها تخيلات، تحدث أثناء النوم، تعكس مخاوفه وأمانيه. فإنه قد

لكن لوم النفس إذا كان شديداً لا يتناسب مع الموقف الذي أدى إليه، أو إذا رافقه نوع من اليأس من مغفرة الله، تحول إلى مرض نفسي يشل الإنسان، ويثبطه، ويصبغ حياته بالكآبة والحزن

يرى بعضاً مما يخاف حدوثه يقع في المنام، أو أنه يحصل في أحلامه على ما يشتهيه، ولكنه عاجز عن أن يحصل عليه في الواقع.

أما الصحابة – رضوان الله عليهم – فقد فهموا أن أحلام الإنسان ثلاثة أقسام:

الأول: ويمثل غالبية الأحلام، وهو عبارة عن حديث نفس كالتفكير، والتخيل المتواصل الذي يشغل فكر الإنسان عندما يكون خالياً عما يشغله، إلا أن حديث النفس هذا يقع أثناء النوم، فيختلط الأمر على الإنسان، ويحسب الخيال حقيقة واقعة. وهذا القسم هو الذي يتحدث عنه علماء النفس.

أما القسم الثاني: فتخويف من الشيطان، وهي الأحلام المخيفة المزعجة.

والقسم الثالث: الرؤى الصالحة التي تحمل البشارة من الله لهذا الإنسان بخير قادم إليه.

روى البخاري في صحيحه أن أبا هريرة قال: "وكان يقال: الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله، فمن رأى شيئاً يكرهه، فلا يقصه على أحد، وليقم فليصل." ولا بد أن الصحابة تعلموا هذا التصنيف للرؤى من معلمهم صلى الله عليه وسلم.

إذاً فالأحلام المخوفة المحزنة، إنما هي من الشيطان، لا تدل على المستقبل، بعكس المبشرات، وهي الرؤى الواضحة السارة، فإنها تدل على المستقبل، وتبشر بالخير.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة]. (البخاري).

وقال أيضاً: [لم يبق من النبوة إلا المبشرات]. قالوا: "وما المبشرات؟". قال: [الرؤيا الصالحة]. (البخاري).

وقالت عائشة – رضي الله عنها – :{ أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح.} (البخاري).

وقال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [إذا رأى أحدكم رؤيا يحبها فإنما هي من الله، فليحمد الله عليها، وليتحدث بها، وإذا رأى غير ذلك مما يكره فإنما هي من الشيطان، فليستعذ من شرها ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره]. (البخاري).

علماء النفس الغربيون الذين يرفضون الإيمان بالغيب، يصرون على أن أحلام الإنسان كلها تخيلات، تحدث أثناء النوم، تعكس مخاوفه وأمانيه

روى البخاري في صحيحه أن أبا هريرة قال: "وكان يقال: الرؤيا ثلاث: حديث النفس، وتخويف الشيطان، وبشرى من الله، فمن رأى شيئاً يكرهه، فلا يقصه على أحد، وليقم فليصل

الأحلام المخوفة المحزنة، إنما هي من الشيطان، لا تدل على المستقبل، بعكس المبشرات، وهي الرؤى الواضحة السارة، فإنها تدل على المستقبل، وتبشر بالخير

وقال صلى الله عليه وسلم: [الرؤيا الصالحة من الله، والحلم من الشيطان، فإذا حلم فليتعوذ منه، وليبصق عن شماله فإنها لا تضره]. (البخاري).

إن معرفة أن الأحلام المزعجة من الشيطان وأنها لا تضر، يريح النفس المؤمنة من أي قلق يمكن لهذه الأحلام أن تتسبب فيه.

والملاحظ: أن القلق والاكتئاب النفسي يهيئان لمثل هذه الأحلام المزعجة، فالشخص القلق كثيراً ما يرى نفسه أو أحداً ممن يحب في خطر في أحلامه، أما المكتئب فإن موضوع الموت يتكرر في أحلامه، كأن يرى جنازة، أو عزيزاً يموت، أو أن يرى من مات من أهله يأتيه في أحلامه بشكل متكرر.

فالقلق والاكتئاب يمكنان الشيطان من إثارة مثل هذه الأحلام، التي لا دلالة لها على المستقبل أبداً .

الفصل السادس عشر: أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك

إن القلق النفسي متعلق دائماً بالمستقبل، فالإنسان لا يقلق على ما فات، بل قد يحزن ويكتئب.... إنما قلقه يكون دائماً على ما سيأتي.

> إن القلق النفسي متعلق دائماً بالمستقبل، فالإنسان لا يقلق على ما فات، بل قد يحزن ويكتئب.... إنما قلقه يكون دائماً على ما سيأتي

وكثيراً ما يعتزم الإنسان فعل أمر هام، ويكون أمامه الخيار أن يفعله أو أن لا يفعله، أو يكون أمامه الخيار أن يفعل أحد أمرين، أو واحداً من أمور كثيرة، في كل أمر منها إيجابيات وسلبيات، فإن فعل أحدها فاته ما في الآخر من خير، أو إن فعل أمراً معيناً تحققت له المنفعة، وبالمقابل تعرض لخسارة شيء يحبه، عندها يحتار أي الأمرين يختار، فهو يخاف أن يختار لنفسه الشيء الذي لا خير فيه، وأن يفوت باختياره هذا على نفسه خيراً كثيراً، فيقع في صراع نفسي وحيرة، يسميه علماء النفس: صراع الإقدام والإحجام، أي: الإقدام على فعل معين أو الإحجام عنه، وهذا الصراع النفسي يولد في نفس الإنسان قلقاً نفسياً، يشتد كلما اشتد الصراع، وتعاظمت الحيرة.

وهذا القلق من النوع المزعج للنفس، يجعل الإنسان في هم دائم وفكر مستمر، ويحرمه النوم والاستقرار.

وحتى لا نقع في مثل هذا القلق النفسي، أو حتى نعالجه إن وقعنا فيه، علمنا رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم أن نستخير الله في أمورنا، أي: أن نسأله الخير فيها، وأن يختار لنا ما فيه خيرنا دنيا وآخرة، وتتم استخارة رب العالمين بأن

نصلي ركعتين لله تعالى، وبعد الانتهاء منهما والتسليم ندعو بدعاء الاستخارة.

وليس جواب الاستخارة رؤيا أو مناماً، إنما هو هذا الإحساس القلبي الذي يأتي بعدها.

أما دعاء الاستخارة فهو:{اللهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللهم فإن كنت تعلم هذا الأمر (وتسميه باسمه) خيراً لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري، فاقدره ويسره لي، ثم بارك لي فيه، اللهم وإن كنت تعلمه شراً لي في ديني، ومعاشي، وعاقبة أمري، فاصرفني عنه، واصرفه عني، واقدر لي الخير حيث كان، ثم رضني به، ولا حول ولا قوة إلا بالله"}. (رواه أحمد والبخاري وأبو داود والترمذي).

وقد شجعنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم على أن نكرر هذه الاستخارة سبع مرات، وقد لا يستغرق ذلك أكثر من نصف ساعة من الصلاة والدعاء، ثم ننظر إلى إحساسنا القلبي بخصوص ما كنا نهم أن نفعله، فإما أن نرتاح إلى همنا هذا، وينشرح صدرنا لفعله، فنعزم عليه، ونتوكل على الله، أو أن نفقد حماستنا له، وتقل رغبتنا فيه، أو حتى نشعر بالنفور من فعله.

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات، ثم انظر إلى الذي يسبق إلى قلبك فإن الخير فيه]. (رواه ابن السني في عمل اليوم والليلة الجزء الأول الصفحة 551).

ورغم ما قيل عن ضعف سند هذا الحديث فإن التجربة الشخصية لتكرار الاستخارة سبع مرات متتاليات أثبتت مقدار الراحة النفسية من القلق والحيرة بخصوص ما استخير الله له، ولم استخر الله لأمر سبع مرات وندمت على ما ألهمني الله فعله بعد الاستخارة، لذا أرى في الاستخارة سبع مرات علاجاً نفسياً للقلق الناتج عن الحيرة بخصوص أمر هام لا يماثله علاج.

إن هذا القلق النفسي المتولد عن صراع الإقدام، أو الإحجام عن فعل يبدو للإنسان في فعله فوائد ومضار، وفي تركه فوائد ومضار، ويعجز الإنسان عن ترجيح إحدى الكفتين، لأنه يجهل الغيب، كما هو حال البشر جميعاً .

قال أنس بن مالك رضي الله عنه: قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [يا أنس إذا هممت بأمر فاستخر ربك فيه سبع مرات، ثم انظر إلى الذي يسبق إلى قلبك فإن الخير فيه]

هذا القلق المزعج، كثيراً ما يكون صعب العلاج بالطرق العلاجية المعروفة في الطب النفسي، فحرص الإنسان على الخير، وخوفه من اتخاذ قرار خاطئ، يتسبب في ضرره، أو حرمانه من الخير... هذا الحرص، وهذا الخوف، أمران طبيعيان تماماً، والجهل بالغيب شيء لا يستطيع المعالج النفسي أن يتغلب عليه، لذا كان من الخطأ أن يقوم المعالج بترجيح إحدى الكفتين، وبتوجيه الإنسان القلق إلى قرار معين، قد يتبين خطؤه فيما بعد، فيكون المعالج مستحقاً للوم.

كما أن قيام المعالج بالاختيار نيابة عن المريض يتنافى مع هدف العلاج النفسي الأكبر، وهو مساعدة المريض على مزيد من النضج والاستقلالية وتحمل المسؤولية. لذا لم يكن هنالك خير من إحالة الإنسان القلق إلى علام الغيوب يستخيره، ويلتمس الهداية والتسديد لديه، فيستنير بنور الإيمان، حتى في أمور دنياه.

أرى في الاستخارة سبع مرات علاجاً نفسياً للقلق الناتج عن الحيرة بخصوص أمر هام لا يماثله علاج

الفصل السابع عشر: ولا أبالي

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل خلق آدم, ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي, فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل? قال: على مواقع القدر". قال الألباني في "السلسلة الصحيحة": رواه أحمد وابن سعد في "الطبقات"، وابن حبان في "صحيحه"، والحاكم وقال الحاكم: "صحيح" ووافقه الذهبي، وهو كما قالا .

وقد مرض رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم, فدخل عليه أصحابه يعودونه, فبكى, فقيل له: ما يبكيك يا عبد الله...? قال: ... سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الله تبارك و تعالى قبض قبضة بيمينه فقال: هذه لهذه ولا أبالي وقبض قبضة أخرى, يعني: بيده الأخرى, فقال: هذه لهذه ولا أبالي") فلا أدري في أي القبضتين أنا". قال الألباني في "السلسلة الصحيحة": رواه أحمد وإسناده صحيح .

صحابي كريم يصيبه القلق خشية أن يكون في القبضة التي إلى النار.. وكثير من المؤمنين يصيبهم القلق عندما يسمعون قوله صلى الله عليه وسلم: (سددوا وقاربوا وأبشروا، فإنه لا يُدخل أحداً الجنةَ عملُه). قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله بمغفرة ورحمة). رواه البخاري في صحيحه.

وقال صلى الله عليه وسلم: (لن ينجي أحداً منكم عمله). قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: (ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة، سددوا وقاربوا، واغدوا وروحوا، وشيء من الدلجة، والقصد القصد تبلغوا). رواه البخاري في صحيحه.

المؤمن قد يتسرب القلق إلى نفسه عند سماعه لهذه الأحاديث إن ظن أن الله يقبض قبضة عشوائية من البشر ليدخلهم الجنة أو النار أو إن ظن أن رحمة الله يوم القيامة من نصيب البعض دون غيرهم من المؤمنين، أو ظن أن العمل لا وزن له وأن دخول الجنة الذي يكون برحمة الله لا يؤخذ عمل المؤمن فيه بالحسبان. إن الاطلاع على بعض النصوص دون باقي النصوص قد يؤدي إلى إساءة الفهم وإلى القلق والخوف.

لم يكن هنالك خير من إحالة الإنسان القلق إلى علام الغيوب يستخيره، ويلتمس الهداية والتسديد لديه، فيستنير بنور الإيمان، حتى في أمور دنياه

ولنتأمل هذا الحديث:

عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال:{خرج علينا النبي صلى الله عليه وسلم فقال: خرج من عندي خليلي جبريل آنفا فقال: يا محمد والذي بعثك بالحق إن لله عبدا من عبيده عبد الله تعالى خمس مائة سنة على رأس جبل في البحر عرضه وطوله ثلاثون ذراعا في ثلاثين ذراعا والبحر محيط به أربعة آلاف فرسخ من كل ناحية وأخرج الله تعالى له عينا عذبة بعرض الأصبع تبض بماء عذب فتستنقع في أسفل الجبل وشجرة رمان تخرج له كل ليلة رمانة فتغذيه يومه فإذا أمسى نزل فأصاب من الوضوء وأخذ تلك الرمانة فأكلها ثم قام لصلاته فسأل ربه عز وجل عند وقت الأجل أن يقبضه ساجداً وأن لا يجعل للأرض ولا لشيء يفسده عليه سبيلاً حتى بعثه وهو ساجد قال ففعل فنحن نمر عليه إذا هبطنا وإذا عرجنا فنجد له في العلم أنه يبعث يوم القيامة فيوقف بين يدي الله عز وجل فيقول له الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي.. فيقول: رب بل بعملي، فيقول الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: يا رب بل بعملي، فيقول الرب: أدخلوا عبدي الجنة برحمتي، فيقول: رب بل بعملي، فيقول الله عز وجل للملائكة: قايسوا عبدي بنعمتي عليه وبعمله.. فتوجد نعمة البصر قد أحاطت بعبادة خمس مائة سنة وبقيت نعمة الجسد فضلا عليه، فيقول أدخلوا عبدي النار.. قال: فيجر إلى النار فينادي: رب برحمتك أدخلني الجنة، فيقول: ردوه.. فيوقف بين يديه،

أن عمل المؤمن لا ينجيه ما لم يتغمده الله برحمته فيسقط عنه ما له عليه من شكر النعم التي آتاه الله إياها في الدنيا

فيقول: يا عبدي من خلقك ولم تك شيئا؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: كان ذلك من قبلك أو برحمتي؟ فيقول: بل برحمتك، فيقول: من قواك لعبادة خمس مائة عام؟ فيقول: أنت يا رب، فيقول: من أنزلك في جبل وسط اللجة وأخرج لك الماء العذب من الماء المالح وأخرج لك كل ليلة رمانة وإنما تخرج مرة في السنة وسألتني أن أقبضك ساجدا ففعلت ذلك بك؟ فيقول: أنت يا رب، فقال الله عز وجل: فذلك برحمتي، وبرحمتي أدخلك الجنة، أدخلوا عبدي الجنة، فنعم العبد كنت يا عبدي، فيدخله الله الجنة، قال جبريل عليه السلام: إنما الأشياء برحمة الله تعالى يا محمد.}. رواه الحاكم في مستدركه وقال: هذا حديث صحيح الإسناد.

هذا الحديث الشريف يوضح لنا بجلاء كيف أن عمل المؤمن لا ينجيه ما لم يتغمده الله برحمته فيسقط عنه ما له عليه من شكر النعم التي آتاه الله إياها في الدنيا، وعندما يعفيه من هذا الشكر المستحق له على المؤمن يبقى عمله الصالح زيادة تحتسب له وتوازن أي عمل غير صالح ارتكبه فإذا رجحت حسناته دخل الجنة برحمة الله وبعمله، إذ لو رجحت سيئاته لاستحق النار، وبذلك يكون عمله الصالح هو الذي أنجاه من العذاب لكن بعد رحمة الله له التي تجلت في إسقاط كل الديون المستحقة عليه مقابل النعم التي متعه الله بها في الدنيا وكان يراها أمراً مفروغاً منه وكأنها لا تستوجب شكراً ولا حمداً. والحديث يبين لنا أن رحمة الله هي لكل مؤمن إلا من يرفضها ويصر على دخول الجنة بعمله وحده اغتراراً بعمله وظناً منه أن عمله كان كافياً وأنه قد عمل الذي عليه تجاه خالقه العظيم. إن نعم الله علينا لا يوفيها شكرها ما نتمكن من عمله من الصالحات في عمرنا القصير وجهدنا القليل، قال تعالى: {قُتِلَ الْإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ{17} مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ{18} مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ{19} ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ{20} ثُمَّ أَمَاتَهُ فَأَقْبَرَهُ{21} ثُمَّ إِذَا شَاء أَنشَرَهُ{22} كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَا أَمَرَهُ{23}} {عبس 17–23}. إذن مهما عملنا من الصالحات فسنبقى مقصرين في حق مولانا ولا نستغني عن رحمته التي لولاها لن يكفينا عملنا للنجاة من النار، كما لا غنى لنا عن العمل الصالح الذي ما لم يرجح ويغلب معاصينا فلن نستحق الجنة.. إنها أعمالنا الصالحة هي التي تنجينا إن تغمدنا الله برحمته وأعفانا مما له علينا من شكر مستحق على نعمه علينا في الدنيا، وبذلك ندخل الجنة برحمة الله وبعملنا الصالح مجتمعين، لأنه بدون رحمة الله لن ينفعنا عملنا وبدون عمل صالح يرجح ذنوبنا ومعاصينا قد نكون من أهل النار والعياذ بالله.

مهما عملنا من الصالحات فسنبقى مقصرين في حق مولانا ولا نستغني عن رحمته التي لولاها لن يكفينا عملنا للنجاة من النار، كما لا غنى لنا عن العمل الصالح الذي ما لم يرجح ويغلب معاصينا فلن نستحق الجنة..

ولنتأمل هذه الآيات الكريمة التي تبين أهمية العمل الصالح للنجاة يوم القيامة ودخول الجنة:

{لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلا أَمَانِيِّ أَهْلِ الْكِتَابِ مَن يَعْمَلْ سُوءاً يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِن دُونِ اللّهِ وَلِيّاً وَلاَ نَصِيراً * وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً} النساء123-124

{لَهُمْ دَارُ السَّلاَمِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} الأنعام127

{وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ وَقَالُواْ الْحَمْدُ لِلّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَـذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللّهُ لَقَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُواْ أَن تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} الأعراف43

{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلامٌ عَلَيْكُمُ ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} النحل32

{فَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ} الأنبياء94

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ} العنكبوت7

{فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} السجدة17

{أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلاً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} السجدة19

{فَالْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} يس54

{وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} الصافات39

{وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ} الزمر70

{وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاء فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ} الزمر74

{مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} غافر40

{وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} الزخرف72

إنما أعمالنا الصالحة هي التي تنجينا إن تغمدنا الله برحمته وأعفانا مما له علينا من شكر مستحق على نعمه علينا في الدنيا، وبذلك ندخل الجنة برحمة الله وبعملنا الصالح مجتمعين

{أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} الأحقاف14

{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} الأحقاف16

{وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} الأحقاف19

{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} الطور19

{وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} الطور21

{وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى} النجم31

{وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ{10} أُوْلَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ{11} فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ{12} ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ{13} وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ{14} عَلَى سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ{15} مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ{16} يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ{17} بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ{18} لَا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ{19} وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ{20} وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ{21} وَحُورٌ عِينٌ{22} كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ{23} جَزَاء بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ{24}} الواقعة10-24

{كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} المرسلات43

{إِلَّا الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ} الانشقاق25

{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ} الزلزلة7-8

وبعد أن يرحم الله عباده ويسقط عنهم ما له عليهم من شكر على نعمه عليهم التي لا تعد ولا تحصى، توضع أعمالهم في الميزان، ويدخل الجنة كل من زادت حسناته على سيئاته من المؤمنين الذين لم يكن في إيمانهم أي شرك، أما من أشرك مع الله إلهاً آخر فلا يقبل منه أي عمل صالح مهما عظم ولا بد له من دخول النار.

قال تعالى: {وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} الزمر65

وقال: {ذَلِكَ هُدَى اللّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} الأنعام88

إن فهم الدين فهماً جيداً يريح النفس من أي قلق يسببه الفهم الناقص..

قال صلى الله عليه وسلم "إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة". رواه مسلم)

وقال: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْماً عَظِيماً} النساء48

وقال: {إِنَّ اللّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً بَعِيداً} النساء116

وقال: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} المائدة72

والله لا يقبل عملاً صالحاً إلا من مؤمن، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَلِقَاء الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} الأعراف147

وهكذا يدخل النار كل مشرك وكل ملحد منكر للخالق واليوم الآخر ولا ينجو منها إلا من آمن بالله واليوم الآخر إيماناً لا شرك فيه وعمل من الصالحات ما يدخله الجنة، قال تعالى: {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتَ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَـئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيراً} النساء124

وقال: {مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} النحل97

وقال: {وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً} الإسراء19

وقال: {مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ} غافر40

ويبقى المؤمنون الذين تعادلت حسناتهم وسيئاتهم والأمل بالله أن يرحمهم ويدخلهم الجنة دون عذاب.

أما المؤمنون الذين زادت سيئاتهم على حسناتهم فيدخلون النار ما لم يغفر الله لهم وأشد الخطر يكون على من كان للناس عليه حقوق، حيث أكل مال هذا، وضرب هذا، واغتاب هذا، وغير ذلك من أشكال العدوان على الناس، أو الغلول وأكل مال الأمة دون حق، فيكون عليه يوم القيامة أن يعيد الحقوق إلى أصحابها – يوم لا درهم ولا دينار – فيؤخذ من حسناته حتى إذا نفدت طرح عليه من

هي كتابة علم مسبق يقيني لا كتابة إكراه وإجبار، ويبقى الإنسان هو من يختار أي طريق سيسلك إلى الله: طريق الهدى والرشاد أو طريق الضلال والعصيان، والله ييسره لما اختار ولا يجبره على شيء

سيئاتهم فيفلس ويدخل النار، والله قد يغفر ما له على العبد الذي مات لا يشرك بالله شيئاً، لكن الناس يريدون حقوقهم ولن يتنازلوا عنها وهم في أمس الحاجة إليها، وهكذا يمكن لمن مات موحداً لله أن يستحق النار ويدخلها حتى لو غفر الله له ما ارتكب من معاص لم يعتد فيها على أحد من الناس.

وهنا تأتي شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم لتنقذ هؤلاء الذين أهلكتهم ذنوبهم وتخرجهم من النار على دفعات، حتى لا يترك محمد صلى الله عليه وسلم في النار مؤمناً إيماناً صحيحاً لا شرك فيه ولو كان إيمانه هذا لا يعادل إلا ذرة طالما هو إيمان خالص من الشرك بالله. وعذاب المؤمنين أصحاب الكبائر وشفاعة محمد صلى الله عليه وسلم لهم وخروجهم من النار كل ذلك يتم خلال يوم القيامة وقبل انقضائه ولكن ذلك لا يعني أنهم سيعذبون ساعات قليلة لأن يوم القيامة ليس كأيامنا في الدنيا بل هو يعدل خمسين ألف سنة، قال تعالى عنه: {تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ} المعارج4. لذا لا يستهينن أحد بهذا العذاب فقد يمتد عشرات الآلاف من السنين ويبقى في يوم القيامة.

هذا هو شأن الرحمن يخلق للجنة خلقاً يملؤونها ويتمتعون فيها مع أنهم لم يعملوا شيئاً ليستحقوها، أما النار فلا يدخلها إلا من استحقها بذنوبه الكبيرة

قال صلى الله عليه وسلم: "شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي". رواه أبو داود وابن ماجة والبيهقي والترمذي والحاكم في مستدركه وقال صحيح على شرط الشيخين.

وبعد أن يشفع محمد صلى الله عليه وسلم لكل من كان في قلبه ذرة من إيمان مقبول عند الله لخلوه من الشرك وقبل انقضاء يوم القيامة، يقبض ربنا قبضة من أهل النار الذين لم يقبل منهم أي عمل صالح لأنهم أشركوا مع الله غيره، فيخرجهم من النار ويلقيهم في نهر في أفواه الجنة لتتعافى أجسادهم من آثار العذاب الذي كانوا فيه، ثم يدخلهم الجنة برحمته.. ويبقى في النار كل معاند جاحد محارب لله ورسله والمؤمنين.

ولا يظنن أحد أن قبضة الله هذه عشوائية لأنه حكيم ولا بد أن هذه القبضة تنتقي خيار أهل النار الذين استحقوها لوقوعهم في الشرك ضلالاً وحمقاً، فالشرك يهلك صاحبه مهما حسنت نواياه لأن الله قضى أن من يشرك به يدخل النار ولا تشمله شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم أبداً – وهو جل جلاله لا يبالي من سيدخل النار بموجب قضائه هذا.

ومع أن الله سيشفع للطيبين من أهل النار الذين لم تشملهم شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم قبل انقضاء يوم القيامة فإن ذلك لا يعني أن مدة عذابهم ستكون مقاربة لمدة عذاب المؤمنين أصحاب الكبائر فقد يكون الفرق بين شفاعة محمد صلى الله عليه وسلم للمؤمنين من أهل النار وشفاعة الله لمن يشاء ممن بقي فيها آلاف أو عشرات الآلاف من السنين إضافة لكون شدة العذاب في النار درجات متفاوتة. نسأل الله أن ينجينا منها.وأغلب ظني أن الله يشفع لمن شاء من أهل النار قرب نهاية يوم القيامة أي بعد ما يقرب من خمسين ألف سنة من العذاب، ومع انقضاء يوم القيامة الذي امتد خمسين ألف سنة لا يبقى أي أمل لمن في النار في الخروج منها ويكون جميع أهل الجنة قد استقروا فيها .

الأفعال القهرية التي لا يرتاح المريض إلا أن يفعلها تشبه الإدمان على شيء لا يريد الإنسان تناوله أو فعله لكن الرغبة لديه تكون ملحة ومزعجة إن هو لم يستجب لها

ولنتأمل هذه الأحاديث الشريفة التي منها تعلمنا ما قلناه:

روى البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجمع الله الناس يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا على ربنا حتى يريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت الذي خلقك الله بيده، ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة فسجدوا لك، فاشفع لنا عند ربنا. فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ويقول: ائتوا نوحاً، أول رسول بعثه الله، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ائتوا إبراهيم الذي اتخذه الله خليلاً، فيأتونه فيقول: لست هناكم، ويذكر خطيئته، ائتوا موسى الذي كلمه الله، فيأتونه فيقول: لست هناكم، فيذكر خطيئته، ائتوا عيسى فيأتونه فيقول: لست هناكم، ائتوا محمداً صلى الله عليه وسلم، فقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، فيأتوني، فأستأذن على ربي، فإذا رأيته وقعت ساجداً، فيدعني ما شاء الله، ثم يقال لي: ارفع رأسك: سل تُعطه، وقل يُسمع، واشفع تُشَفَّع، فأرفع رأسي، فأحمد ربي بتحميد يعلمني، ثم أشفع فيحد لي حداً، ثم أخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأقع ساجداً مثله في الثالثة، أو الرابعة، حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن). وكان قتادة يقول عند هذا: أي وجب عليه الخلود.

وروى البخاري أيضاً في صحيحه عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يحبس المؤمنون يوم القيامة حتى يهموا بذلك، فيقولون لو

استشفعنا إلى ربنا فيريحنا من مكاننا، فيأتون آدم فيقولون: أنت آدم أبو الناس خلقك الله بيده وأسكنك جنته وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شيء، لتشفع لنا عند ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا، قال: فيقول: لست هناكم، قال: ويذكر خطيئته التي أصاب، أكله من الشجرة وقد نهي عنها، ولكن ائتوا نوحا أول نبي بعثه الله إلى أهل الأرض.. فيأتون نوحا فيقول: لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب، سؤاله ربه بغير علم، ولكن ائتوا إبراهيم خليل الرحمن.. قال: فيأتون إبراهيم فيقول: إني لست هناكم، ويذكر ثلاث كلمات كذبهن، ولكن ائتوا موسى عبدا آتاه الله التوراة وكلمه وقربه نجيا.. قال: فيأتون موسى فيقول: إني لست هناكم ويذكر خطيئته التي أصاب، قتله النفس، ولكن ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وروح الله وكلمته.. قال: فيأتون عيسى فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمدا صلى الله عليه وسلم عبدا غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.. فيأتوني.. فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني فيقول: ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعط.. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه، فيحد لي حدا فأخرج فأدخلهم الجنة قال قتادة وسمعته أيضا يقول فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة، ثم أعود فأستأذن على ربي في داره، فيؤذن لي عليه، فإذا رأيته وقعت ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعط.. قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه.. قال: ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرج فأدخلهم الجنة.. قال: قتادة وسمعته يقول فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة فأستأذن على ربي في داره فيؤذن لي عليه فإذا رأيته وقعت له ساجدا فيدعني ما شاء الله أن يدعني ثم يقول: ارفع محمد وقل يسمع واشفع تشفع وسل تعطه، قال: فأرفع رأسي فأثني على ربي بثناء وتحميد يعلمنيه، قال: ثم أشفع فيحد لي حدا فأخرج فأدخلهم الجنة، قال: قتادة وقد سمعته يقول فأخرج فأخرجهم من النار وأدخلهم الجنة حتى ما يبقى في النار إلا من حبسه القرآن أي وجب عليه الخلود.. قال: ثم تلا هذه الآية: "عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا".. قال: وهذا المقام المحمود الذي وعده نبيكم صلى الله عليه وسلم

الأفعال القهرية السلوكية كالإدمان يمكن أن تشفى بالامتناع عنها والصبر حتى تمر مدة كافية دون الوقوع فيها وعندها تضعف الرغبة فيها وتنكسر

الأفعال القهرية الذهنية لا يفيد فيها إلا الدواء الخاص بالوسواس القهري الذي يقوي في المخ فعالية مادة السيروتونين

أجريت دراسات على الوساوس الدينية فوجد أنها تكثر في الشعوب المتدينة وتندر في الشعوب قليلة التدين، وفي ممارستنا للطب النفسي لا نرى الوساوس الدينية إلا عند المتدينين ووجودها عند مريض مؤشر على إيمانه وهي لا تضر الإيمان ولن يعاقب المؤمن عليها ولن تؤثر في صحة عقيدته

وروى البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري قال:قلنا: يا رسول الله، هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال: (هل تضارُّون في رؤية الشمس والقمر إذا كانت صحواً). قلنا: لا، قال: (فإنكم لا تضارُّون في رؤية ربكم يومئذ إلا كما تضارُّون في رؤيتهما). ثم قال: (ينادي مناد: ليذهب كل قوم إلى ما كانوا يعبدون، فيذهب أصحاب الصليب مع صليبهم، وأصحاب الأوثان مع أوثانهم، وأصحاب كل آلهة مع آلهتهم، حتى يبقى من كان يعبد الله، من بر أو فاجر، وغُبَّرات من أهل الكتاب، ثم يؤتى بجهنم تُعرض كأنها سراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ قالوا: كنا نعبد عزير ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون في جهنم. ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: نريد أن تسقينا، فيقال: اشربوا، فيتساقطون، حتى يبقى من كان يعبد الله، من بر أو فاجر، فيقال لهم: ما يحبسكم وقد ذهب الناس؟ فيقولون: فارقناهم ونحن أحوج منَّا إليه اليوم، وإنا سمعنا مناديا ينادي: ليلحق كل قوم بما كانوا يعبدون، وإنما ننتظر ربنا، قال: فيأتيهم الجبَّار في صورة غير صورته التي رأوه فيها أول مرة، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فلا يكلمه إلا الأنبياء، فيقول: هل بينكم وبينه آية تعرفونه، فيقولون: الساق، فيكشف عن ساقه، فيسجد له كل مؤمن، ويبقى من كان يسجد لله رياء وسمعة، فيذهب كيما يسجد فيعود ظهره طبقاً واحداً، ثم يؤتى بالجسر فيُجعل بين ظهري جهنم). قلنا: يا رسول الله، وما الجسر؟ قال: (مَدْحَضَةٌ مَزِلَّةٌ، عليه خطاطيف وكلاليب، وحسكة مفلطحة لها شوكة عقيفة، تكون بنجد، يقال لها: السعدان، المؤمن عليها كالطرف وكالبرق وكالريح، وكأجاويد الخيل والركاب، فناج مسلَّم وناج مخدوش، ومكدوس في نار جهنم، حتى يمر آخرهم يسحب سحباً، فما أنتم بأشد لي مناشدة في الحق قد تبين لكم مِنَ المؤمن يومئذ للجبار، وإذا رأوا أنهم قد نجوا، في إخوانهم، يقولون: ربنا إخواننا، كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا، فيقول الله تعالى: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من إيمان فأخرجوه، ويحرِّم الله صورهم على النار، فيأتونهم وبعضهم قد غاب في النار إلى

قدمه، وإلى أنصاف ساقيه، فيُخرجون من عرفوا، ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار فأخرجوه، فيُخرجون من عرفوا ثم يعودون، فيقول: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه، فيُخرجون من عرفوا). قال أبو سعيد: فإن لم تصدقوني فاقرؤوا: {إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها}. (فيشفع النبيون والملائكة والمؤمنون، فيقول الجبار: بقيت شفاعتي، فيقبض قبضة من النار، فيخرج أقواماً قد امتُحِشوا، فيلقون في نهر بأفواه الجنة يقال له: ماء الحياة، فينبتون في حافتيه كما تنبت الحِبَّة في حميل السيل، قد رأيتموها إلى جانب الصخرة، إلى جانب الشجرة، فما كان إلى الشمس منها كان أخضر، وما كان منها إلى الظل كان أبيض، فيخرجون كأنهم اللؤلؤ، فيجعل في رقابهم الخواتيم، فيدخلون الجنة، فيقول أهل الجنة: هؤلاء عتقاء الرحمن، أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدموه، فيقال لهم: لكم ما رأيتم ومثله معه).

وقال صلى الله عليه وسلم: يؤتى بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا أهل الجنة، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه. ثم ينادي: يا أهل النار، فيشرئبون وينظرون، فيقول: هل تعرفون هذا؟ فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم قد رآه، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم قرأ: {وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة - وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا- وهم لا يؤمنون}). رواه البخاري ومسلم وهذه رواية البخاري.

إن فهم الدين فهماً جيداً يريح النفس من أي قلق يسببه الفهم الناقص.. ولو فهم المؤمن قول النبي صلى الله عليه وسلم إن ما كتبه الله بعلمه المسبق اليقيني من أن فلاناً من الناس سيكون من أهل النار حتى لو عمل من الصالحات الكثير، لو فهم ذلك دون أخذ باقي حقائق الإيمان في الاعتبار لظن أن الله يكره بعض الناس على فعل ما يوجب لهم النار كي يتحقق ما كتبه من قبل أنهم من أهل النار، وهذا مستحيل أن يقع من الرحمن الذي حرم الظلم على نفسه وجعله بيننا محرماً، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن أحدكم يجمع في بطن أمه

عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم)

أربعين يوماً، ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكاً فيؤمر بأربعة: برزقه وأجله، وشقي أو سعيد، فوالله إن أحدكم - أو: الرجل - يعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها غير ذراع أو ذراعين، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها). قال آدم: (إلا ذراع). رواه البخاري ومسلم

وقال صلى الله عليه وسلم "إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار. وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة". رواه مسلم)

وروى مسلم في صحيحه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال "ما منكم من أحد، ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار. وإلا وقد كتبت شقية أو سعيدة" قال فقال رجل: يا رسول الله! أفلا نمكث على كتابنا، وندع العمل؟ فقال "من كان من أهل السعادة، فسيصير إلى عمل أهل السعادة. ومن كان من أهل الشقاوة، فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة" فقال "اعملوا فكل ميسر. أما أهل السعادة فييسرون لعمل أهل السعادة. وأما أهل الشقاوة فييسرون لعمل أهل الشقاوة". ثم قرأ {فأما من أعطى واتقى* وصدق بالحسنى* فسنيسره لليسرى* وأما من بخل واستغنى* وكذب بالحسنى* فسنيسره للعسرى} [الليل: 5 - 10].

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله عز وجل خلق آدم, ثم أخذ الخلق من ظهره وقال: هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي وهؤلاء إلى النار ولا أبالي، فقال قائل: يا رسول الله فعلى ماذا نعمل؟ قال: على مواقع القدر". قال الألباني في "السلسلة الصحيحة": رواه أحمد وابن سعد في "الطبقات"، وابن حبان في "صحيحه"، والحاكم وقال الحاكم: "صحيح" ووافقه الذهبي، وهو كما قالا .

إذن هي كتابة علم مسبق يقيني لا كتابة إكراه وإجبار، ويبقى الإنسان هو من يختار أي طريق سيسلك إلى الله: طريق الهدى والرشاد أو طريق الضلال والعصيان، والله ييسره لما اختار ولا يجبره على شيء. والله علم منذ خلق آدم من من ذريته سيدخل الجنة برحمة الله وعمله الصالح ومن منهم سيدخل النار

الوسواس القهري مرض يؤجر المؤمن على الصبر عليه وعلى الصبر على علاجه كما يؤجر على أي مرض آخر حتى لو كان من أعراضه ما يصل لحد الشتيمة للخالق أو التصورات المشابهة للشرك

.

بعمله الطالح وعدل رب العالمين فعبر الحديث عن ذلك بأنها قبضة قبضها ربنا وقال إلى الجنة وقبضة قبضها وقال إلى النار، أي يدخل أهل الجنة الجنة بقدر الله ويدخل أهل النار النار بقدره أيضاً دون أن يعني ذلك أي إكراه لمخلوق على شيء، فالله علم ما سيفعله الناس من خير وشر وتركهم يفعلونه وهو القادر على منعهم لو شاء وبذلك يكون عملهم للخير وللشر بقدر الله وباختيارهم الحر الذي يستحقون عليه الجزاء خيراً على الخير وعذاباً على الشر. والمخيف في الأمر قوله تعالى "ولا أبالي" حيث سيعاقب الله كل من أشرك به أو جحده طالما كانت آياته كافية لغيرهم الذين استجابوا لله فآمنوا به وأطاعوه. ويحاسب كل من عصاه وتحتسب المعصية على مرتكبها مهما بدت صغيرة أو غير مهمة لمن وقع فيها وليس هنالك محاباة لأحد إلا جزاء له على عمل صالح أحبه الله من أجله، لذا على المؤمن الحذر وأن لا يستهين بالمعاصي فهي تسجل عليه وسيسأل عنها يوم القيامة ومعرض لأن يعاقب عليها، فالملائكة يكتبون كل عمل نعمله ولا يهمهم ما إن كنا نرى ما نقع فيه من معصية شيئاً سيئاً حقاً يستوجب التحريم أو لا نرى ذلك، إذ طالما حرمه الله فنحن متعبدون باجتنابه وعدم الوقوع فيه. لقد وضع ربنا المعايير للعمل الصالح والعمل الطالح، لذا قد نستغرب عظم الأجر على عمل بسيط صالح وعظم الوعيد على عمل طالح لا نلق له بالاً، وربنا لا يبالي من سيكون الفائز برضاه وجنته ومن سيستحق ناره وعذابه، وهذا مدعاة لنا لأخذ الأمر بجدية لأنه في الحقيقة جد لا هزل فيه.

عندما يخشى الإنسان أن يفقد شيئاً مهماً، فإنه يحس بالقلق النفسي، أما إن فقده، ويئس من استرجاعه، فإنه معرض لأن يعاني من الاكتئاب النفسي

وقد روى مسلم في صحيحه أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال لعائشة رضي الله عنها ذات مرة: وسلم "أو لا تدرين أن الله خلق الجنة وخلق النار. فخلق لهذه أهلا، ولهذه أهلا". وفي رواية ثانية لمسلم يقول صلى الله عليه وسلم: قال "...، يا عائشة! إن الله خلق للجنة أهلا. خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. وخلق للنار أهلا. خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم". ولا يعني ذلك أن الله خلق النار ثم خلق لها أناس مفطورين على الكفر كي يكونوا أهلها بل هم أناس يخلقهم الله بقدره ويختارون طريق النار وأهلها، ولا يتعمد خلقهم بالذات كي يملأ النار بهم. فالله خلق آدم بيده وكان لا بد أن يكون المخلوق هو آدم بالذات وكذلك حواء

التي كانت نسخة مؤنثة من آدم خلقها الله من ضلع آدم وما كان لأنثى غيرها أن تكون المخلوقة، لكن ذرية آدم يخلقها الله بقدره حيث يلتقي حيوان منوي من رجل ببييضة من امرأة وتتكون نطفة أمشاج يكون منها رجل أو امرأة جديدان، وإن لقح هذه البييضة حيوان منوي آخر من الأب نفسه يكون المتكون شخصاً آخر لأن كل حيوان منوي يحوي مورثات مختلفة عما يحويه الحيوان المنوي الآخر. وإذا علمنا أن الرجل يقذف عشرات الملايين من الحيوانات المنوية في الجماع الواحد وكلها مختلفة عن بعضها البعض تبين لنا أن هنالك عشرات الملايين من الاحتمالات في الجنين الذي سيتكون لو حصل حمل في ذلك الجماع كل جنين منها غير الآخر، أما لو حصل الحمل في جماع آخر فهنالك عشرات الملايين أخرى من الأجنة المحتملة وكذلك لو كان الجماع في شهر آخر فاختلفت البييضة وباختلافها تختلف الأجنة المحتملة، وأياً كان الجنين المتكون فإنه يتكون بعلم الله وإذنه أي بقدره ويكون مخلوقاً لله مع أنه لم يتعمده، وهكذا يكون الله هو الذي خلق أهل الجنة وخلق أهل النار الذين علم مسبقاً أنهم سيكونون أهلها، لكنه خلقهم جميعهم على فطرة الإسلام واختاروا هم بحرية تامة طريق الهداية أو طريق الغواية فاستحقوا الجنة أو النار. ولعل الله يتدخل في اختيار الجنين الذي سيتكون لأبوين معينين من الأجنة المحتملة منهما إن هما أكثرا الدعاء له يطلبان منه ذرية صالحة فيختار لهما الصالح من ذريتهما، لكن حاشاه يتعمد خلق من يعلمه من أهل النار إن هو خلقه، مع أنه لن يدخله النار إلا بذنوبه التي ارتكبها بحرية تامة ، فالله هو الرحمن الرحيم، والذين يأتون إلى الدنيا وكان خيراً لهم أن لا يأتوا إنما يأتي بهم حظهم السيئ ويهلكهم عملهم وطغيانهم.

تضعف ثقة المكتئب بنفسه، فيصير متردداً، لا يجرؤ على اتخاذ القرارات، خشية أن يقع في الخطأ، ويغمره إحساس بالذنب، ولوم لنفسه لا تستحقه

أما يوم القيامة، وبعد أن يدخل جميع أهل الجنة الجنة، ويبقى في النار من استحق الخلود فيها، يبقى في الجنة متسع، فيخلق الله خلقاً يسكنون فيه، أما النار التي تقول هل من مزيد فيضع ربنا فيها قدمه ليسكتها وتكتفي بمن فيها.

أن الإنسان يحس بالسرور أو الحزن نتيجة تفاعلات كيميائية، ونشاطات كهربيةٍ، وغير ذلك مما يقع من أحداث فيزيولوجية في دماغه

قال صلى الله عليه وسلم: "لا تزال جهنم تقول: هل من مزيد، حتى يضع فيها رب العزة، تبارك وتعالى. قدمه. فتقول: قط قط، وعزتك. ويزوي بعضها إلى بعض". رواه مسلم

وقال أيضاً: "لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه. فينزوي بعضها إلى بعض وتقول: قط قط. بعزتك وكرمك. ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقاً، فيسكنهم فضل الجنة". رواه مسلم

وقال: "يبقى من الجنة ما شاء الله أن يبقى. ثم ينشئ الله تعالى لها خلقاً مما يشاء". رواه مسلم

وقال صلى الله عليه وسلم "تحاجت الجنة والنار. فقالت النار: أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين. وقالت الجنة: فما لي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس وسقطهم وغرتهم؟ قال الله للجنة: إنما أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي. وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي. ولكل واحدة منكما ملؤها. فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع الله، تبارك وتعالى، رجله. تقول: قط قط قط. فهنالك تمتلئ. ويزوي بعضها إلى بعض. ولا يظلم الله من خلقه أحدا. وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقا". رواه مسلم

وهذا هو شأن الرحمن يخلق للجنة خلقاً يملؤونها ويتمتعون فيها مع أنهم لم يعملوا شيئاً ليستحقوها، أما النار فلا يدخلها إلا من استحقها بذنوبه الكبيرة.

الفصل الثامن عشر: صريح الإيمان

لا يكتمل الحديث عن القلق النفسي دون الحديث على الوسواس القهري الذي يصيب حوالي اثنين بالمائة من البشر. في الوسواس القهري يسيطر على نفس الإنسان أفكار أو تخيلات أو أفعال هو غير مقتنع بها لكنه لا يستطيع الامتناع عنها إلا بمعاناة توتر مزعج يدفعه إلى القيام بها رغم أنه يراها سخيفة ويخجل أن يطلع الناس عليها.

قد يجد نفسه مثلا مضطراً إذا دخل من باب معين أن يخرج ثم يدخل ويكرر ذلك سبع مرات قبل أن يستطيع الاستمرار في ما كان يريد فعله، هو لا يرى أي معنى لدخوله ثم عودته ثم دخوله ثم عودته ثم دخوله من الباب سبع مرات، لكن يتوتر كثيراً إن لم يفعل ذلك وقد يظن أن مصيبة ستقع إن هو لم يفعل.

وقد تسيطر عليه شكوك أن نظافته أو طهارته ناقصة فيضطر أن يغسل يديه عشرات المرات قبل أن يلمس شيئاً يخصه أو يتناول طعامه، وقد يعيد وضوءه ثلاثين مرة قبل أن يطمئن إلى صحة صلاته بهذا الوضوء.

الموت خسارة تبدو للوهلة الأولى نهائية، لكن المؤمن لا يرى في الموت إلا فراقاً يكون بعده اللقاء، وإن كان اللقاء سيتم يوم القيامة، فذلك لا يعني أن الفراق سيطول آماداً بعيدة، إذ لا يفصل أحدنا عن يوم القيامة إلا أن يموت

وقد تسيطر على ذهنه تخيلات بشعة تتناقض مع إيمانه وأخلاقه، كالذي يرى نفسه في خياله يمارس الفحشاء مع ابنته، أو يرى في خياله القرآن الكريم مرمياً في مكان قذر أو غير ذلك من صور ذهنية بشعة بالنسبة له لكن لا تفارق خياله.

وقد يحس رغبة قاهرة أن يتلفظ بتطليق زوجته وهو لا يريد ذلك أو أن يشتم الله في ذهنه أو بلسانه وهو رافض لذلك وكاره، لكن الامتناع يولد لديه توتراً نفسياً مزعجاً جداً ولا يرتاح إلا عندما يستجيب لهذه الرغبة القهرية الشاذة فيفعل ما تمليه عليه ثم تسيطر عليه مشاعر الذنب أو الظن أن زوجته قد طلقت.

وقد يشك أنه ارتكب فعلاً شنيعاً ونسي ذلك، كالذي يسأل زوجته كل حين "هل طلقتك؟" أو الذي يشك أنه ربما قتل إنساناً أو التي تشك أنها ربما ارتكبت فاحشة وهي الفتاة العفيفة... أو الذي تسيطر عليه شكوك في الخالق والإيمان تعذبه لأنه لا يريدها ويخشى على إيمانه منها لكنها لا تفارق ذهنه الساعات الطوال كل يوم.

صور عديدة للوسواس القهري، وما ذكرته ليس إلا أمثلة قليلة من مئات الصور الأخرى التي نراها لدى مرضى الوسواس القهري. ولهذا المرض أساس عضوي قوي والاستعداد له وراثي، وهو يشبه تكون غريزة مكتسبة لدى الإنسان لفعل شيء ليس من طبعه وتكوينه، ولكن يصبح غريزة ملحة لديه تشبه الغريزة الجنسية التي تلح على النفس كي تمارس الفعل الجنسي، ولكن الفارق أن الغريزة الجنسية طبيعية وفطرية والإنسان لا يراها سخيفة، وإن كان يدخل في صراع معها خشية الوقوع في الحرام. والأفعال القهرية التي لا يرتاح المريض إلا أن يفعلها تشبه الإدمان على شيء لا يريد الإنسان تناوله أو فعله لكن الرغبة لديه تكون ملحة ومزعجة إن هو لم يستجب لها. والأفعال القهرية السلوكية كالإدمان يمكن أن تشفى بالامتناع عنها والصبر حتى تمر مدة كافية دون الوقوع فيها وعندها تضعف الرغبة فيها وتتكسر، لكن الأفعال القهرية الذهنية لا يفيد فيها إلا الدواء الخاص بالوسواس القهري الذي يقوي في المخ فعالية مادة السيروتونين. ومن الناحية النفسية يفيد المريض كثيراً أن يعلم أن هذه الوساوس الذهنية مهما كانت بشعة فإنها لن تضره ولا تحتاج منه أن يفعل أي شيء ليبطل أثرها في إيمانه أو صحته أو حياته، لأن محاولة فعل شيء يعاكسها يزيد الحالة سوءاً حيث ينضاف إلى الأعراض أفعال قهرية سلوكية.

عندما توفى إبراهيم ابن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وفاضت عيناه بالدموع حزناً عليه قال: (إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزنون)

وعلى ما يبدو فإن الشيطان يستغل الضعف الذي يصيب دماغ المريض بالوسواس القهري ليوسوس له ما يخيفه على ما هو حريص عليه، فيوسوس للمتدين ما يقلقه حول عقيدته أو صلاته أو غير ذلك، ويوسوس للفتاة العفيفة ما يقلقها على عفتها، وللحريص على صحته ما يقلقه على صحته وهكذا.

وقد اشتكى بعض الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم من أمور يجدونها في أنفسهم (أفكار وتخيلات) يتمنى أحدهم لو يرمى من السماء إلى الأرض ولا تأتيه من بشاعتها، وفهم النبي صلى الله عليه وسلم أنها متعلقة بالإيمان فطمأنهم وقال لهم: "ذاك صريح الإيمان".

المؤمن يؤلمه الفراق، وهذا أمر طبيعي، لكن إدراكه لاستمرارية الوجود الإنساني، وحتمية اللقاء بمن مات، يخفف من إحساسه بالخسارة، ويحميه من وساوس الشيطان

عن أبي هريرة؛ قال: جاء ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألوه: إنا نجد في أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به. قال: "وقد وجدتموه؟" قالوا: نعم. قال: " ذاك صريح الإيمان". صحيح مسلم

وفي رواية أحمد في مسنده يقول أبو هريرة رضي الله عنه: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني أحدث نفسي بالحديث لإن أخر من السماء أحب إلي من أن أتكلم به، قال: ذلك صريح الإيمان. مسند أحمد

وحديثاً أجريت دراسات على الوساوس الدينية فوجد أنها تكثر في الشعوب المتدينة وتندر في الشعوب قليلة التدين، وفي ممارستنا للطب النفسي لا نرى الوساوس الدينية إلا عند المتدينين ووجودها عند مريض مؤشر على إيمانه وهي لا تضر الإيمان ولن يعاقب المؤمن عليها ولن تؤثر في صحة عقيدته وبخاصة أن الله قد تجاوز لنا عما نحدث به أنفسنا ولا يحاسبنا إلا على الأقوال والأفعال.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم). رواه البخاري في صحيحه.

لذا قال الفقهاء إن الرجل لو طلق زوجته في نفسه دون أن يتلفظ بذلك فإنه لا يقع، وهذا مفيد لمرضى الوسواس القهري لما يحسون به من مشاعر ذنب شديدة بسبب ما يمر في أذهانهم من أفكار وشكوك أو تخيلات تتناقض مع إيمانهم.

الوسواس القهري مرض يؤجر المؤمن على الصبر عليه وعلى الصبر على علاجه كما يؤجر على أي مرض آخر حتى لو كان من أعراضه ما يصل لحد الشتيمة للخالق أو التصورات المشابهة للشرك كالذي كلما وقف للصلاة سيطر

عليه تصور أن الشخص أو الشيء الذي أمامه هو إلهه، وهو كاره لهذه التخيلات لكنه غير قادر على إيقافها.

لكن المبشر للمرضى أن الأدوية النفسية الحديثة فعالة جداً وهي أدوية لا تسبب الإدمان وآثارها الجانبية في الغالب لطيفة، لذلك لا مبرر لأي مريض بالوسواس القهري أن يحرم نفسه منها ويستمر في معاناته، بل عليه أن يراجع طبيباً نفسياً دون إبطاء لأننا مأمورون بالتداوي ولأن الوسواس القهري يضيع من وقت الإنسان وجهده الكثير فيما لا فائدة منه.

لا يهم المؤمن أن تفنى ثمار عمله الدنيوي، طالما أن مالك الدنيا والآخرة سيعطيه الأجر الكبير على كل عمل صالح قام به.

(ب) - الاكتئاب

الفصل الأول:الموت فراق لا انتهاء

عندما يخشى الإنسان أن يفقد شيئاً مهماً، فإنه يحس بالقلق النفسي، أما إن فقده، ويئس من استرجاعه، فإنه معرض لأن يعاني من الاكتئاب النفسي، حيث تسود الدنيا في عينيه، ويغلبه التشاؤم، وتهبط معنوياته، ويغمره الحزن، ويفقد الرغبة في متع الحياة، من طعام، أو شراب، أو تسلية، أو غير ذلك من المتع التي أحلها الله للإنسان.

وقد يسيطر عليه التفكير في الموت فيتمناه، ويراه خيراً من حياة خالية من السعادة، وربما فكر في الانتحار تفكيراً جدياً ، وقد يقتل نفسه بيده.

وتضعف ثقة المكتئب بنفسه، فيصير متردداً، لا يجرؤ على اتخاذ القرارات، خشية أن يقع في الخطأ، ويغمره إحساس بالذنب، ولوم لنفسه لا تستحقه، ويبكي لأبسط الأمور، وتضعف قواه البدنية، كما يضعف تركيزه الذهني، وذاكرته، ويصبح نومه قليلاً مضطرباً... إنه باختصار إنسان بائس، حزين يائس.

المؤمن لا يرى أن النعمة دليل حب من الله، ولا يرى المصيبة دليل كراهية... إنما الحياة الدنيا كلها اختبار للإنسان

ومن بديع صنع الله تعالى: أن الإنسان يحس بالسرور أو الحزن نتيجة تفاعلات كيميائية، ونشاطات كهربيةٍ، وغير ذلك مما يقع من أحداث فيزيولوجية في دماغه.

صحيح أن أحداث الحياة، وما تدعو إليه من سرور، أو حزن، هي التي تثير تلك النشاطات في دماغ الإنسان، لتجعله يحس بالمشاعر المفرحة، أو المحزنة،

لكنه في بعض الحالات يمكن للإنسان أن يعاني من مشاعر الحزن، واليأس، وجميع أعراض الاكتئاب النفسي، دون أن يكون في حياته ما يدعو إلى ذلك، ودون أن يخسر غالياً، لا مادياً ولا معنوياً، إنما يكون اكتئابه مرضاً مثل باقي الأمراض التي تصيب الإنسان، والخلل والاضطراب في هذه الحالة واقع في عمل الدماغ –آلة الفكر والشعور– وعندها تكون الأدوية النفسية، ونوبات الصرع المحرضة بالكهرباء خير علاج، ويكون فيها الشفاء بإذن الله.

لكن الاكتئاب النفسي، يكون في أحيان كثيرة رد فعل على خسارة مادية أو معنوية، تعرض لها الإنسان، كمن يكتئب بعد خسارة مالية، أو بعد فقد عزيز بالموت، أو السفر، أو بانفصام العلاقة معه، أو بعد فقد عضو من أعضاء البدن، أو بعد فقد القدر والمكانة، نتيجة مصائب الحياة.

وفي هذا النوع من الاكتئاب النفسي الذي يسميه الأطباء النفسيون "الاكتئاب التفاعلي" تعظم أهمية المنظور، الذي ينظر الإنسان من خلاله إلى الحياة وما فيها، ويبرز دور العقيدة التي يؤمن بها.

فالدين وطريقة التفكير، يؤثران في نظرة الإنسان إلى الأمور، وفي رؤيته لها، فحيث يمكن أن يرى إنسان ما في مصيبة وقعت له نهاية العالم، يراها إنسان آخر من منظوره المختلف مجرد مصيبة بسيطة، يمكنه أن يتكيف معها بسهولة، ويمر فيها بأقل قدر من المعاناة.

ومن أهم أسباب الاكتئاب التفاعلي الناتج عن أحداث الحياة: فقد عزيز بالوفاة.

فالموت خسارة تبدو للوهلة الأولى نهائية، لكن المؤمن لا يرى في الموت إلا فراقاً يكون بعده اللقاء، وإن كان اللقاء سيتم يوم القيامة، فذلك لا يعني أن الفراق سيطول آماداً بعيدة، إذ لا يفصل أحدنا عن يوم القيامة إلا أن يموت، وعندها لا يشعر بمرور آلاف السنين أو ملايينها، إلا كما تمر الساعة على نائم ما لبث أن أفاق.

عندما توفى إبراهيم ابن النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وفاضت عيناه بالدموع حزناً عليه قال: (إن العين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون). رواه البخاري

الفائز في هذا الامتحان الكبير، امتحان الحياة الدنيا، هو الذي يجيب على النعمة بالشكر، ويجيب على المصيبة والحرمان بالصبر. والخاسر الخائب من يجيب بالكفر، والجحود على النعمة، وبالسخط والتذمر على المصيبة والحرمان

فالمؤمن يؤلمه الفراق، وهذا أمر طبيعي، لكن إدراكه لاستمرارية الوجود الإنساني، وحتمية اللقاء بمن مات، يخفف من إحساسه بالخسارة، ويحميه من وساوس الشيطان، الذي يجدها فرصة مواتية ليبث في نفس الإنسان وساوسه، كي يجعله يحس أنه مخلوق تافه لا قيمة له، وأن جهده لا جدوى منه، ويبرر الشيطان ذلك، بأن الإنسان الذي تمتلئ نفسه بالأحلام والمشاريع، والذي تمتلئ حياته بالسعي والعمل والأهداف الكبيرة، تأتي يد الموت لتخطفه من هذا كله، غير مبالية بآماله، وطموحاته، ولا بجهوده وأعماله، ويقول الشيطان للإنسان: لماذا العمل؟ ولماذا الطموح؟ ما أنت إلا مخلوق ضعيف سيؤول كل جهدك إلى الزوال.

وما لم تكن النفس الإنسانية قد أشرقت بأنوار الإيمان، فإن الشيطان ينجح في جعلها تحس بأنها لا قيمة لها، مع أن الله كرمها، وضمن لها الخلود، واستخلفها في الأرض، وسخر لها ما في السموات والأرض.

وينجح الشيطان في جعل النفس التي تغفل عن حقائق الإيمان المشرقة، ينجح في جعلها تحس باللاجدوى في هذه الحياة، فتفقد الرغبة في أن تفعل شيئاً، طالما أنه لا جدوى من فعل شيء، وطالما أنه إلى زوال، لكن المؤمن يعلم كما علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه لو كانت بيده فسيلة، وكادت القيامة أن تقوم، فليغرسها، فإن له بها أجراً، مع أن زوالها سيكون بعد لحظات، فلا يهم المؤمن أن تفنى ثمار عمله الدنيوي، طالما أن مالك الدنيا والآخرة سيعطيه الأجر الكبير على كل عمل صالح قام به.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {إن قامت على أحدكم القيامة وفي يده فسيلة فليغرسها} {رواه أحمد في مسنده}.

ليست النعمة دليل حب وتكريم من الله، وليس الحرمان دليل إهانة وكراهية منه، إنما كلاهما ابتلاء، أي: اختبار وامتحان وفتنة

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة]

الفصل الثاني:إن الإنسان خلق هلوعاً...... إلا المصلين

إن الإنسان المحروم من نعمة الإيمان، إذا ما أصابته مصيبة جزع، واسودت الدنيا في نظره، وسيطر عليه اليأس والقنوط، وكان الاكتئاب النفسي لديه شديداً إلى درجة أن يقتل نفسه أحياناً، أو أن يفكر في ذلك بجدية.

والمصائب أمر ملازم للحياة البشرية، سواء في ذلك المؤمنون والكافرون، لكن الإيمان الصحيح يجعل المؤمن قوياً في وجه المصائب، فقد جعل الله للمؤمن في المصيبة باب خير، وهذا مما يجعل وقعها عليه أخف وأهون.

فالمؤمن لا يرى أن النعمة دليل حب من الله، ولا يرى المصيبة دليل كراهية... إنما الحياة الدنيا كلها اختبار للإنسان، يتعرض فيه إلى سؤالين كبيرين:

الأول: كيف يكون رده على النعمة، هل يشكر الله عليها أم يجحد وينكر الفضل، فيكفر بالله وأنعمه؟ وأعلى درجات الشكر الإيمان بالله تعالى بلا شريك، ومعرفة أن النعمة فضل منه، قال تعالى: {إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً {2} إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً {3}}. (الإنسان: 2 – 3).

إن ثبات المؤمن في وجه المصائب، وحفاظه على سكينته، لا يأتيان من فراغ، إنما هو المنظور الإيماني للحياة، وما فيها من نعمة، أو مصيبة.

والسؤال الكبير الثاني في الامتحان الذي يعيش فيه الإنسان طيلة حياته الدنيا هو: كيف يكون رده على المصيبة والحرمان؟ هل يرضى بقضاء الله وقدره فلا يغضب من رب العالمين، بل يبقى راضياً عن الله على الرغم مما قدره عليه من مصيبة أو حرمان فيكون بذلك من الصابرين، وممن رضي الله عنهم ورضوا عنه، أم يغضب ويسخط على الله، وينسى أنه لله، وأنه إلى الله راجع، فيقل أدبه مع خالقه، وتميل نفسه إلى المعصية والتمرد على الخالق العظيم، رداً على ما قضى عليه، وقدر من مصيبة وحرمان؟.

قال تعال: {إِنَّ الْإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً {19} إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعاً {20} وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعاً {21} إِلَّا الْمُصَلِّينَ {22} الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ {23} وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ {24} لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ {25} وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ {26} وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ {27} إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ {28} وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ {29} إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ {30} فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ {31} وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ {32} وَالَّذِينَ هُم بِشَهَادَاتِهِمْ قَائِمُونَ {33} وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ {34} أُوْلَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَمُونَ {35}}. {المعارج: 19 – 35}.

والفائز في هذا الامتحان الكبير، امتحان الحياة الدنيا، هو الذي يجيب على النعمة بالشكر، ويجيب على المصيبة والحرمان بالصبر.

والخاسر الخائب من يجيب بالكفر، والجحود على النعمة، وبالسخط والتذمر على المصيبة والحرمان.

ولا بد للمؤمن من أن يفهم ذلك كله حتى تبقى نفسه متمتعة بسكينتها في وجه مصائب الحياة.

قال تعالى مصححاً المفاهيم الخاطئة حول النعمة والحرمان: {فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ {15} وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ {16} كَلَّا ...{17}}. {الفجر: 15 – 17}.

إذاً: ليست النعمة دليل حب وتكريم من الله، وليس الحرمان دليل إهانة وكراهية منه، إنما كلاهما ابتلاء، أي: اختبار وامتحان وفتنة. قال تعالى:{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ {35} }.{الأنبياء: 35}.

حقيقة أن المصائب تكفر الذنوب عن المؤمن الصابر، وحتى ما يقع على المؤمن من عقوبة من قبل الحاكم جزاء على معصية ارتكبها، فإن له في تلك العقوبة كفارة وطهوراً

والمصائب تلازم الحياة البشرية،، لأنها من طبيعة الحياة الدنيا، وقد جعلها الله للمؤمن الصابر،، الذي يتلقاها دون أن يغضب من الله أو يسخط، جعلها كفارة له تغسل عنه ذنوبه، وتطهره منها، بحيث لا يعاقب عليها في الآخرة.

وبهذا تصبح المصائب الواقعة على المؤمن الصابر دليل حب من الله، لأنه أراد بها أن يطهره من ذنوبه، ليرفعه درجات في الجنة، ما كان له أن يبلغها مع بقاء ذنوبه.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة، في نفسه وولده وماله، حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة]. (رواه الترمذي وقال: حسن صحيح).

وقال أيضاً: [إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله تعالى إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط]. (رواه الترمذي وقال: حسن).

وقال صلى الله عليه وسلم: [من يرد الله به خيراً يصب منه]. {رواه البخاري}.

إن ثبات المؤمن في وجه المصائب، وحفاظه على سكينته، لا يأتيان من فراغ، إنما هو المنظور الإيماني للحياة، وما فيها من نعمة، أو مصيبة.

الفصل الثالث:وبشر الصابرين

إن من أحدث العلاجات النفسية للاكتئاب علاجاً يدعى "العلاج السلوكي المعرفي"، وهو علاج يهدف إلى تغيير الطريقة التي يفكر بها المكتئب، وتغيير النظرة التي ينظر بها إلى الأمور التي سببت له الاكتئاب، وجعلت الدنيا تسود في عينيه.

والإيمان يزود المؤمن بنظرة إلى مصائب الحياة وإلى الحرمان فيها، تهون عليه تلك المصائب، وذلك الحرمان، بحيث يكون أقل الناس تعرضاً للاكتئاب، بفعل المصائب أو الحرمان.

وإذا ما أصابه الاكتئاب، ثم ذكر ما نسي من حقائق إيمانية، كان شفاؤه أسرع وأكمل.

ومن هذه الحقائق، حقيقة أن المصائب تكفر الذنوب عن المؤمن الصابر، وحتى ما يقع على المؤمن من عقوبة من قبل الحاكم جزاء على معصية ارتكبها، فإن له في تلك العقوبة كفارة وطهوراً .

كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم إذا دخل على مريض يعوده قال: [لا بأس، طهور إن شاء الله]. (البخاري).

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم وهو يبايع أصحابه على الامتناع عن المعاصي:

[..... ومن أصاب من ذلك شيئاً فأخذ به في الدنيا فهو كفارة له وطهور، ومن ستره الله فذلك إلى الله، إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له]. (البخاري).

أي من ارتكب شيئاً من الحرام فعوقب عليه في الدنيا بالحد يقام عليه أو تعزير أمر به القاضي فإن ذلك كفارة لذنبه ولن يعاقبه الله عليه مرة ثانية في الآخرة، أما إن ستره الله فنجا من العقوبة القضائية فأمره إلى الله إن شاء عذبه يوم القيامة وإن شاء غفر له، هذا إن مات قبل أن يتوب، أما إن تاب واستغفر فإن الله يتوب عليه ويغفر له ويكون كمن لا ذنب له كما قال صلى الله عليه وسلم.

وحتى المعاناة النفسية من قلق واكتئاب وغيرهما، فإن فيها كفارة للمؤمن. قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه]. (متفق عليه).

حتى المعاناة النفسية من قلق واكتئاب وغيرهما، فإن فيها كفارة للمؤمن. قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب، ولا هم ولا حزن ولا أذى، ولا غم، حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها من خطاياه]

ومن جهة أخرى، فإن الله وعد الصابرين على قضائه وقدره الأجر العظيم في الآخرة، والتعويض عما أخذ منهم في الدنيا. قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوفْ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمَوَالِ وَالأنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ {155} الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّـــا إِلَيْهِ رَاجِعونَ {156} أُولَـــئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَـــئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ {157}}. {البقرة: 155 – 157}.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله به: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف الله له خير منها]

وقال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله به: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيراً منها إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف الله له خير منها]. (رواه مسلم).

وقد حفظت الصحابية أم سلمة ما يقوله المؤمن إذا أصابته مصيبة، وما لبثت حتى مرض زوجها، ومات، وكان لها خير ما يكون زوج لزوجته، فلما مات قالت: "إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها.... ". ثم تساءلت: "ومن أين لي بخير من أبي سلمة؟ فما انقضت عدتها حتى أتاها النبي محمد صلى الله عليه وسلم خاطباً، وتزوجها، وبذلك أخلف الله لها خيراً مما فقدت، وعوضتها عن أبي سلمة زوجاً خيراً منه.

والصبر الحقيقي يبدأ منذ أن يتلقى الإنسان خبر المصيبة، لا أن يتلقاها بالجزع، والنياحة، والتشكي من قضاء الله وقدره، حتى إذا مضت الأيام، ويئس مما فاته، وسلته نفسه، قال: "أصبر وأحتسب".

فالصبر كما قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم يكون عند الصدمة الأولى.، لذا كان على المؤمن أن يحفظ تلك العبارة الرائعة التي عليه أن يقولها عندما تقع عليه مصيبة، أو عندما يتذكر مصيبة وقعت عليه.... "إنا لله، وإنا إليه راجعون.... اللهم أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيراً منها". وهذه العبارة الرائعة تساعد المؤمن على هضم مصيبته والتصبر عليها وفائدتها لا تقتصر على وقت المصيبة بل تكرارها كلما ذكر الإنسان مصيبته ولو بعد زمن طويل من وقوعها يريح نفسه ويصبره ويواسيه لذا أنصح كل من أصابته مصيبة أن يكررها كلما تذكر مصيبته وأن لا يمل من ترديدها فهي شفاء للنفس من آثار المصيبة

والشعور بالخسارة الفادحة.. وهي ذكر ودعاء يؤجر عليه المؤمن ويجلب له التعويض من الله عما أخذ منه.

والصبر في الإسلام لا يعني الامتناع عن محاولة تغيير ما نزل بالإنسان من مصيبة، ولا يعني التلذذ بالمصائب، وإنما على المؤمن أن يبذل كل جهده في محاولة تغيير ما يقع عليه من مصائب، ولكن بنفس راضية عن الله تعالى، فلا يتذمر، ولا يتشكى، ولا يقول: "ماذا فعلت لله حتى يفعل بي هذا".

وكذلك دون أن يتذمر من الجهد والعناء اللذين عليه أن يبذلهما وهو يسعى إلى تغيير ما يمكنه تغييره من المصيبة، ودون أن يلجأ إلى ما حرم الله، من أجل أن يغير المصيبة، أو الحرمان، اللذين قدرهما الله عليه.

فالفقير الصابر، يسعى إلى الربح وزيادة الدخل، لكن دون أن يسرق، أو أن يغش، والمريض يتداوى، ولكن لا يتداوى بحرام كالخمر مثلاً، وإن كانت الخمر في رأي علماء الدواء والعلاج المعاصرين ليست بدواء على الإطلاق.

الصبر في حقيقته، رضاً عن الله، ورضاً بالموقع الجديد الذي يضعنا الله فيه نتيجة المصيبة التي قدرها علينا، فالتي يموت زوجها، ويترك لها أيتاماً تربيهم، وتصبح بذلك أرملة مسؤولة عن صغارها، ترضى بهذا الدور الجديد في الحياة، وتبذل جهدها في أدائه على أكمل وجه.

الصبر في حقيقته، رضاً عن الله، ورضاً بالموقع الجديد الذي يضعنا الله فيه نتيجة المصيبة التي قدرها علينا

والذي يفقد بصره نهائياً، ويصبح أعمى، يرضى بهذا الدور الجديد في الحياة، ويبذل ما يستطيع لتبقى حياته منتجة في مجالي الدنيا والآخرة، وهكذا.....

إن الصبر هو جوهر التكيف النفسي مع واقع الحياة.، الذي يراه علماء النفس دلالة على النضج، والصحة النفسية، والسبيل إليهما.

الفصل الرابع: الفرح والمرح في القرآن

قال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} يونس58

وقال: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ} القصص76

وقال: {الم{1} غُلِبَتِ الرُّومُ {2} فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ {3} فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ {4} بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ {5} وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {6}} الروم:1-6

وقال: {ذَلِكُم بِمَا كُنتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَمْرَحُونَ {75} ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ {76}} غافر: 75-76

إن الصبر هو جوهر التكيف النفسي مع واقع الحياة.. الذي يراه علماء النفس دلالة على النضج، والصحة النفسية، والسبيل إليهما

في الآية الأولى يدعو الله المؤمنين إلى الفرح وفي الثانية ينهى الصالحون من قوم موسى عن الفرح لأن الله لا يحب الفرحين، ثم في الآية الثالثة يبشر الله المؤمنين أنهم في بضع سنين سيفرحون بنصر الله، لكن في المثال الرابع يقال لمن يدخل النار أنهم يدخلونها لأنهم كانوا في الدنيا يفرحون ويمرحون.

يا ترى ما هو الموقف الصحيح لدين الله من الفرح؟ هل يدعو إليه أم يحرمه ويتوعد عليه؟

يزول الالتباس إذا انتبهنا إلى أن للفرح والمرح معنيان الأول المعنى المعروف لنا جميعاً وهو السرور والبهجة وقرة العين بما يسعدنا ونحبه، أما الثاني فهو الكبر والاختيال والتعالي.

وديننا لا يحرم علينا أن نفرح ونمرح بمعنى أن نشعر بالسرور والغبطة وتقر عيوننا إن فزنا بما نحب من الخير، قال تعالى: {قُلْ بِفَضْلِ اللّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ} يونس58.. إنها دعوة مفتوحة للفرح بفضل الله وبرحمته وهي الفطرة التي فطر الله نفوسنا عليها حيث تفرح كلما فازت بما تحب من الخير، وديننا دين الفطرة. ويجب أن لا يشكل علينا ما ورد عن نبيينا صلى الله عليه وسلم إذ قال: (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً). (رواه البخاري).

وما ورد عنه صلى الله عليه وسلم من دعوة إلى قراءة القرآن بحزن وخشوع فإنما ذلك كان في معرض الموعظة لينبهنا من غفلتنا فلا ننسى ما ينتظرنا من حساب، ولا نقصر في الاستعداد لذلك اليوم بالعمل الصالح، فالنبي

نفسه صلى الله عليه وسلم كان دائم البشر وكان يمازح أصحابه أحياناً، وهو الذي دعا صحابته إلى اللهو المباح في الأعراس والأعياد. إن ديننا دين الفطرة المتوازنة وليس دين الكآبة والأحزان.

إنما يحرم ديننا التعالي والاختيال والتكبر والشعور بالعظمة وبطر الحق وغمط الناس اللذان ينتجان عن الكبر والاختيال على الناس.

ويبقى السؤال عن سر العلاقة بين الفرح والتكبر ولم اشتركا بكلمة واحدة تعبر عنهما. ويزول الاستغراب عندما نتذكر أن من الأمراض النفسية مرض تكون النفس فيه في حالة فرح مفرط لا مبرر له إنما هو ناتج عن اضطراب في النواقل العصبية المسؤولة عن المزاج في المخ يجعله في حالة فرح شديد لا سبب له ولا مبرر من الواقع، وهذا المرض يشكل النقيض للاكتئاب النفسي الذي هو حالة من الحزن والانكسار واليأس لا مبرر لها من الواقع إنما تنتج عن خلل آخر في عمل النواقل العصبية المسؤولة عن المزاج في المخ، أي في الحالتين الخلل كيميائي في المخ يؤدي إلى سيطرة مزاج مرتفع جداً أو منخفض إلى أبعد الحدود بلا مبرر.

> إنه على ما يبدو هنالك قرابة قد تكون فيزيولوجية بين الشعور بالفرح الشديد وبين والشعور بالكبرياء والعظمة، ولعلها السبب أن عبر القرآن الكريم عن الاختيال والتكبر والتعالي بالفرح والمرح وحرمهما بهذا المعنى

والحالة التي يرتفع فيها المزاج ارتفاعه المفرط غير المبرر تسمى في الطب mania وتترجم عندنا في سورية بكلمة الهوس أما في مصر فتسمى المرح. وترجمتها بالمرح أصح عندما يقصد بها اضطراب المزاج الذي نتحدث عنه أما ترجمتها بالهوس فأصح عندما يقصد بها شدة الاهتمام والاندفاع لفكرة أو معتقد ما. وتجتمع في مرض المرح هذا مشاعر البهجة والسعادة والفرح الغامر بلا سبب مع مشاعر العظمة الشديد والخيلاء التي قد تبلغ حد جنون العظمة القائم على أوهام القدرة الفائقة والملكات والمواهب الموهومة بخلاف واقع المريض وقدراته العادية.. إنه على ما يبدو هنالك قرابة قد تكون فيزيولوجية بين الشعور بالفرح الشديد وبين والشعور بالكبرياء والعظمة، ولعلها السبب أن عبر القرآن الكريم عن الاختيال والتكبر والتعالي بالفرح والمرح وحرمهما بهذا المعنى، ونحن نعلم أنه لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر إلا أن يغفره الله له أو يعاقبه عليه قبل أن يدخله الجنة إن كان من أهلها.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يقول الله سبحانه: الكبرياء ردائي والعظمة إزاري، من نازعني واحدا منهما ألقيته في جهنم)). رواه ابن ماجة وأحمد وابن حبان.

ولعلنا الآن أقدر على فهم الآيات التي ذمت الفرح أو المرح لأن المقصود هي الخيلاء والكبرياء.

قال تعالى: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} الإسراء37

وقال: {وَلاَ تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحاً إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً} الإسراء37

لعلنا الآن أقدر على فهم الآيات التي ذمت الفرح أو المرح لأن المقصود هي الخيلاء والكبرياء

وقال: {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } آل عمران 188

وقال: {فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُواْ بِمَا أُوتُواْ أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ } الأنعام 44

وقال: {وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ نَعْمَاء بَعْدَ ضَرَّاء مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ} هود10

وقال: {فَلَمَّا جَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون} غافر83

إنه الفرح المذموم والمرح المحرم لما فيهما من علو في الأرض واستكبار عن اتباع الحق، وهي كبرياء وهمية وعظمة فارغة لا يحق للإنسان ادعاؤها لأنها لا تنبغي إلا لله وحده، أما الإنسان فعليه أن يقنع بمنصب الخلافة عن الله في أرضه، أي السيد فيها بعد الله سبحانه وتعالى، الذي سخر له ما في السماوات والأرض جميعاً منه تبارك وتعالى، وفرض عليه أن يتواضع لعظمة خالقه ويطيع أمره ولا يستكبر عن عبادته، التي بها يعلو قدره ويرتفع مقامه بين الخلائق {... بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} الأنبياء: 26.

القســـــم الثانـــــــي: أثـــــر العقيـــــــدة فـــــــي المشاعــــــــر

(أ) الغيظ والغضب

الفصل الأول:الغيظ انفعال، والغضب فعل إرادي

الغيظ انفعال يقوم في النفس، كرد فعل تلقائي لا إرادي على أذية، أو إهانة، يتصور الإنسان أنها وقعت عليه.

عندما يتعرض الإنسان إلى إساءة أو عدوان يثور في نفسه شعور عدائي انتقامي تجاه من اعتدى عليه، واسم هذا الشعور "الغيظ"، وهو شعور يعبر عنه الإنسان بالغضب الذي يستنفر الجسم من أجل الهجوم على المعتدي والانتقام منه، فتزداد ضربات القلب، ويرتفع ضغط الدم، وتتوسع الحدقتان، وتكون العضلات مشدودة، يتدفق إليها الدم غزيراً، لتكون قادرة على الأداء بقوة.

ويضغط الغيظ عادة على النفس، يريد أن ينفذ ويخرج من عالم الشعور المخبوء بين جوانح النفس إلى عالم السلوك الظاهر من خلال الغضب.

وبحسبة سريعة جداً، يقدر الإنسان ما إذا كان الموقف يسمح لهذا الغيظ أن يتحول إلى سلوك قولي أو فعلي.

أما الغضب فهو سلوك تعبيري، وعدوان بالقول أو الفعل.. وبما أنه سلوك، فإنه يخضع لإرادة الإنسان

فإن كان الموقف يسمح، ظهر الغضب في الملامح ونبرة الصوت، واشتد استنفار الجسم استعداداً لهجوم وشيك.

وإذا كانت العواقب المتوقعة ضمن حدود المقبول، وكان الإنسان مستعداً لتحملها، فإنه يطلق لغضبه العنان، فيرتفع صوته بالصراخ، والتوبيخ، والشتائم، وقد يصل الأمر إلى العنف الجسدي، فيكون الضرب، والإيذاء، وغير ذلك من أساليب العدوان، والانتقام.

أما إن كان في تقدير الإنسان الذي شعر بالغيظ، أن الموقف لا يسمح له بإظهار الغضب، وأن العواقب ستكون وخيمة، وفوق احتماله، فإنه يكظم غيظه، ولا يظهره أبداً .

والغيظ انفعال يقوم في النفس، كرد فعل تلقائي لا إرادي على أذية، أو إهانة، يتصور الإنسان أنها وقعت عليه.

إذاً: فإدراك الإنسان للموقف، ونظرته إليه، هي التي تقرر قيام الغيظ في نفسه،أو عدم قيامه.

وطالما كان الغيظ انفعالاً نفسياَ، فإن رؤية الإنسان للأمور هي التي تحدد مدى تأثره به.

أما الغضب فهو سلوك تعبيري، وعدوان بالقول أو الفعل.. وبما أنه سلوك، فإنه يخضع لإرادة الإنسان.، لذا فإنه عندما أتى رجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقال له: "أوصني"، قال له النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [لا تغضب]. فردد الرجل مراراً، وكان جواب النبي محمد صلى الله عليه وسلم يتكرر: [لا تغضب]. (رواه البخاري).

ولم يقل له "لا تغتظ"، لأنه صلى الله عليه وسلم عندما قال له: [لا تغضب]. كان يدرك بوضوح أن الغضب فعل إرادي، يستطيع الإنسان أن يقوم به، أو أن يمنع نفسه منه، أما الغيظ فانفعال لا إرادي، والرسول محمد صلى الله عليه وسلم دعانا إلى كظمه حين قال:

[من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه دعاه الله سبحانه وتعالى على رؤوس الخلائق يوم القيامة، حتى يخيره من الحور العين ما شاء]. (رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن).

الغيظ يكظم كظماً، أما ضبط النفس والتحكم فيها، فيكون عند الغضب، فالضبط والتحكم مطلوبان في السلوك، قال صلى الله عليه وسلم: [ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب]. (متفق عليه).

وقد نسب الله إلى نفسه الغضب، ولم ينسب الغيظ إليه.، لأن الغيظ انفعال يثور في النفس شاء الإنسان أو أبى، لكن الغضب سلوك إرادي، والإرادي يليق بالله، بينما اللا إرادي لا يليق بجلاله وكماله سبحانه وتعالى.

عندما يكظم المؤمن غيظه، فإنه يحافظ على هدوء نفسه وسكينتها، ولا يظهر للآخرين، حتى لو كانوا مسيئين إليه، لا يظهر لهم أي نوع من العداء والرغبة في الانتقام، وبهذا يبقى السلام والمودة والرحمة، هي المشاعر السائدة في المجتمع المؤمن.

أما الذي يكظم غيظه، فإنه ملك نفسه، ممسك بزمامها، متحكم بها، ولن يكون لديه ما يندم عليه، بل سيغمره الرضا والسرور.، لأنه نجح في أن يسمو بنفسه، وفي أن يكون حليماً ورحيماً، وهذا ما يليق بالمؤمن الذي يهتدي بأنوار الإيمان

التعبير عن الغيظ دون عدوان، أو عنف، لا يتنافى مع كظم الغيظ، الذي دعانا إليه رب العالمين والرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم

فالذي يغضب، قد يقول ما يجرح مشاعر الآخرين جرحاً يطول الزمن، ولا يندمل، والذي يغضب قد يرد الإساءة بإساءة أشد منها، فيظلم إخوانه، ويتحول من مظلوم إلى ظالم، وبعدها يندم حين لا ينفع الندم، أما الذي يكظم غيظه، فإنه ملك نفسه، ممسك بزمامها، متحكم بها، ولن يكون لديه ما يندم عليه، بل سيغمره الرضا والسرور.، لأنه نجح في أن يسمو بنفسه، وفي أن يكون حليماً ورحيماً، وهذا ما يليق بالمؤمن الذي يهتدي بأنوار الإيمان.

كظم الغيظ امتناع عن الغضب، وليس امتناعا عن أن يقول الإنسان لمن أغاظه أنه قد تضايق من فعله أو قوله وأنه اغتاظ منه، وتأثر من سلوكه نحوه

الفصل الثاني: الغضب ثورة تضر ولا تنفع

هنالك اعتقاد خاطئ، وبخاصة عند بعض الغربيين، أن على الإنسان أن يغضب إذا أحس بالغيظ، حتى لا يتراكم غيظه، ويتسبب في اضطراب نفسه.

وهذا الاعتقاد الخاطئ، ربما كان فهماً خاطئاً للنصيحة المتكررة، التي يقدمها المعالجون النفسيون لمرضاهم، بأن يعبروا عن مشاعر الغيظ التي تقوم في نفوسهم تجاه من يرتبطون معهم بعلاقة، ولكن شريطة أن يتم التعبير دون التورط في أي عنف أو عدوان.، إذ الهدف من هذا التعبير عن الغيظ، هو إيصال الأمر إلى الذي تسبب بالغيظ، من أجل ألا يتكرر منه الخطأ، أو من أجل أن يقوم بتصحيح خطئه.

وهذا التعبير عن الغيظ دون عدوان، أو عنف، لا يتنافى مع كظم الغيظ، الذي دعانا إليه رب العالمين والرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم.

لكن كظم الغيظ لا يضر بالنفس أبداً، وكيف يضر والرسول محمد صلى الله عليه وسلم يقول: [من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ملأه الله أمناً وإيماناً].

فكظم الغيظ يعني، ألا نتجاوب مع انفعالنا بسلوك غاضب نلجأ فيه إلى العنف في كلامنا أو أفعالنا، وتفوح العداوة من كلماتنا، وتعبيرات وجوهنا. فكظم الغيظ امتناع عن الغضب، وليس امتناعا عن أن يقول الإنسان لمن أغاظه أنه قد تضايق من فعله أو قوله وأنه اغتاظ منه، وتأثر من سلوكه نحوه.

إن مثل هذا التعبير عن الغيظ هام في التواصل الناجح بين اثنين من أجل المحافظة على العلاقة بينهما في أحسن حال.

لكن كظم الغيظ لا يضر بالنفس أبداً، وكيف يضر والرسول محمد صلى الله عليه وسلم يقول: [من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه ملأه الله أمناً وإيماناً]. (رواه أبو داود).

إنما الحقيقة أن إنفاذ الغيظ، وتحويله إلى غضب ظاهر في تعبيرات الوجه، وفي الأقوال والأفعال، هو الضار بالنفس والبدن، فقد أظهرت الدراسات الطبية الحديثة أن كظم الغيظ أفضل لصحة القلب عند الإنسان، فقد تبين أن الأشخاص الغضوبين، العدائيين، العجولين، يصابون باحتشاء العضلة القلبية، أي: الجلطة القلبية أكثر من غيرهم بكثير.

وقد تم تقديم العلاج النفسي، والمشورة النفسية للكثيرين ممن أصيبوا بالجلطة القلبية، وفيهم هذه الطباع، وذلك من أجل تدريبهم على كظم غيظهم، والإقلال من غضبهم المتكرر، وعدائيتهم تجاه الآخرين، وكذلك الحد من استعجالهم في الحياة اليومية، وذلك لوقايتهم من نوبات قلبية أخرى.

ولعل الرجل الذي أكد عليه الرسول محمد صلى الله عليه وسلم وهو يوصيه بألا يغضب، لعل هذا الصحابي كان من النوع الغضوب الذي ينفجر غاضباً عند كل صغيرة أو كبيرة، ووصية الرسول محمد صلى الله عليه وسلم هذه هي من نوع العلاج النفسي السلوكي.

ذلك أن بعض الناس ينفجر غاضباً عندما لا يحصل على ما يريد، وعندما يريد التحكم بمن حوله كزملائه في العمل، أو أفراد أسرته، ليجعلهم يفعلون له ما يريد، أو ليجعلهم يسكتون عن أخطائه، وإذا ما أذعنوا له، وأعطوه ما يريد تجنباً لغضبه وسورته، كان له في ذلك مكافأة على سلوكه السيء، فيتكرر منه الغضب، لأن غضبه حقق له النتائج التي يرجوها.

أما إن رفض الناس من حوله أن يذعنوا لغضبه، وأن يستسلموا له دون حق، وعاقبوا سلوكه السيء هذا، ولو بمجرد الإهمال، وعدم الاهتمام، فإنه بتكرار المواقف، يتبين له أن غضبه دون حق لا يأتيه بنتيجة، فيقلل منه، أو حتى يقلع عنه.

فالغضب والعدوان عموماً ليس غريزة في الإنسان ترتاح نفسه، ويخف توترها إذا أشبعت، وأعطيت وفق هواها... إنما هو سلوك يزداد إن كوفئ، ويخف إن عوقب.

والغضب ثورة تهز استقرار النفس والبدن، فلا عجب إن تسبب الغضب المتكرر بالجلطة القلبية، أو ارتفاع ضغط الدم، أو بنزيف في الدماغ، فجسم الإنسان: قوته، وعافيته في توازنه واستقراره، وإن تحمل في شبابه نوبات الغضب، فلن يتحملها عندما يتقدم سنه، ويدب الضعف في بنيانه.

أن إنفاذ الغيظ، وتحويله إلى غضب ظاهر في تعبيرات الوجه، وفي الأقوال والأفعال، هو الضار بالنفس والبدن

الغضب والعدوان عموماً ليس غريزة في الإنسان ترتاح نفسه، ويخف توترها إذا أشبعت، وأعطيت وفق هواها... إنما هو سلوك يزداد إن كوفئ، ويخف إن عوقب

فما أجمل أن يتعود المؤمن على كظم الغيظ! فيكون من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً.

الفصل الثالث:اغفر وادفع بالتي هي أحسن

الغضب ثورة تهز استقرار النفس والبدن، فلا عجب إن تسبب الغضب المتكرر بالجلطة القلبية، أو ارتفاع ضغط الدم، أو بنزيف في الدماغ

ليس العدوان غريزة في الإنسان، ولكن الميل إلى الانتقام فطرة في البشر، فإذا ما أحس الإنسان برغبة في الانتقام ممن أساء إليه، فذلك لا يعني أنه إنسان سيء شرير.

إنما الرغبة في الانتقام أمر طبيعي ومتوقع، عندما يتعرض أحدنا لعدوان، أو إساءة، أو ظلم.

والمنتقم من أسماء الله الحسنى، لكن الله عادل، وقد حرم الظلم على نفسه، وجعله بيننا محرماً.،

لذا فإن الله تعالى عندما أذن للمؤمن بالانتقام ممن اعتدى عليه، أكد على ألا يسرف المؤمن في الانتقام، وأوجب عليه العدل في انتقامه، ومع إباحته للانتقام كان الحض المتكرر، والترغيب للمؤمن بالصبر على الأذى والعفو عن المسيئين إليه.

ما أجمل أن يتعود المؤمن على كظم الغيظ! فيكون من عباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا: سلاماً

ومع أن الإسلام يعلي كثيراً من قيمة العفو والصفح، فإنه في الوقت نفسه دين الفطرة، يراعيها بواقعية رائعة، ويراعي رغبة المظلوم في الانتقام لنفسه ممن ظلمه، واعتدى عليه دون حق.

قال تعالى: {... فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ{194}}. (البقرة: 194).

تذكير بالتقوى، وترغيب بها، بأن جعل الله من نفسه نصيراً للمتقين يقف إلى جانبهم، وإذا ما أدرك المؤمن أن الله معه، خفت رغبته في الانتقام حتى لو أحس بالظلم، فما عليه إلا أن يلزم صف المتقين، وعندها يكون الله معه، ويكون منصوراً حتى لو عفا، وصفح، ولم ينتقم.

قال تعالى مؤكداً على العدل في الانتقام، ومرغباً بالصبر: {وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ{126}}. (النحل: 126).

ولنتدبر سوية هذه الآيات الكريمة:

قال تعالى: {فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {36} وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ {37} وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ {38} وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ {39} وَجَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {40} وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ {41} إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُم عَذَابٌ أَلِيمٌ {42} وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ {43}}. (الشورى: 36 – 43).

فبعد كل شيء يبقى الصبر والمغفرة من عزم الأمور، وليس للانتقام هذه المكانة.

إنها ثلاثة أساليب للتعامل مع الغيظ والرغبة في الانتقام المتولدة منه عندما يتعرض المؤمن للإساءة:

الأول: وهو الأقرب إلى الطبع البشري، هو الانتقام والعقوبة، لكن بعدل المؤمن التقي.

الثاني: وهو الأرقى، ويتمثل في الصبر والمغفرة.

الثالث: والذي تتجلى فيه قوة شخصية المؤمن، وقدرته على التحكم بغيره في أروع تجلياتها، وفيه يرتفع سلوك المؤمن عن أن يكون مجرد رد فعل لسلوك الآخرين.

وهذا الأسلوب الثالث للتعامل مع الإساءة، هو الدفع بالتي هي أحسن، أي: الرد على الإساءة بحسنة.... وإذا ما تم ذلك بإخلاص، وكان من القلب، ولم يقم به المؤمن ليقول لمن أساء إليه وذلك بطريقة غير مباشرة.، ليقول له: "أنا خير منك، فها أنا ذا أرد على إساءتك بحسنة"،

إنما يرد بالحسنة، ويدفع بالتي هي أحسن، بصدق، دون أن يهدف إلى الانتقام عن طريق التعالي الخلقي..... إنه بذلك الصدق والإخلاص في الدفع بالتي هي أحسن، ينجح في التأثير بمن أساء إليه، وفي تحويل عداوته إلى مودةٍ وولاءٍ.

أن الإسلام يعلي كثيراً من قيمة العفو والصفح، فإنه في الوقت نفسه دين الفطرة، يراعيها بواقعية رائعة، ويراعي رغبة المظلوم في الانتقام لنفسه ممن ظلمه، واعتدى عليه دون حق

إذا ما أدرك المؤمن أن الله معه، خفت رغبته في الانتقام حتى لو أحس بالظلم، فما عليه إلا أن يلزم صف المتقين، وعندها يكون الله معه، ويكون منصوراً حتى لو عفا، وصفح، ولم ينتقم

قال تعالى: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ {34} وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ {35} }.(فصلت: 34- 35).

الانتقام يشفي النفس من الغيظ، ومما يمكن أن يسببه تراكم الغيظ من مشاعر مزعجة.

والعفو، والصفح، والمغفرة، تقوم بالشيء ذاته.

إنها تطهر القلب، وتشفيه من الغيظ، ولا تدعه يتراكم ليصبح غلاً وحقداً.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلّاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ {10}}. (الحشر: 10).

وإن الثواب العظيم الذي يتوقعه المؤمن من الله تعالى على مغفرته لمن أساء إليه مؤمناً كان المسيء أو كافراً.... هذا الثواب، فيه خير تعويض عن المعاناة التي تسببت بها إساءة المسيء، بل هو الربح الكبير، ولن يخسر من يتاجر مع رب العالمين أبداً.

وعلينا أن نذكر دوماً أننا إن غفرنا لمن أساء إلينا فلن نخسر حقنا في التعويض عن الإساءة إنما نغفر مرضاة لله وهو يعوضنا من فضله ورحمته أكثر بكثير مما يمكننا الحصول عليه ممن أساء إلينا سواء في الدنيا أو الآخرة. ونحن لا نغفر حباً بالذي أساء إلينا إذ كيف نحب من آذانا ونفوسنا مفطورة على حب من يحسن إليها لا من يسيء إليها، إنما نغفر حباً لله ورغبة في ثوابه وبذلك نستطيع أن نفهم دعوة الله لنا أن نغفر حتى للكفار المعاندين الرافضين لهدايته سبحانه وتعالى ولا يمكن أن يدعونا للمغفرة لهم من أحلهم بل من أجلنا، لما للمغفرة من أثر رائع في النفس، قال تعالى: {قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُون أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كَانُوا يَكْسِبُونَ } {الجاثية: 14} والآية واضحة أن مغفرتنا لهم لا تعني أن الله لن يجزيهم على ما اكتسبوا وقد لا تنفعهم مغفرتنا لهم طالما أصروا على كفرهم، لكنها تريحنا من مشاعر الحقد عليهم وتجعلنا أقدر على دعوتهم لدين الحق دعوة من القلب علها تصل إلى قلوبهم الغافلة.

الانتقام يشفي النفس من الغيظ، ومما يمكن أن يسببه تراكم الغيظ من مشاعر مزعجة.
والعفو، والصفح، والمغفرة، تقوم بالشيء ذاته.
إنها تطهر القلب، وتشفيه من الغيظ، ولا تدعه يتراكم ليصبح غلاً وحقداً

وقد دخل مفهوم المغفرة عمن أساء إلينا في العلاج النفسي الحديث لما للمغفرة عن الآخرين من فائدة نفسية علاجية تساعد النفس على تجاوز الأذى الذي أصابها على أيدي الآخرين، ولأن الحقد والرغبة في الانتقام تجعلنا نتوقف عند الإساءة نجترها وتتجدد معاناتنا منها كلما ذكرناها فتطول معاناتنا وقد لا تصل إلى نهاية لها لأن الانتقام الدنيوي ليس ميسوراً للجميع، وهكذا تكون المغفرة للمسيء وإحالة الأمر إلى الله مخرجاً مشرفاً للمظلوم الذي يتجاوز عن الإساءة لا لأنه ضعيف ذليل بل لأنه استجاب للغفور الرحيم فتخلق بأخلاقه سبحانه وتعالى وغفر كما يغفر، والمؤمن المتوكل على الله ليس ضعيفاً وكيف يكون ضعيفاً من يستطيع أن يرفع كفيه ويدعو العزيز القدير أن ينتقم له وهو يعلم أن الله تكفل أن ينصر دعوة المظلوم ولو بعد حين.

إن الثواب العظيم الذي يتوقعه المؤمن من الله تعالى على مغفرته لمن أساء إليه مؤمناً كان المسيء أو كافراً..... هذا الثواب، فيه خير تعويض عن المعاناة التي تسببت بها إساءة المسيء، بل هو الربح الكبير، ولن يخسر من يتاجر مع رب العالمين أبداً

الفصل الرابع:الذي يملك نفسه عند الغضب

الغيظ شعور يقوم بالنفس كرد فعل على ظلم وقع عليها، وكظم الغيظ وحده لا يكفي ليذهب الغيظ، وينمحي من النفس، إذ لا بد للتخلص من الغيظ من الانتقام والعقوبة، أو العفو والمغفرة، فبهما يكون شفاء الصدور من الغيظ المتراكم فيها. لذا فإن الله عندما حث المؤمنين على قتال الكفار الذين يحاربون الإسلام، قال: {قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ {14} وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللّهُ عَلَى مَن يَشَاءُ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {15}}. (التوبة: 14 – 15).

والإنسان يغتاظ عندما يعتدى عليه، ويثور غاضباً في وجه المعتدي، ليحمي نفسه من المزيد من الظلم والعدوان، أو لينتقم لنفسه، لكنه قد يثور، ويغضب لأمر ثالث، وهو الحفاظ على قدره وصورته في عيون الآخرين، وأولهم المعتدي نفسه، إذ يظن الإنسان أنه إن لم يرد على الإساءة بإساءة مثلها، فإنه سيبدو أمام الناس ضعيفاً، وجباناً، وذليلاً. لذا يشعر الإنسان أنه في موقف يضطره إلى أن يغضب، ويثور، ويرد على الشتيمة بمثلها، ويرد على الضرب بضرب أشد منه.

وقد عالج النبي محمد صلى الله عليه وسلم هذا الدافع للعنف والغضب، بأن غير المعيار الذي كان يقاس به الموقف، ونبه إلى المعيار الصحيح، وهو أن الذي

يملك نفسه عند الغضب، فلا يلجأ إلى العنف، ولا يرد على الإساءة بمثلها، هو الإنسان القوي، الشديد، الصرعة.

فليس الشديد هو المصارع الذي يصرع الرجال، ولا يصرعه الرجال، إنما هو ذلك الجبل الشامخ، الذي يدرك أن قدره وكرامته لا يجرحها سفاهة سفيه، ولا إساءة مسيء.

سأل النبي محمد صلى الله عليه وسلم أصحابه يوماً فقال: [فما تعدون الصرعة فيكم؟]. قال راوي الحديث: قلنا: "الذي لا يصرعه الرجال". قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [ليس بذلك، ولكنه الذي يملك نفسه عند الغضب]. (رواه مسلم).

وقال أيضاً: [ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب]. (رواه مسلم والبخاري).

وقد أكد عن أن العفو عمن أساء إلينا لا يزيدنا إلا عزاً، فقال: [ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله]. (رواه مسلم).

وأعطى صلى الله عليه وسلم من نفسه المثل، إذ لم يكن ينتقم لنفسه أبداً، قالت عائشة رضي الله عنها: "ما ضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً قط بيده، ولا امرأة ولا خادماً، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله تعالى". (رواه مسلم). ونيل منه، أي: أوذي.

وحتى لو بدا في صبر المؤمن على إيذاء أخيه له شيء من الذلة، فإن الله تعالى بين أن المؤمن عزيز على الكافرين، وشديد عليهم، لكنه رحيم بالمؤمنين، ذليل لهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ {54}}. (المائدة: 54).

فليست ذلتهم على المؤمنين من ضعف، إذ هم المجاهدون الذين لا يخافون لومة لائم، إنما هي الذلة النابعة من الرحمة.

إنما نغفر حباً لله ورغبة في ثوابه وبذلك نستطيع أن نفهم دعوة الله لنا أن نغفر حتى للكفار المعاندين الرافضين لهدايته سبحانه وتعالى ولا يمكن أن يدعونا للمغفرة لهم من أجلهم بل من أجلنا، لما للمغفرة من أثر رائع في النفس

قال تعالى وهو يوصينا بآبائنا وأمهاتنا إذا بلغوا عندنا الكبر والشيخوخة: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً {24}}. (الإسراء: 24).

والمؤمنون كما وصفهم المولى تعالى، أشداء على الكفار في مواقف الجهاد، رحماء بينهم، وهكذا فلنكن.

أن مغفرتنا لهم لا تعني أن الله لن يجزيهم على ما اكتسبوا وقد لا تنفعهم مغفرتنا لهم طالما أصروا على كفرهم، لكنها تريحنا من مشاعر الحقد عليهم وتجعلنا أقدر على دعوتهم لدين الحق دعوة من القلب علها تصل إلى قلوبهم الغافلة.

الفصل الخامس: فلنحذر سوء الظن

إن مما يدعو إلى الغيظ،أن يشعر الإنسان أن أحداً ما يحاول خداعه والكذب عليه، فيقول في نفسه: لو أنه احترمني، ووقرني، ولم يعتبرني غبياً يسهل خداعي، لما حاول أن يخدعني، ولما كذب علي... وهذا صحيح، إذ من الصعب على الإنسان أن يغش ويخدع، ويكذب على من يكن له الاحترام والتوقير، ولا بد له من أن يحتقره ويستخف به حتى تطاوعه نفسه على خداعه والكذب عليه.

لكن هذا لا ينطبق على الأطفال... فالطفل دون الثانية عشرة من عمره، لا يدرك معنى الاحترام أو الاحتقار بالشكل الذي يدركه الكبار، إذ ما زالت أمثال هذه المفاهيم فوق قدرته على الإدراك، ولهذا فإن الطفل عندما يكذب على الكبير، ويحاول خداعه، لا يفعل ذلك، لأنه يحتقره ويستخف به، إنما هو قد تعلم حيلة وطريقة ينجي بها نفسه من عقوبة متوقعة، أو يحصل بها على ما يريد، فتراه عندما تنجح حيلته، أو تنطلي علينا كذبته، يشعر بالسرور والرضا عن نفسه، لأنه استطاع أن يخدعنا، وهذا يعطيه إحساساً بالاقتدار، وذلك مما يسعده.

لكن الكبير الذي يتعرض إلى خداع الطفل له أو كذبه عليه، إن لم يكن مدركاً لحقيقة أن الطفل ما زال دون مستوى إدراك معاني التبجيل أو الاحتقار، يظن أن طفله يستخف به، ويزدريه، عندما يجرؤ على خداعه، فيغتاظ، ويغضب، ويعاقب الطفل بقسوة، انتقاماً لكرامته التي يتصور أنها أهينت، وقد يبرر قسوته على الطفل بأن الطفل الذي كذب، قد ارتكب حراماً، ويكون غافلاً عن رغبته هو في الثأر للإهانة التي تصور أن الطفل قد ألحقها به.

إن الظن أن الذي يحاول خداعنا دائماً يفعل ذلك استخفافاً بنا ظن مقبول إن كان المخادع بالغاً راشداً، ومع ذلك علينا ألا نحكم بالشك والظن، إنما نأخذ حذرنا

منه، ولا نتعامل معه وكأننا متأكدون من أنه يريد خداعنا، وأنه يستخف بنا، فالمؤمن لا يمشي وراء الظن.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث]. (البخاري).

وإن تبين لنا أن شخصاً ما حاول خداعنا فنحن مدعوون إلى أن نكظم غيظنا، ونعفو عنه، ونحمد الله أنه لم يمكنه من خداعنا، بدل أن نغضب ونثور. ولكن نبقى على حذر من هذا المخادع، فقد قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [لا يلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين]. (رواه مسلم).

ومن الحالات المشابهة التي يتولد فيها الغيظ دفاعاً عن الكرامة ضد إهانة متصورة، حالة الغيظ الذي يولده الشك في قلب الزوجة إن شكت بعدم إخلاص زوجها لها، فتراها مغتاظة لإحساسها أنها مخدوعة، ولخوفها على مكانتها في نظر الآخرين، ولتفكيرها فيما تقوله المرأة الأخرى عنها وهي تنظر إليها على أنها غبية مخدوعة، وكذلك مشاعر الغيظ التي تتولد عند زوج زائد الغيرة، يشك في زوجته.

لكن المؤمن إن تأكد من أن الزوج أو الزوجة واقع في الحرام، يغيظه وقوع من يحب في الحرام والمعصية بالدرجة الأولى، ثم إنه لا يتبع وساوس الشيطان، فيشك دون مبرر قوي، فقد قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [من الغيرة ما يحبُّ اللّه، ومنها ما يبغض اللّه: فأما التي يحبها اللّه عز وجل فالغيرة في الريبة، وأما الغيرة التي يبغضها اللّه فالغيرة في غير ريبةٍ]. (رواه أبو داود وأحمد والبيهقي والنسائي والدارمي).

إن المسلم يحسن الظن بإخوانه دائماً، مع أن في حسن الظن هذا مخاطرة بأن يخدع أحياناً، لكن تعرضه للخداع أحياناً قليلة أرحم وأطهر لقلبه من أن ينظر بالشك والريبة دائماً، ويعتبر الآخرين جميعهم موضع اتهامه، وبالتالي لا يطمئن إليهم، ولا يثق بهم، ولا تتعمق مودته لأحد منهم، وكيف تحب من تخشى غدره وأنت منه دائماً على حذر؟!.

دخل مفهوم المغفرة عمن أساء إلينا في العلاج النفسي الحديث لما للمغفرة عن الآخرين من فائدة نفسية علاجية تساعد النفس على تجاوز الأذى الذي أصابها على أيدي الآخرين، ولأن الحقد والرغبة في الانتقام تجعلنا نتوقف عند الإساءة نجترها وتتجدد معاناتنا منها كلما ذكرناها فتطول معاناتنا

الفصل السادس: حسن الخلق والتحكم في الانفعالات

قال تعالى: {وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْناً وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَاماً{63} }. (الفرقان: 63).

إننا عندما نقرأ هذه الآية الكريمة نكاد نرى السكينة التي تملأ نفوس المؤمنين بأم أعيننا.

إن الإيمان يغير في الشخصية الإنسانية، ويجعلها هينة لينة سهلة، لا تميل إلى العنف والشدة، إلا في مواقف الجهاد في سبيل الله ضد الكفار الذين يحاربون دين الله.

وقد وعد الرسول محمد صلى الله عليه وسلم المؤمن الهين اللين أن يحرم الله عليه النار، قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [ألا أخبركم بمن يحرم على النار -أو بمن تحرم عليه النار؟- تحرم على كل قريب هين لين سهل]. (رواه الترمذي وقال: حديث حسن).

ويقول النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأحد أصحابه: [إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم والأناة]. (رواه مسلم).

وروى ابو داود أن أشج عبد قيس أتى النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: "إن فيك خلتين يحبهما اللّه ورسوله الحلم والأناة" قال: يارسول اللّه! أنا أتخلق بهما أم اللّه جبلني عليهما. قال: "بل اللّه جبلك عليهما" قال: الحمد للّه الذي جبلني على خلتين يحبهما اللّه ورسوله. والدراسات المعاصرة أثبتت أن الوراثة تحدد سمات الشخصية إلى حد بعيد ورسولنا أكد على دور الوراثة في سمات الشخصية قبل علماء عصرنا بقرون لأن الذي علمه ذلك هو الخبير العليم.

إن النفس المؤمنة نفس تتمتع بالسكينة والاستقرار، فلا تهتاج إلا للأمر العظيم، وهي مطمئنة على قدرها ومكانتها عند الله، فلا تشعر بالتهديد لهذا القدر لأتفه الأسباب، كما يحدث لمن يستمد قيمته من نظرة الناس إليه لا من رضا الله عليه.

قال أنس – رضي الله عنه-: "كنت أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، فنظرت إلى صفحة عاتق النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جبذته، ثم قال: "يا محمد! مر لي من مال الله الذي عندك. فالتفت إليه، فضحك، ثم أمر له بعطاء". (متفق عليه).

تكون المغفرة للمسيء وإحالة الأمر إلى الله مخرجاً مشرفاً للمظلوم الذي يتجاوز عن الإساءة لا لأنه ضعيف ذليل بل لأنه استجاب للغفور الرحيم فتخلق بأخلاقه سبحانه وتعالى وغفر كما يغفر

المؤمن المتوكل على الله ليس ضعيفاً وكيف يكون ضعيفاً من يستطيع أن يرفع كفيه ويدعو العزيز القدير أن ينتقم له وهو يعلم أن الله تكفل أن ينصر دعوة المظلوم ولو بعد حين

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [من الغيرة ما يحبُّ اللّه، ومنها ما يبغض اللّه: فأما التي يحبها اللّه عز وجل فالغيرة في الريبة، وأما الغيرة التي يبغضها اللّه فالغيرة في غير ريبةٍ]

إن الأخلاق الحسنة، والتعود على التعامل مع الآخرين باللين والرحمة والرفق تترك أثرها في النفس، حيث تمتلئ النفس طمأنينة وسكينة، فالذي لا يكظم غيظه، بل يثور ويغضب، لا يمكن له أن يحافظ على حسن خلقه، ولا بد له في ثورة غضبه من أن يكون عنيفاً، وقد يظلم ويرد الإساءة بأكثر منها.

لذا كان الحث في الإسلام على الرفق واللين.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله]. (متفق عليه).

وقال أيضاً: [إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه]. (رواه مسلم).

وقال صلى الله عليه وسلم: [إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا ينزع من شيء إلا شأنه]. (رواه مسلم).

وقال أيضاً: [من يحرم الرفق يحرم الخير كله]. (رواه مسلم).

وقد علمنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم طرقاً لتهدئة غضبنا إذا عجزنا عن كظم غيظنا، وهي طرق سلوكية سبقت العلاج النفسي الحديث بأربعة عشر قرناً من الزمان، فقد وجد علم النفس الحديث أن حالة الإنسان الانفعالية تتأثر بحالة جسده من حيث وضعيته، والتعبيرات التي على وجهه، وغير ذلك، فالانفعال النفسي يؤدي إلى تغيير في تعبيرات الوجه، ووضعية الجسم، ثم إن إحساس الإنسان بهذه التغييرات يزيد من الانفعال النفسي الذي ولدها في البداية، وهكذا يقوم الانفعال بتضخيم ذاته حتى يصبح شعوراً قوياً محركاً للإنسان.

إن الإيمان يغير في الشخصية الإنسانية، ويجعلها هينة لينة سهلة، لا تميل إلى العنف والشدة، إلا في مواقف الجهاد في سبيل الله ضد الكفار الذين يحاربون دين الله

وانفعال الغيظ وما يولده من تعبيرات الغضب على الوجه والجسم، ومن استنفار الجسم، وتهيئه للهجوم على الخصم، يزداد بدوره، ويتعاظم نتيجة إدراك الإنسان وإحساسه بحالة تعبيرات وجهه، والتبدلات الغضبية الأخرى في جسمه، وبالتالي فإن أي معاكسة لهذه التغييرات الغضبية في الجسم،وأي اتخاذ لأوضاع متناقضة معها يرسل إيحاءاته إلى النفس، فتعاكس الغيظ والثورة التي فيها، ويهدأ غضب الإنسان.

قال صلى الله عليه وسلم: [وإذا غضب أحدكم فليسكت]. (رواه أحمد).

وقال أيضاً: [إذا غضب أحدكم وهو قائم فليجلس، فإن ذهب عنه الغضب وإلا فليضطجع]. (رواه أبو داود).

وقال صلى الله عليه وسلم: [إن الغضب من الشيطان، وإن الشيطان خلق من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإذا غضب أحدكم فليتوضأ]. (أبو داود) .

وقد استب رجلان عند النبي محمد صلى الله عليه وسلم فجعل أحدهما تحمر عيناه وتنتفخ أوداجه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [إني لأعرف كلمة لو قالها هذا لذهب عنه الذي يجد: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم]. (أبو داود).

لقد جعل الله سبحانه وتعالى للخلق الحسن والصبر والرفق واللين جائزة فورية للمؤمن، وهي سكينة تملأ نفسه، وطمأنينة تملأ قلبه، وعافية في النفس والبدن تزين حياته.

جعل الله سبحانه وتعالى للخلق الحسن والصبر والرفق واللين جائزة فورية للمؤمن، وهي سكينة تملأ نفسه، وطمأنينة تملأ قلبه، وعافية في النفس والبدن تزين حياته

الفصل السابع: الرضا بالقدر والتحذير من "لو"

مثلما يشعر الإنسان بالغيظ من الآخرين الذين أساؤوا إليه، فإنه قد يشعر بالغيظ من نفسه عندما يخطئ في حق نفسه، فيتخذ قراراً خاطئاً يؤدي إلى خسارته لفرصة من الفرص، ثم يندم بعد ذلك عندما يتبين له أن خطأه قد سبب له تلك الخسارة، فيغتاظ من نفسه، ويلومها، وقد يكرهها، وإذا لم يسعفه إيمانه، فإنه يضيف إلى غيظه من نفسه الشعور بالحزن، والاكتئاب على الخسارة التي يتصورها .

وإذا اجتمع الاكتئاب مع الغيظ من النفس كان الإنسان ميالاً إلى إيذاء نفسه عقاباً لها، وتنفيساً عن غيظه.

ولنتأمل حالة فتاة تقدم إليها خاطب فرفضته، فتقدم إلى صديقتها فقبلت به وتزوجته، وعاشت معه سعيدة، ثم مرت السنون، ولم يتقدم إلى الأولى شخص مناسب، فعندها قد تحزن على الفرصة التي أضاعتها، وبخاصة أنها ترى كم هي سعيدة صديقتها معه، فتقول في نفسها: "لو أنني قبلت به، وتزوجته، لكنت الآن سعيدة معه!".

أن الأرزاق ونعم الله في هذه الحياة يقسمها رب العالمين، وأن ما أصابنا ما كان ليخطئنا، وما أخطأنا ما كان ليصيبنا

لكن الإيمان يحمينا من الوقوع في مثل هذه الحال، إلا إن كنا في حالة غفلة عن بعض حقائق هذا الإيمان، وأهمها: أن الأرزاق ونعم الله في هذه الحياة

يقسمها رب العالمين، وأن ما أصابنا ما كان ليخطئنا، وما أخطأنا ما كان ليصبنا. وأن على المؤمن أن يحذر من قولة "لو"، هذه التي تتعارض مع العقيدة الأساسية، بأن ما وصل إلى غيري، فإنه رزق من الله إليه، ما كان ليصل إلي أبداً، لأن الله قد كتبه لغيري ولم يكتبه لي.

قال صلى الله عليه وسلم: [احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان]. (رواه مسلم).

فالإيمان بالقدر خيره وشره من الله يحمي المؤمن من الغيظ من نفسه في مثل هذه المواقف، وإن كان المؤمن كيساً فطناً يتعلم من تجاربه، ويحرص على ألا يقع في الخطأ ذاته مرتين.

ومن جهة أخرى، فإن الإنسان قد يشعر بالغيظ والسخط على رب العالمين، وذلك إذا ما ابتلاه الله بالمصائب، أو قدر عليه رزقه، وضيق عليه في معيشته، وبخاصة إذا نظر هذا الإنسان إلى من أنعم الله عليهم، وآتاهم من فضله من مال أو ولد أو عافية أو جمالأو جاه.

لكن المؤمن لا يسخط على ربه بل يحمده في السراء شكراً على فضله ويحمده في الضراء صبراً على ابتلائه.. فهو من جهة يعلم أن النعم ابتلاء، وأن العطاء من الله لا يعني أنه يحب من أعطاهم أكثر ممن حرمهم.

ومن جهة أخرى، فإن المؤمن يعمل بنصيحة النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فهو إن لفت نظره النعم التي عند غيره، نظر إلى الحرمان الذي فيه آخرون غيره من أجل أن يتذكر نعم الله عليه، إذ مَنْ مِنَ البشر لم يؤته الله نعمة قط؟.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق، فلينظر إلى من هو أسفل منه ممن فضل عليه]. (رواه مسلم).

وقال أيضاً: [انظروا إلى من أسفل منكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله عليكم]. (رواه مسلم).

فالذي يعيش السخط والغيظ لأنه حرم من بعض ما أعطاه الله لغيره، لا يفيده غيظه وسخطه شيئاً، لأن الغيظ لا يجلب له ما حرم منه، وهو فوق ذلك يحرم نفسه من أن يتمتع بما لديه من نعم.

قال صلى الله عليه وسلم: [احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان]

المؤمن لا يسخط على ربه بل يحمده في السراء شكراً على فضله ويحمده في الضراء صبراً على ابتلائه.. فهو من جهة يعلم أن النعم ابتلاء، وأن العطاء من الله لا يعني أنه يحب من أعطاهم أكثر ممن حرمهم

فالساخط الناقم غير سعيد وعاجز عن التمتع، وبالتالي فإنه يضاعف من خسارته، إضافة إلى أنه يخسر رضا الله عنه.

والمؤمن يرضى بما قسم الله له، دون أن يتوانى عن السعي إلى المزيد من الحلال، إنه يعمل بجد من أجل دنياه وآخرته، ونفسه مطمئنة ساكنة راضية.

الفصل الثامن: لعلك ترضى

قال تعالى: فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاء اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى{130}" (طه 130).

والحمد لله، يكون شكراً له على نعمائه، ويكون أيضاً صبراً من المؤمن على بلوائه، وبذلك يلخص الحمد الموقف الإيماني بأكمله وبشقيه اللذين لا يقوم بأحدهما دون الآخر: الصبر والشكر، أما الكافر فساخط عند البلاء وجاحد عند النعماء، ولعل هذا يرينا بعض الحكمة من أن الحمد لله رب العالمين هي أساس في صلاة المؤمن يكررها في كل ركعة.

الحمد لله، يكون شكراً له على نعمائه، ويكون أيضاً صبراً من المؤمن على بلوائه، وبذلك يلخص الحمد الموقف الإيماني بأكمله وبشقيه اللذين لا يقوم بأحدهما دون الآخر: الصبر والشكر

لكننا هنا نريد أن نتدبر ونتفكر في قوله تعالى "لعلك ترضى" على أنها الثمرة المرجوة من التسبيح بحمد الله في الفجر قبل طلوع الشمس، وفي العصر قبل غروبها ومن آناء الليل وأطراف النهار عند الظهيرة والمغرب والعشاء. فالإنسان يتوقع أن يكون الحمد باللسان تعبيراً عن الرضا الذي يعمر به القلب، لكن الآية الكريمة التي تدعو النبي صلى الله عليه وسلم إلى الصبر على ما يزعجه من قول الكفار عنه تدعوه في الوقت ذاته إلى أن يسبح بحمد ربه حتى تمتلئ نفسه رضا، إذ الرضاء جوهر الصبر، وبذلك يكون التسبيح بحمد الله وتكرارنا لقولة "الحمد لله" المرات الكثيرة الكثيرة، يكون سبباً في رضانا عما يقدره الله علينا وما يقدره الله لنا..

أما الآية التالية فتدل على طريقة أخرى كي يرضى ويحافظ على حالة الرضا التي لا سعادة دونها، فتقول: "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه، ورزقُ ربك خير وأبقى" (طه 131).

ونعود إلى التسبيح بحمد الرب وكيف يقود إلى الرضا في نفس المؤمن، الرضا على البلاء "فاصبر على ما يقولون" والرضا على العطاء "ولا تمدن

عينيك.. "، ليس الحمد فحسب بل هو التسبيح بحمده جلَّ في علاه، إنه ليس كلمة واحدة يقولها المؤمن "الحمد لله"، بل هو تسبيح بهذه الكلمة يقولها خلاله المرات الكثيرة، مرات تبلغ العشرات أو حتى المئات، إنها تسبيح بحمده سبحانه وتعالى يلهج به لسان المؤمن ويكرره دون أن يمل من تكراره.. أما كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا غِيْن على قلبه - أي غُطّي عليه- استغفر الله مائة مرة؟ قال صلى الله عليه وسلم: "إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة" (رواه مسلم)، وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال: كنا نَعُدُّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المجلس الواحد مائة مرة "رب اغفر لي وتُبْ عليَّ إنك أنت التواب الرحيم" (رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح) .

إن تكرار العبارات الإيمانية التي تلخص المعاني الكبيرة مثل "الحمد لله" و"استغفر الله وأتوب إليه" و"الله أكبر" و"سبحان الله" و"لا إله إلاّ الله" وغيرها، هذا التكرار مع استشعار معناها عند التلفظ بها يجعل معناها يستقر في القلب، أي في اللاشعور حسب التسمية العلمية المعاصرة، وإذا ما ترسخت في اللاشعور وامتلأ بها القلب صارت قوة دافعة للسلوك وصارت منبعاً للمشاعر والوجدانات الإيمانية التي تملأ حياة المؤمن سعادة وأمناً وسلاماً..

إن تكرار العبارات الإيمانية التي تلخص المعاني الكبيرة مثل "الحمد لله" و"استغفر الله وأتوب إليه" و"الله أكبر" و"سبحان الله" و"لا إله إلاّ الله" وغيرها، هذا التكرار مع استشعار معناها عند التلفظ بها يجعل معناها يستقر في القلب، أي في اللاشعور حسب التسمية العلمية المعاصرة

إن قوله تعالى "لعلك ترضى"، غني بالدلالات التي يمكن للمسلم المعاصر أن يقتبس منها طريقة علاجية تفيد في تغيير المشاعر والوجدانات غير المرغوبة وتفيد في إيجاد مشاعر ووجدانات معينة تكون مطلوبة بحد ذاتها أو لما يمكن أن تولده من دافعية لسلوك نافع يحل محل سلوك ضار اعتادته النفس وصعب عليها الإقلاع عنه.

واللاشعور عند الإنسان يتأثر بالخبرات المتكررة التي بتكرارها تحفر فيه آثـــاراً لا تستطيع الأفكار والقناعات العقلية محوها، وهكذا يكون في تكرار الحمد أو التكبير أو التهليل أو الاستغفار أو غير ذلك، يكون إثارة لمشاعر وخبرات يتذوقها اللاشعور وتتكرر عليه لتحفر فيه آثارها الطيبة الراسخة فتنتقل تلك المعاني من النفس إلى القلب، أي من الشعور إلى اللاشعور فيكون الانسجام والتوافق بينهما وتتوحد النفس الإنسانية في اتجاه واحد فلا ترغب النفس في شيء بينما القلب له رافض فيتركها تتمنى دون أن يكون لها العزم على فعل ما تتمناه، بل هو معها يمدها بالطاقة والدافعية.

(ب) - الحياء والخجل والرياء

الفصل الأول:لا دونية مع الإيمان

إذا ما ترسخت في اللاشعور وامتلأ بها القلب صارت قوة دافعة للسلوك وصارت منبعاً للمشاعر والوجدانات الإيمانية التي تملأ حياة المؤمن سعادة وأمناً وسلاماً..

يشكل الخجل مشكلة كبرى في حياة الكثيرين، وهو بالإضافة إلى أنه مزعج، فإنه معيق لنشاط الإنسان، ويمنعه من أن ينطلق في المجتمع بكل طاقاته.

والخجول إذا ما وجد نفسه محط أنظار الآخرين وبخاصة الغرباء أو أصحاب المكانة في المجتمع أو السلطة، فإنه يرتبك وتنتابه أعراض القلق البدنية، كخفقان القلب، والتعرق الزائد، وارتعاش اليدين، وتهدج الصوت، والتلعثم.

إن الخجل الذي يمنع الإنسان من إثبات ذاته في المجتمع، وفرض حضوره على الآخرين فرضاً طبيعياً لا يكون فيه تجاوز لحقوقهم أو عدوان على حرياتهم، هذا الخجل الذي يعوق الإنسان عن التعبير عن نفسه بحرية، ويمنعه من قولة الحق في وقتها، وقد يمنعه من السعي وراء مصالحه، لأنه بسبب الخجل يميل إلى تجنب لقاء الناس الذين لا يعرفهم أو لم يألفهم من قبل... هذا الشعور الكريه إلى النفس يختلف اختلافاً كلياً من حيث أسبابه ودوافعه وطبيعته عن "الحياء" الذي دعا إليه الإسلام ومدحه النبي محمد صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة.

اللاشعور عند الإنسان يتأثر بالخبرات المتكررة التي بتكرارها تحفر فيه آثـاراً لا تستطيع الأفكار والقناعات العقلية محوها، وهكذا يكون في تكرار الحمد أو التكبير أو التهليل أو الاستغفار أو غير ذلك

والخجل مزعج للنفس إلى حد أن بعض الناس يقع فريسة الإدمان على الخمر أو المخدرات، سعياً وراء الجرأة التي يستشعرها عندما يكون تحت تأثير الخمر والمخدرات، تلك المواد الضارة بالعقل الإنساني، والمدمرة للمجتمع البشري، لكن المؤمن في غنى عن تلك الطرق المؤذية التي يلجأ إليها البعض للتغلب على خجلهم، إذ من أجل منفعة قليلة يخسرون الدين والدنيا والصحة والمال... أما الإيمان فإنه يعالج دواعي الخجل وأسبابه، ويبث في النفس تلك السكينة والطمأنينة التي ينشدها كل إنسان.

ومن أهم أسباب الخجل، الإحساس بالنقص والدونية، حيث يرى الإنسان نفسه أقل من الآخرين، وأحط مكانة وقدراً، وهذا ما يسميه علماء النفس "القَدْر المتدني للنفس"، حيث لا يقدر المرء نفسه حق قدرها، بل يقدرها أقل من قدرها وقيمتها، وقد سماه النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "حَقْر النفس"، وحقر النفس قد يكون لإحساس المرء أنه أقل من الآخرين، بسبب لونه، أو أصله، أو فقره، أو عيب جسدي، أو نقص في جماله، أو ضعف في قوته البدنية، أو مهنته، أو غير ذلك من أسباب.

لكن الإسلام يربي المسلم على أن الناس سواسية كأسنان المشط، وعلى أنه لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، إلا بالتقوى. والذي يَفْضُل بسبب تقواه، لا يتكبر، ولا يستعلي، لأن التكبر والاستعلاء يخرجه من زمرة المتقين.

والإسلام يربي المسلم على قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ{13}}. (الحجرات: 13)، والآية واضحة أن التكريم الزائد للتقي، إنما هو عند الله، أما في المجتمع، فالكرامة موزعة بالتساوي، والناس سواسية كأسنان المشط. فالناس إخوة في الإنسانية، ينحدرون من أب واحد "والناس بنو آدم وآدم من تراب". رواه أحمد.

لذا فالمسلم لا يتكبر على أحد أبداً، حتى ولا على عبد اشتراه بماله، فحتى العبيد قال عنهم النبي محمد صلى الله عليه وسلم: {إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم}. رواه البخاري.

والذي لا يتكبر على من أعطاه الله أقل منه، لا يتصغَّر ولا يحقر نفسه إزاء من أعطاه الله أكثر منه، إذ المؤمن لا يقيس أقدار الناس بحسب ما معهم من مال، أو جاه، أو جمال. إنما الخلق كلهم عيال الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله.

إن الدونية والتكبر وجهان لعملة واحدة، لا يوجد أحدهما دون الآخر. فالذي يتكبر معتزاً بماله، أو جاهه، أو جماله، أو علمه، سيلقى من هو أغنى منه، أو أوجه منه، أو أعلم منه، أو أجمل منه، وعندها سيشعر بالدونية، والحطة، والنقص، وسيحقر نفسه إزاءهم.

إن الخجل، أو خشية الناس، بالمصطلح القرآني والنبوي، لا يليق بالمؤمن، لأن المؤمن لا يحقر نفسه، وكيف يحقرها وهي نفس أكرمها الله بالإيمان، وأحبها وأحبته، ورضي الله عنها ورضيت عنه، وسمع إلى دعائها وندائها، وهو الذي لا ينظر إلى الصور أو الأجسام، إنما ينظر إلى القلوب وما فيها من إيمان.

إن الخجل الذي يمنع الإنسان من إثبات ذاته في المجتمع، وفرض حضوره على الآخرين فرضاً طبيعياً لا يكون فيه تجاوز لحقوقهم أو عدوان على حرياتهم، هذا الخجل الذي يعوق الإنسان عن التعبير عن نفسه بحرية، ويمنعه من قولة الحق في وقتها، وقد يمنعه من السعي وراء مصالحه

الفصل الثاني: حياء لا خشية

لئن كان الخجل وخشية الناس أمراً غير محبب للنفس، فإن الحياء على العكس له مكانة عظيمة في الإسلام، وقد حثنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم عليه كثيراً عندما قال: [إن لكل دين خلقاً، وإن خلق الإسلام الحياء]. (ابن ماجه ومالك). وقال أيضاً: [الحياء لا يأتي إلا بخير]. (متفق عليه)، كما قال: [الحياء خير كله]. (رواه مسلم).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء أي ينهاه عن الحياء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [دعه فإن الحياء من الإيمان]. (متفق عليه).

وقال أيضاً: [الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة، فأفضلها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان]. (متفق عليه).

وقد كان الحياء خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه". (متفق عليه).

وقد وصف النبي محمد صلى الله عليه وسلم رب العالمين بالحياء حين قال: [إن الله تعالى حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين]. (أحمد وأبو داود والترمذي). وروى البخاري في صحيحه عن عن أبي واقد الليثي:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بينما هو جالس في المسجد والناس معه، إذ أقبل ثلاثة نفر، فأقبل إثنان إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذهب واحد، قال: فوقفا على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأما أحدهما: فرأى فرجة في الحلقة فجلس فيها، وأما الآخر: فجلس خلفهم، وأما الثالث فأدبر ذاهبا، فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (ألا أخبركم عن النفر الثلاثة؟ أما أحدهم فأوى إلى الله فآواه الله، وأما الآخر فاستحيا فاستحيا الله منه، وأما الآخر فأعرض فأعرض الله عنه).

من أهم أسباب الخجل، الإحساس بالنقص والدونية، حيث يرى الإنسان نفسه أقل من الآخرين، وأحط مكانة وقدراً، وهذا ما يسميه علماء النفس "القَدْر المتدني للنفس"، حيث لا يقدر المرء نفسه حق قدرها، بل يقدرها أقل من قدرها وقيمتها

وعلى عكس الخجل الذي ينتج عن حقر النفس، والحط من قدرها، وعدم الإحساس بكرامتها وقيمتها، فإن الحياء ينتج عن قدر النفس قدراً عالياً، وعن الإحساس بالكرامة الذاتية، والقيمة الشخصية، إحساساً طبيعياً، لم تحطمه تربية خاطئة، أو تجارب مريرة، في الطفولة أو الكبر.... إن الحيي إنسان مفهومه لنفسه إيجابي، وقدره عند نفسه كبير، وكرامته في نظره عظيمة، يحس بها، ويحرص عليها، ويتجنب كل ما يسيء إليها.

الخجل يقيد الإنسان عن فعل أشياء كثيرة في حضرة الآخرين، لكن الحياء يقيد الإنسان ويمنعه عن فعل ما يحط ويقلل من قدره، وكرامته، ويتنافى مع مفهومه لنفسه، حتى لو كان وحده، لأن المهم كيف يرى هو نفسه، وليس كيف يراها الناس... إنه يحترم نفسه ويقدرها، وبالتالي لا يسمح لنفسه أن يفعل ما لا يليق بها في نظره هو بغض النظر عن رأي الناس، إنه مستقل في حكمه على الأمور، وليس تابعاً للناس يفعل ما يرضون عنه، ويجتنب ما لا يرضون عنه.

والإنسان الفطري السوي إنسان حيي، لأنه خلق خليفة لله في أرضه، وفيه الميل إلى تمثل صفات الخالق في نفسه في حدود ضعفه البشري وإن كان الله حرم عليه الكبرياء والعظمة..وبالتالي فإن كل ما يخالف هذه الصفات يكون فيه حط من كرامة الإنسان، إذ هو يفعل ما لا يليق به كخليفة لله،كرمه الله، وخلقه على صورته.

لذا فالحياء يمنع الإنسان من الكذب، ويمنعه من الظلم، ويمنعه من السرقة، والخيانة،كما يمنعه من البخل والشح، ويمنعه من الحسد واشتهاء ما عند الآخرين.

إن الحياء هو الحاسة القلبية التي تقف رقيباً على الإنسان السوي، لتمنعه من المعاصي، ومن كل ما يخالف مكارم الأخلاق التي بعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليتمها.

وحتى حياء العذراء في خدرها، الذي شبه به الصحابي حياء رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنه نتيجة حرص هذه العذراء حرصاً فطرياً على كرامتها وقدرها... لأن من كرامة المرأة وقدرها، أن تُطلَب ولا تَطْلُبُ، وحتى تصريحها بقبول خاطب لها قد يبدو لها أقرب إلى الطلب والحرص، فتستحي من أن تقف هذا الموقف، فلا تصرح، ويكون إذنها صمتها.

إن الخجل، أو خشية الناس، بالمصطلح القرآني والنبوي، لا يليق بالمؤمن، لأن المؤمن لا يحقر نفسه، وكيف يحقرها وهي نفس أكرمها الله بالإيمان، وأحبها وأحبته، ورضي الله عنها ورضيت عنه، وسمع إلى دعائها وندائها، وهو الذي لا ينظر إلى الصور أو الأجسام، إنما ينظر إلى القلوب وما فيها من إيمان

ومما يتنافى مع كرامة المرأة، أن يُنظر إليها كجسد يسيل له اللُّعاب، ويغض الطرف عن الإنسان الذي فيها، لذا كان ميل المرأة إلى ستر جسدها ميلاً فطرياً سوياً.

لذا كان من أهم ما يميز بائعات الهوى من الناحية النفسية، أنَّ قدرهن عند أنفسهن قليل ومتدنٍ، لذا تطاوعهن أنفسهن على وضع أنفسهن في مواقف لا تليق بالإنسان الكريم.

إن لكل دين خلقاً، وإن خلق الإسلام الحياء

ثم إن الإنسان بفطرته، يستحيي من أن يطلع الآخرون على عوراته الجسدية أو الخلقية، لأنه لا يحب أن يرى الناس منه إلا كل حسن جميل، ولحكمة عظيمة كانت عورات البشر قليلة الجمال، وقد سماها رب العالمين سوءات.. {فَدَلاَّهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَآنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ} الأعراف: 22

{فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى{121}}. (طه: 121).

إن الحيي إنسان مفهومه لنفسه إيجابي، وقدره عند نفسه كبير، وكرامته في نظره عظيمة، يحس بها، ويحرص عليها، ويتجنب كل ما يسيء إليها

إن الحياء يمنع الإنسان من إيذاء الآخرين، وهو الذي يجعل الإنسان يتصرف كإنسان، سواء خاف من عقوبة، أو لم يخف، لذا كان الذي لا يستحي مخيفاً، لأنه قد لا يتورع عن شيء، فهو قد تناسى كرامته وكرامة غيره، فلم يبق لديه ما يخاف عليه: [إنّ مما أدرك الناسُ من كلام النبوة الأولى إذ لم تستح فاصنع ما شئت]. (رواه البخاري).

وروى البخاري أيضاً عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: [اللهُ أحقُّ أن يُستَحيا منه من الناس].

الفصل الثالث: حياء مع جرأة في الحق

إن الحياء خلق الإسلام، لكن الإسلام في الوقت نفسه، دين الجرأة في الحق، ودين التحرر من الخضوع للناس، إنه خروج من عبادة العباد إلى عبادة رب العالمين.

وفي مقابل الحياء، ذلك الخلق السامي الذي يحمي الإنسان من أن يكون شيطاناً مريداً، ووحشاً لا يرحم، كما يحمي المجتمع من أن يكون فيه وحوش آدمية... في مقابل الحياء، هنالك خلق ذميم، ضار، إنه الخجل، وخشية الناس.

في الحياء يحرص المؤمن على ألا يضع نفسه في موقف لا يليق بها، إنه يحافظ على كرامتها، وعلى سموها الخلقي، أما في الخجل، فإن الإنسان يكون مكفوفاً مكبلاً بلا قيد تراه العيون، إنما تكبله قيود المجتمع التي قد تمنعه من فعل ما أمر الله به، وتقوده إلى ما حرم الله... وحتى يتغلب المؤمن على هذه القيود، ويتمتع بحريته في أن يعيش في هذه الحياة بالطريقة التي يؤمن أنها الطريقة السوية للحياة.. حتى يقدر المؤمن على ذلك، يلزمه الجرأة الأدبية، وقوة الشخصية، بحيث لا يخاف في الحق لومة لائم، والخجل الذي يزعج كل من يعاني منه، يشعر به الإنسان كقيد يكبله، بخلاف الحياء الذي يشعر أنه نابع من داخله، ومنسجم مع نفسه.

الخجل يقيد الإنسان عن فعل أشياء كثيرة في حضرة الآخرين، لكن الحياء يقيد الإنسان ويمنعه عن فعل ما يحط ويقلل من قدره، وكرامته، ويتنافى مع مفهومه لنفسه، حتى لو كان وحده، لأن المهم كيف يرى هو نفسه، وليس كيف يراها الناس

فالحياء التزام لا يتنافى مع الحرية، بينما الخجل خشية للناس تعيق الحرية، والحياء ضمير داخلي، أما الخجل، فبمثابة ضمير من خارج النفس لا يراعي مصلحتها، إنما يهدف إلى حماية أعراف يرضاها الأقوياء، لأنها تحقق مصالحهم، أو هي موروثة يقدسها الذين يصرون على اتباع الآباء على حق كانوا أو على ضلال.

والحياء ينبع من إحساس المرء أنه ذو قدر وكرامة، وأن الآخرين بشر لهم قيمة، ويستحقون الاحترام والانتماء إليهم، والحرص ألا نريهم من أنفسنا ما يحط من كرامتنا وقدرنا، ويظهرنا بمظهر الخارج عن القيم، والأخلاق، والمثل الحميدة.

أما الخجل فينبع من إحساس بالدونية والنقص، ومن حقر للنفس بدل قدرها، أو اعتبارها مهينة بدل أن يراها كريمة.

فالذي يرى نفسه أقل من الآخرين قدراً، ويشعر بالدونية تجاههم، يجد في نفسه هيبة لهم، وخشية من لومهم تمنعه من قولة الحق، حتى لو لم يتوقع منها أن يقع عليه أذى ملموس في بدنه، أو ماله، أو عياله، إنما هي خشيته من إغضابهم، ومن إثارة لومهم له، وإنكارهم لفعله أو قوله، مع علمه أنه على الحق.

الحياء يمنع الإنسان من الكذب، ويمنعه من الظلم، ويمنعه من السرقة، والخيانة،كما يمنعه من البخل والشح، ويمنعه من الحسد واشتهاء ما عند الآخرين.

وقد سبق رسول الله صلى الله عليه وسلم علماء النفس، عندما نبه إلى أن السبب الأساس الكامن وراء الخجل هو حقر النفس وخشية الناس، قال صلى الله عليه وسلم لأصحابه ذات مرة: [لا يحقر أحدكم نفسه]. قالوا: "يا رسول الله! كيف يحقر أحدنا نفسه؟". قال: [يرى أمر الله فيه مقال ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة: ما منعك أن تقول في كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول: فإياي كنت أحق أن تخشى]. (رواه ابن ماجه).

وقال صلى الله عليه وسلم: [لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه]. (رواه ابن ماجه).

إن الخجول يخشى من تعييب الناس عليه، وسخريتهم من عيوبه، ونقاط ضعفه، لأنه بالأصل شديد الانتقاد لنفسه، يبحث عما يظنه عيوباً فيها، وتكبر هذه العيوب في نظره، حتى لا يكاد يرى في نفسه إلا تلك العيوب... وهو لذلك يخشى أنه إن فرض نفسه على الناس، وأثار سخطهم، أن يعاقبوه بتفحصهم لعيوبه، والحديث عنها، كما أنه يعيش كالمريب، يخشى أن يقع في مركز الاهتمام، حتى لا يفطن الآخرون إلى عيوبه فتنفضح.

وهذه الخشية من تعييب الناس، ومن أن يتفحصه الآخرون بحثاً عن عيوبه، يغرسها في النفس منذ الطفولة سماع الكبار ينتقدون الناس، ويعيبون عليهم، ويغتابونهم.

الحياء هو الحاسة القلبية التي تقف رقيباً على الإنسان السوي، لتمنعه من المعاصي، ومن كل ما يخالف مكارم الأخلاق التي بعث النبي محمد صلى الله عليه وسلم ليتممها

لكن الإسلام يربي المسلم على الحرية الاجتماعية، أي: على أن يحس بأنه حر في أن يعيش كما يؤمن، دون أن يهتم بلوم الناس وسخطهم، طالما أنه لم يظلمهم، ولم يفعل منكراً حرمه الله.

وقد كان الرسل قدوة للمؤمنين في ذلك، قال تعالى: {الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً{39}}. (الأحزاب: 39).

الفصل الرابع:آداب تقضي على الخجل والخشية

لقد عمل الإسلام على القضاء على الخجل، أو خشية الناس عند المسلم بطرائق عدة، لعل أهمها: أنه يسعى إلى مجتمع تربط المودة والرحمة بين أفراده، وبالتالي ينظر الواحد منهم بعين الرحمة والحب إلى عيوب أخيه، فيلتمس له الأعذار، ويستر ما يرى منها، ولا يلمز، ولا يسخر، ولا يغتاب، ولا يلقب الألقاب الكريهة.

والستر مطلوب بين المسلمين، ليس للعيوب فحسب، بل وحتى للمعاصي والذنوب. وقد قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم مخاطباً بعض من أسلم بلسانه من المنافقين، الذين كانوا يغتابون المؤمنين ويعيرونهم.. عن ابن عمر قال: (صعد رسول الله صلى الله عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع قال: يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الإيمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عــوراتهم فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله) {رواه الترمذي}.

مما يتنافى مع كرامة المرأة، أن يُنظر إليها كجسد يسيل له اللُّعاب، ويغض الطرف عن الإنسان الذي فيها، لذا كان ميل المرأة إلى ستر جسدها ميلاً فطرياً سوياً

وقال أيضاً: [لا يستر عبد عبداً في الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة]. (رواه مسلم).

وقال: [ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة]. (رواه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذي وابن ماجه).

وإن هذا يملأ المؤمن طمأنينة إلى أن باقي المؤمنين لن يغتابوه، وإذا رأوا شيئاً من عيوبه أو ذنوبه سيسترونه، وبالتالي لا داعي للعيش في خشية من الناس، ورهبة.

كما حرم الإسلام الفخر، لأن الذي يفخر على الناس بشيء، إنما يحط من قدر من لا يملكون هذا الشيء، وبالتالي يساهم في إشعارهم بالنقص والدونية.

الحياء التزام لا يتنافى مع الحرية، بينما الخجل خشية للناس تعيق الحرية

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [.... وأن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد، ولا يبغي أحد على أحد]. (رواه مسلم).

ومن جهة أخرى فإن من طرق علاج الخجل السلوكية الحديثة: تدريب الخجول على التحدث إلى الناس ومخاطبتهم. إذ بالتدرج تخف خشيته لنظراتهم، ويستشعر قدراً من الراحة والطمأنينة بينهم.

والإسلام شجع كثيراً على البدء بالتحية والسلام، كما جعل رد التحية فرضاً.. قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً{86}}. (النساء: 86).

وسأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أي الإسلام خير؟". قال: [تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف]. (متفق عليه).

كما قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم]. (رواه مسلم).

وحتى الأولاد، يمر المسلم بهم في طريقه فيسلم عليهم،كما كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يسلم عليهم إذا مر بهم، فعن أنس –رضي الله عنه– أنه مر على صبيان، فسلم عليهم، وقال: "كان النبي محمد صلى الله عليه وسلم يفعله". (متفق عليه).

وسلام الكبار على الصغير إذا مروا به يرفع من قدره عند نفسه، ويحميه من أن يحقر نفسه، ومن أن يراها دون الآخرين، ومن أن يعيش عقدة نقص ودونية، وهذا يشكل وقاية له من أن يصبح شخصاً خجولاً هياباً للناس، كما أن الذي يسلم على الآخرين من عرف منهم ومن لم يعرف، ويتلقى منهم السلام تلو السلام منذ صباه، لا بد سيشعر أنهم يحملون الحب له، وأنهم لا يبحثون عن عيوبه، وبكثرة السلام بينه وبينهم، لا يبقى في نفسه لهم هيبة أو رهبة تمنعه من قولة الحق في حضورهم.

ولئن كان علاج الخجل عادة يعتمد على تشجيع الخجول على فرض نفسه، وتوكيدها بين الناس بروح فيها شيء من العداء والصراع، فإن الإسلام يغني المؤمن عن هذه الروح، فهو يعيش بين أناس شدتهم على أعدائهم، ورحمتهم بينهم، وهم أذلة على بعضهم بعضاً.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{54}}. (المائدة: 54).

والخجول ذو الطبع الحساس، عندما يعيش بين الرحماء، وبين الذين يخفضون له جناح الذل من الرحمة، ويخبئون عزتهم وشدتهم، ليظهروها للكافرين في مواقف الجهاد، هذا الخجول الحساس، سينسى خجله وحساسيته بين أناس كهؤلاء، وسيمتلئ سكينة وطمأنينة في حضورهم، لا هيبة ورهبة.

الحياء ضمير داخلي، أما الخجل، فبمثابة ضمير من خارج النفس لا يراعي مصلحتها، إنما يهدف إلى حماية أعراف يرضاها الأقوياء، لأنها تحقق مصالحهم، أو هي موروثة يقدسها الذين يصرون على اتباع الآباء على حق كانوا أو على ضلال.

الحياء ينبع من إحساس المرء أنه ذو قدر وكرامة، وأن الآخرين بشر لهم قيمة، ويستحقون الاحترام والانتماء إليهم

الفصل الخامس:خلق الإسلام الحياء

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: [إن لكل دين خلقاً، وإن خلق الإسلام الحياء]. (رواه ابن ماجه ومالك).

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم، وخلق فيه من الآليات النفسية والمشاعر والدوافع ما يعينه على أن يكون خليفة في الأرض صالحاً تقياً، بحيث لا يشعر أن تقوى الله، واجتناب حرامه تعاكس فطرته، بل الإيمان وما يتبعه من عمل صالح هو الفطرة التي تنسجم النفس فيها مع ذاتها، فلا تتناقض، ولا تتصارع. ومن المشاعر التي تعين المؤمن على العمل الصالح: الحياء.

والحياء الذي يدعو إليه الإسلام، يختلف عن الخجل وهيبة الناس، الذي يعيق الإنسان عن العمل الصالح، إن كان هذا الإنسان يعيش بين أناس لا يحبون هذا العمل الصالح، ففي المجتمع المنحرف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، تصبح العفة رذيلة، فيخجل الإنسان الضعيف، وتمنعه خشية الناس من أن يكون حيياً، عفيفاً، متطهراً، فيكون الخجل مانعاً من الحياء، وهذا يرينا كيف أنهما مختلفان.

الخجل فينبع من إحساس بالدونية والنقص، ومن حقر للنفس بدل قدرها، أو اعتبارها مهينة بدل أن يراها كريمة

فالحياء في حقيقته، خوف على صورة الإنسان، ونظرته إلى نفسه، من أن تتشوه في عينيه هو، أو عند الخالق تعالى.

إن الإنسان الذي يحس بكرامته، ويحس بحضور خالقه، ويحترم الناس، ولا يتكبر عليهم، هذا الإنسان يصبح حريصاً على ألا يفعل ما يجعله دون المستوى الراقي الذي يريده لنفسه، ويصبح حريصاً على ألا يرى نفسه واقعة فيما يحط من قدرها وكرامتها، ويجعلها دون المثال الذي يسعى إليه، ويصبح حريصاً ألا يراه الله حيث نهاه، وألا يراه الناس واقعاً فيما يراه هو رذيلة أو نقيصة، إنه يكرم نفسه، فينأى بها عما يشوه صورتها لديه، أو لدى الناس، أو عند الله. إنه يحرص على صورته لدى الناس لكن وفق المعايير التي يؤمن هو بها لا التي يحاول الناس فرضها عليه، وهو يحرص ألا يكون متناقضاً مع نفسه يدعو إلى خلق ويقع فيما يخالفه، هو ليس خاضعاً لأعراف مفروضة عليه تخالف معتقداته، بل هو صاحب القول الذي يحدد ما الذي يريده لنفسه والذي يليق به من سلوك، فتجتمع فيه الحرية والانضباط الذاتي في آن واحد.

قال صلى الله عليه وسلم: [لا يمنعن رجلاً هيبة الناس أن يقول الحق إذا علمه]

لذا ترى الحيي إذا واجهه موقف فيه تهديد لقدر نفسه، وفيه خطر الوقوف في موقف يتنافى مع كرامة نفسه، ومع الصورة المثالية التي يسعى أن تكون نفسه على منوالها، إذا وجد نفسه في موقف كهذا احمر وجهه، وانتابه من الأحاسيس ما ينتاب القلق من سرعة في ضربات القلب، وارتعاش وتعرق وغير ذلك، وإذا ما وقع فيما يراه رذيلة، نظر إلى نفسه بازدراء، وإذا اطلع الناس على خطيئته، أحس أنه فقد احترامهم وتقديرهم، وأنه لا قدر له، ولا قيمة... إنه وقع في خطيئة، هو مؤمن أنه على الإنسان الكريم ألا يقع فيها. لذا تراه هو الحاكم على نفسه، بأنه بخطيئته صار أقل قدراً وأقل كرامة.

إن ما يجعله يحس بالخزي، ليس الخوف من الناس، إنما هو وقوعه فيما يعيب صورته، ويشوهها عند نفسه.

إن الحياء يشكل حاسة حارسة للقيم ومكارم الأخلاق، التي يؤمن بها الإنسان، والمؤمن هو أشد الناس إيماناً بمكارم الأخلاق، والمؤمن يؤمن بالقيم التي يدعو إليها إيماناً حقيقياً. لذا كان الحياء خلق الإسلام، ونسبه النبي محمد صلى الله عليه وسلم إلى الله تعالى عندما قال: [إن الله تعالى حيي كريم يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفراً خائبتين]. (رواه أحمد وأبو داود والترمذي).

وقال صلى الله عليه وسلم: [الحياء خير كله]. (رواه مسلم).

وقال أيضاً: [الحياء لا يأتي إلا بخير]. (متفق عليه).

وعن ابن عمر –رضي الله عنهما– أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر على رجل من الأنصار وهو يعظ أخاه في الحياء، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:[دعه فإن الحياء من الإيمان]. (متفق عليه).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة لنا في حيائه، قال أبو سعيد الخدري –رضي الله عنه–: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئاً يكرهه عرفناه في وجهه]. (متفق عليه).

ولما كان الحياء هو الناهي النفسي عن مخالفة الأخلاق والقيم، كان من أهم ما يميز الشخصية السيكوباثية الفاسدة: غياب الحياء، لأنه لا يؤمن بالقيم ومكارم الأخلاق ولا يرى أن عليه مراعاتها، بل يرى متعته ومصلحته الشخصية فوق كل

كما حرم الإسلام الفخر، لأن الذي يفخر على الناس بشيء، إنما يحط من قدر من لا يملكون هذا الشيء، وبالتالي يساهم في إشعارهم بالنقص والدونية.

الحياء الذي يدعو إليه الإسلام، يختلف عن الخجل وهيبة الناس، الذي يعيق الإنسان عن العمل الصالح، إن كان هذا الإنسان يعيش بين أناس لا يحبون هذا العمل الصالح

اعتبار وفي سبيلها يستبيح أي شيء،كما إنه ليس لديه أي احترام أو تقدير للناس، لذا لا يأخذ نظرتهم إليه بالحسبان لأنهم بالنسبة إليه ليسوا إلا أدوات لتحقيق رغباته وشهواته.

إنه لا يتورع عن أية رذيلة في سبيل إشباع شهواته، وقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما قال عن هؤلاء الأشخاص المتمردين: [إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاصنع ما شئت]. (رواه البخاري).

وخلاصة القول: إن الحياء يولد من اجتماع احترامين: احترام الإنسان لذاته واحترامه للآخرين، فإن غاب أي من هذين الاحترامين غاب الحياء، والحياء جوهر الحياة الخلقية، التي تميز الإنسان عن الحيوان، فإن غاب الحياء من إنسان، صار وحشاً في إهاب البشر.

والذي لا يستحي، يجب الحذر من القرب منه، والتعامل معه، لأنه دون الحياء لن يتورع عن أي فعل إلا خوفاً من أن تناله العقوبة الفورية المؤكدة، فإن أمن هذه العقوبة، أو تصور أنه سينجو منها، فإنه لن يمنعه شيء من الانسياق وراء هواه، ولو كان ذلك على حساب الآخرين.

في المجتمع المنحرف عن فطرة الله التي فطر الناس عليها، تصبح العفة رذيلة، فيخجل الإنسان الضعيف، وتمنعه خشية الناس من أن يكون حيياً، عفيفاً، متطهراً، فيكون الخجل مانعاً من الحياء

الفصل السادس: حياء لا رياء

عندما ينشأ الإنسان على الإيمان بالقيم وتقدير ذاته واحترام الآخرين، فإنه يحرص بشكل طبيعي على ألا يرى الناس منه عيباً أو نقيصة، أو عملاً يتنافى مع القيم التي يؤمن بها، ذلك أن احترامه للناس يجعله حريصاً على أن يكون رأيهم فيه حسناً.. لذا سمي كل ما يحرص الإنسان على ستره عن أعين الناس عورة. لأن ظهوره لهم، يشوه صورة الإنسان في أعينهم، وهذا الحرص على صورة الإنسان في عيون الآخرين الناتج عن احترام الإنسان للآخرين، وليس عن رغبته في التأثير فيهم وخداعهم، هذا الحرص مع احترامه لذاته وحرصه على أن لا يهينها يدعوه إلى الحياء الذي ينظم سلوكه وفق معتقداته، والحياء من الإيمان.

الحياء في حقيقته، خوف على صورة الإنسان، ونظرته إلى نفسه، من أن تتشوه في عينيه هو، أو عند الخالق تعالى

لكن الإنسان قد يتجاوز تجنب ما يشين ويعيب، إلى جعل الغاية وراء ما يقوم به من أعمال، هي أن يؤثر في الناس، وأن يجعلهم يرونه على صورة حسنة رائعة، لا لأنه يؤمن أنه هكذا، يجب أن يكون، إنما لأنه يعرف أن الناس يؤمنون أنه هكذا يجب أن يكون.

الحيي ينطلق في حمايته لصورته لدى الآخرين، من إيمانه هو بالقيم، وحبه لها، أما الآخر –المرائي– فينطلق مما يؤمن به الآخرون، ويعجبون به.. إنه يريد نيل إعجابهم ليتمتع به، وبمديحهم له، وتعظيمهم وتبجيلهم له، أو حتى تقديمهم له، ليكون إماماً لهم، يدبر شؤون حياتهم، ويتحكم فيها.

إنه لا ينطلق من إيمانه بالقيم، ولا من احترامه للناس، بل على العكس، إنه لا يؤمن بالقيم الإيمان الكافي، لأنه عندما يحاول التأثير في الآخرين وخداعهم، وإثارة إعجابهم به، يناقض القيم والأخلاق، وهو عندما يفعل ذلك لا ينطلق من احترام الآخرين، بل من استخفافه بهم، لأنه يكذب عليهم، ويوهمهم أنه فيه من الصفات ما ليس فيه.

إن الحياء يشكل حاسة حارسة للقيم ومكارم الأخلاق، التي يؤمن بها الإنسان، والمؤمن هو أشد الناس إيماناً بمكارم الأخلاق، والمؤمن يؤمن بالقيم التي يدعو إليها إيماناً حقيقياً. لذا كان الحياء خلق الإسلام

ومع أن المرائي في أعماقه متكبر لا يحترم الناس، لكنه في الوقت نفسه يقع في العبودية للناس، إذ يبذل وسعه من أجل الفوز بإعجابهم ورضاهم، فهو كلما هم بعمل يقوم به، فكر بالذي سيقوله الناس، وبالأثر الذي سيتركه عمله في نفوسهم، فتراه يضطر إلى ترك عمل ما يريد ويحب، لأن الناس قد يقولون فيه، ويضطر إلى عمل ما لا يريد وما لا يحب، لأن ذلك يرضي الناس، ويجلب ثناءهم وإعجابهم.

والناس لا ينطلقون دائماً في أحكامهم من مكارم الأخلاق، ومن القيم السامية، إنما قد تكون هنالك قيم خاطئة سائدة بينهم، فلا يثنون ولا يعجبون بمن يخالفها، وهكذا يكون المرائي مستخفاً بالناس، وعبداً لهم في آن واحد.

ويكون المخلص لله، الذي يعمل ما يعمل، وهو يراقب الله، ولا يراقب سواه، يكون هذا الذي أخلص عبوديته لله حراً بين الناس، وسيداً حقيقياً، ويجمع بين احترامه للناس، واستقلاله عنهم، ولا يكون حياؤه منهم عن ضعف أو هيبة لهم، إنما عن إيمان منه بالقيم ومكارم الأخلاق، وعن حرص منه على أن يكرم نفسه وألا يهينها، بأن يترك عورة له من أي نوع بادية للآخرين.

وحتى يحمينا الله من العبودية للآخرين، حرم الرياء وتوعد عليه...وتوعد الذين يتعالون، ويختالون على الناس تباهياً بأفعالهم، ويحبون أن يثني عليهم الناس، بما ليس فيهم حقيقة.

قال تعالى: {لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلاَ تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ{188}}. (آل عمران: 188). والفرح هنا هو الاختيال والفخر والتعالي على الناس لا مجرد السرور وقرة العين.

وقال صلى الله عليه وسلم: [إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم]. (رواه مسلم).

وإن النار تسعر يوم القيامة بثلاثة: شهيد وعالم ومحسن، ذلك أنهم فعلوا ما فعلوا، ابتغاء مديح الناس وثنائهم، لا ابتغاء مرضاة الله.

قال صلى الله عليه وسلم: [إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد فأتي به، فعرفه نعمه فعرفها، قال: "فما عملت فيها؟" قال: "قاتلت فيك حتى استشهدت". قال: "كذبت ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل"، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال: "فما عملت فيها؟"، قال: "تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن". قال: "كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال هو قارئ، فقد قيل"، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: "فما عملت فيها؟"، قال: "ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك"، قال: "كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل"، ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار". (رواه مسلم).

إذاً ليس المهم أن يقاتل الرجل في صف المؤمنين، أو أن يفني عمره وهو يقرأ العلم والقرآن، ويعلمه للناس، أو أن ينفق على الفقراء والمحتاجين.. المهم قبل ذلك أن يفعل ذلك لله لا لينال إعجاب الناس وثناءهم، وليصبح مشهوراً بينهم بصفة يحبونها، فيبجلونه من أجلها، وهم يحسبون أنه مجاهد مخلص، أو عالم مخلص، أو محسن مخلص.

إن الله ليس في حاجة إلى مالنا، ولا إلى جهدنا، أو دمائنا، إنما يريد أن يزكينا بالتقوى تمتلئ بها قلوبنا. قال تعالى عما يذبحه الحجاج من أنعام: {لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ ...{37}}. (الحج: 37).

من أهم ما يميز الشخصية السيكوباثية الفاسدة: غياب الحياء، لأنه لا يؤمن بالقيم ومكارم الأخلاق ولا يرى أن عليه مراعاتها، بل يرى متعته ومصلحته الشخصية فوق كل اعتبار وفي سبيلها يستبيح أي شيء،كما إنه ليس لديه أي احترام أو تقدير للناس

(ج) - الموقف من الآخرين

الفصل الأول: الحب تلك العبادة المنسية

لقد جعل الله في دينه كل ما يلزم، ليكون مجتمع المؤمنين مجتمعاً متماسكاً، بحيث يكون مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى.

ولا يكون مجتمع المؤمنين متماسكاً، كما تتماسك خلايا الجسد، بحيث تشكل جسداً حياً واحداً، يشعر كل جزء فيه بما يصيب الجزء الآخر، لا يكون كذلك، إلا من خلال شبكة قوية من العلاقات الاجتماعية تربط بين أفراده، ولن تكون هذه العلاقات قوية حقاً إلا إن تألفت من المودة والرحمة.

والإسلام بحق دين الحب، فالحب بين المؤمن وخالقه حب متبادل، والحب بين المؤمن والمؤمن عبادة ثوابها عظيم...

إنها عبادة منسية إلى حد كبير، وعندما يغفل عنها المؤمنون، ينالهم الجزاء على الفور، إذ تتفكك الأواصر فيما بينهم، ويصبح الإنسان وحيداً يحس بالوحشة وهو بين أمه، وأبيه، وزوجته، وأخيه.

إن وحدة الإنسان وعزلته، نتيجة لازمة لفرديته، ولكونه كائناً ذا كينونة وذاتية مستقلة عن المخلوقات الأخرى.

إن لهذه الفردية والاستقلالية ثمنها من الإحساس بالعزلة والوحدة، لكن المؤمن يتمتع بتلك الفردية والاستقلالية، ثم يحتمي من الإحساس بالوحشة والعزلة بالعيش في معية الله، وفي الحب الذي يكون بينه وبين خالقه، وكذلك في صحبة المؤمنين الآخرين من أهل وجيران وأصدقاء، وبالحب المتبادل الذي يكون بينه وبينهم.

والحب لا يكون حقيقياً، ولا يكون قادراً على تخليص الإنسان من إحساسه بالوحدة والوحشة في هذا الوجود، إلا عندما يكون حباً منزهاً عن الغرض والمصلحة والاحتياج، أي: عندما يكون حباً في الله.

لذلك كان الذي يحب الآخرين في الله ممن يجدون حلاوة الإيمان، كما قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

إن الحياء يولد من اجتماع احترامين: احترام الإنسان لذاته واحترامه للآخرين، فإن غاب أي من هذين الاحترامين غاب الحياء،

الحياء جوهر الحياة الخلقية، التي تميز الإنسان عن الحيوان، فإن غاب الحياء من إنسان، صار وحشاً في إهاب البشر.

الحبيي ينطلق في حمايته لصورته لدى الآخرين، من إيمانه هو بالقيم، وحبه لها، أما الآخر -المرائي- فينطلق مما يؤمن به الآخرون، ويعجبون به.. إنه يريد نيل إعجابهم ليتمتع به، وبمديحهم له، وتعظيمهم وتبجيلهم له

إن في الحب المجرد عن الغرض، أي: الحب في الله، راحة نفسية، وسعادة للمحب قبل المحبوب، وقد جعله الله عبادة عليها الأجر العظيم، فعن أبي هريرة – رضي الله عنه– عن النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكاً، فلما أتى عليه قال: أين تريد؟ قال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله تعالى. قال: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه". (رواه مسلم).

وقال صلى الله عليه وسلم: [سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل، وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد، ورجلان تحابا في الله، اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل دعته امرأة ذات حسن وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه]. (متفق عليه).

وقال صلى الله عليه وسلم: [إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي، اليوم أظلهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي]. (رواه مسلم).

ولن يكون في القلب مكان للحب، إلا إذا نقى المؤمن قلبه من مشاعر العداوة والحسد والكبر والتعالي، إذ لا حب بلا احترام وتقبل.

وقبل الحب مرحلة تمهد له، وهي أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك، ثم أن تغفر له إن أساء، وأن تتوقف عن النظر إليه من ناحية المنفعة التي تأتيك منه، فالحب في الله هو الحب المجرد عن الغرض، إنه حب لذات الشخص، بغض النظر عن أية منفعة تتوقعها منه، أما من قدم إليك معروفاً فأحببته، فإن حبك له يكون نابعاً عن شكرك له، ويبقى حباً في الله مجرداً عن الغرض، طالما أنك لا تحبه من أجل أن تحصل منه على المزيد، فصدور حبك له عن عرفانك بجميله، لا يعيق أن يكون حبك له مجرداً عن الغرض، طالما أنك تنظر إليه نظرة كلية، فترى فيه الإنسان الذي تحترم وتحب وتحرص على منفعته، مثلما تحرص على منفعتك الشخصية، ولا تنظر إليه نظرة جزئية، فترى منه الجزء الذي يحقق رغباتك، وعندها يكون في نظرك أقرب إلى أداة تحقق لك أغراضك، وبالتالي لا يكون احترامك له حقيقياً، إذ كيف تحترم من تنوي استخدامه لأغراضك؟!.

أن المرائي في أعماقه متكبر لا يحترم الناس، لكنه في الوقت نفسه يقع في العبودية للناس، إذ يبذل وسعه من أجل الفوز بإعجابهم ورضاهم

الحب المجرد عن الغرض، هو الحب في الله، طالما صدر عن قلب مؤمن، وهو عبادة تقطف ثمرتها يوم القيامة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [قال الله عز وجل: {المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء}]. (رواه الترمذي وقال: حسن صحيح).

الفصل الثاني: الغيبة بلاء على قائلها

إن الغيبة كما عرفها النبي محمد صلى الله عليه وسلم هي: أن يذكر الإنسان إنساناً آخر بما يكره، أي: أن يتحدث عنه بما لو سمعه لتضايق واستاء، ولا يغير في الأمر شيئاً أن يكون في هذا الإنسان من العيوب ما يقال عنه، فإن الذي يذكر أحداً بعيوب هي فيه، يكون قد اغتابه، أما إن نسب إليه من العيوب والأفعال القبيحة ما ليس فيه فقد بهته، والبهتان أقبح من الغيبة.

وقد حرم الله الغيبة، وشبهها بأكل لحم الآخرين وهم أموات، قال تعالى: {... وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ{12}}.(الحجرات: 12).

والاستماع إلى الغيبة مشاركة فيها. لذا حثنا النبي محمد صلى الله عليه وسلم على أن نرد عن أعراض إخواننا إن اغتابهم أحد أمامنا. قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي: {من رد عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة}.

ولعل في تشبيه المولى عز وجل للغيبة بأكل لحم بشر ميت، إشارة إلى أثارها السلبية في نفس مرتكبها وقائلها، فمع أنه يظن أنه يقوي، ويغذي نفسه بها، كما يتقوى ويتغذى آكل اللحم، لكنه يأكل من جيفة بشرية، ويتمتع بوجبة ضارة مقرفة!.

فالذي يغتاب الآخرين يغتابهم لينفس عن عدائه، وحسده لهم، ويغتابهم ليشعر بالتعالي عليهم، طالما أنهم فيهم من العيوب ما ليس فيه، وهو يغتابهم ليحسن صورته في عيون المستمعين إليه، لأن من يستمع إلى قوله يستنتج خلوه من هذه العيوب التي يذكرها في أخيه المؤمن، إذ من المستبعد جداً أن يتحدث الإنسان عن عيوب الآخرين إن كان يعاني من مثلها.

إن النار تسعر يوم القيامة بثلاثة: شهيد وعالم ومحسن، ذلك أنهم فعلوا ما فعلوا، ابتغاء مديح الناس وثنائهم، لا ابتغاء مرضاة الله

الإسلام بحق دين الحب، فالحب بين المؤمن وخالقه حب متبادل، والحب بين المؤمن والمؤمن عبادة ثوابها عظيم...

وإن كان علم النفس الحديث، قد بين أن الإنسان قد ينسب إلى الآخرين ما فيه من مشاعر، ورغبات لا يريد أن يراها في نفسه، فينكر وجودها فيه إنكاراً نفسياً يجعله أعمى عنها، وينسبها إلى غيره، وهذه آلية الإسقاط النفسي التي يقع فيها الإنسان دون أن يشعر، وعن طريق هذه الآلية والحيلة النفسية يقع على من يغتاب الآخرين بعض الجزاء والعقوبة على فعلته، لأنه يدرك في أعماق نفسه أن الغيبة لا تصدر من محب ولا من راحم، بل تصدر عن مشاعر العداوة، والبغضاء، والحسد والازدراء، ويدرك أنه يحمل هذه المشاعر تجاه الآخرين، ولولاها لما اغتابهم، ومع إدراكه لوحدة النفس البشرية وتماثلها، يحس أن الآخرين يحملون له نفس مشاعر العداوة والبغضاء، والحسد والاستعلاء، وأنهم مثله يبحثون عن عيوبه كما يبحث عن عيوبهم، وهذا يفقده الطمأنينة والسكينة والسلام النفسي، إذ كيف يكون مطمئناً إن ظن أنه موضع عداوة الناس وبغضهم وحسدهم؟.

وبالمقابل فإن الذي يحفظ لسانه عن الغيبة، ولا يترك عينيه تبحثان عن عيوب الآخرين، فلا يغتاب أحداً، ولا حتى بينه وبين نفسه، هذا الذي يمتلئ قلبه بحب الخير للآخرين والرحمة بهم، ولا يستكثر عليهم فضل الله، فإنه بالآلية النفسية نفسها، يحس أن الآخرين لا يحملون له العداوة أو البغضاء، ولا يبحثون عن عيوبه ونقاط ضعفه، لتكون موضوعاً لغيبتهم له وسخريتهم منه. وهذا يجعله ينعم بالطمأنينة، والسلام النفسي.. سلام يشبه السلام الذي ينعم به المؤمنون في الجنة.

قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ{45} ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ{46} وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَاناً عَلَى سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ{47} لاَ يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ{48}}. (الحجر: 45 – 48).

اللهم اجعلنا جميعاً منهم، ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا، ربنا إنك رؤوف رحيم.

الحب لا يكون حقيقياً، ولا يكون قادراً على تخليص الإنسان من إحساسه بالوحدة والوحشة في هذا الوجود، إلا عندما يكون حباً منزهاً عن الغرض والمصلحة والاحتياج، أي: عندما يكون حباً في الله

الحب في الله، راحة نفسية، وسعادة للمحب قبل المحبوب، وقد جعله الله عبادة عليها الأجر العظيم

الفصل الثالث: ولا تحاسدوا

قد ينظر الإنسان حوله فيرى لدى غيره من النعم أكثر مما لديه.. وهنا امتحان كبير لهذا الإنسان، والشيطان لا يضيع الفرصة، فإذا نجح في مسعاه، وقع هذا الإنسان فريسة مشاعر الحسد، حيث يشعر بالسخط، وعدم الرضا والغيظ،

والعداوة تجاه صاحب النعمة، وقد يحس بالخزي بسبب تورطه في مشاعر الحسد تجاه شخص قد يكون صديقه أو قريبه، وقد تغمره مشاعر القلق والاكتئاب.

وعندما يحس الإنسان بالحسد تجاه إنسان آخر، فإنه يحس بالغيظ، لأن الله قد أعطى غيره أكثر مما أعطاه، ويحس بالسخط تجاه المعطي الكريم، لأنه عندما يقارن ما لدى غيره بالذي لديه يشعر بالحرمان. ومما يزيد في مشاعر السخط والغيظ لديه، أن يكون لديه كبر وتعال على صاحب النعمة، فهو يرى نفسه خيراً منه، ومع ذلك أعطاه الله أقل مما أعطى ذلك الأدنى.

إن كبره وتعاليه، يجعلانه يحس بأنه مظلوم، لأنه يرى نفسه أهلاً لتلك النعم أكثر من المحسود، وتمتلئ نفسه عداء للمحسود، وكأن المحسود قد أخذ نعمة كان من المفروض أن تكون له هو، وبذلك يشعر الحاسد أن تصحيح الخطأ، أو رفع الظلم، يكون بأن تزول النعمة عن المحسود، وتؤول إليه، وإن استحال انتقالها إليه، فلا أقل من زوالها عن المحسود الذي ليس أهلاً لها برأي الحاسد.... إنه يرى في النعمة التي ميز الله بها المحسود عليه سبباً لتفوق المحسود عليه، ولا تهدأ نفسه حتى تزول تلك النعمة عن المحسود، فيكون المحسود والحاسد سواء.

وقد نبهنا الله في كتابه الكريم إلى حسد المنافقين لنا على نعمة الإيمان والهداية التي أعرضوا عنها، إنهم يحبون زوالها عن المؤمنين حتى يكونوا هم والمؤمنون سواء.

قال تعالى: {وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء... }، (النساء: 89).

ويقول تعالى عن الكفار من أهل الكتاب وعن المشركين: {مَّا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلاَ الْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ{105} }. (البقرة: 105).

ويقول أيضاً: {وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَداً مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {109}}. (البقرة: 109).

إن الحاسد يتصور أن العدل يقضي أن يعطيه الله مثل الذي يعطيه للآخرين، وينسى أن فضل الله يؤتيه من يشاء، لأن الله لا يسأل عما يفعل، ولا يحل لبشر أن يتدخل في شؤونه ومشيئته، أو أن يحدد له من يعطي ومن يمنع.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [قال الله عز وجل: {المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء

أن الغيبة لا تصدر من محب ولا من راحم، بل تصدر عن مشاعر العداوة، والبغضاء، والحسد والازدراء

إن عطاء الله وفضله شأنه سبحانه وتعالى، ولا يليق بالمؤمن إلا أن يرضى بما يقضيه الله، ويقدره من عطاء له وللآخرين.

ولا ينسى المؤمن أن عطاء الدنيا، إنما هو فتنة واختبار، وأن لله حكمة بالغة في أن فاوت في العطاء بين البشر، سواء في ذلك المال أو البنون أو القوة أو الجمال أو الذكاء، أو غير ذلك من نعم. وقد بين الله في إحدى آيات القرآن الكريم حكمته من ذلك إذ قال: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ {32}}. (الزخرف: 32).

عندما يحس الإنسان بالحسد تجاه إنسان آخر، فإنه يحس بالغيظ، لأن الله قد أعطى غيره أكثر مما أعطاه، ويحس بالسخط تجاه المعطي الكريم

إذاً الغاية من التفاوت في عطاء الله في الدنيا، هي أن يخدم بعضنا بعضاً، وأن تتكامل الأدوار في المجتمع.

إن العدل لا يعني المساواة في توزيع فضل الله، إنما عدل الله هو أنه لن يحاسب أحداً إلا على أوزاره، وسيقبل منه الأعذار التي هو فيها صادق ومعذور، ولن يعذب حتى يبعث رسولاً، ولن يضيع للمؤمن ذرة خير عملها، إلى غير ذلك من مظاهر العدل التي على الإنسان أن يبحث عنها في علاقته الفردية الشخصية بالله، حيث لن يظلمه الله أبداً، وإن كان قد يؤتي غيره من الفضل أكثر مما يؤتيه، فهذا لا يتنافى مع العدل، طالما أنه لم يظلمه ذرة خير عملها، بل أدخلها في حسابه، وأثابه عليها.

إن الحاسد يتصور أن العدل يقضي أن يعطيه الله مثل الذي يعطيه للآخرين، وينسى أن فضل الله يؤتيه من يشاء، لأن الله لا يسأل عما يفعل، ولا يحل لبشر أن يتدخل في شؤونه ومشيئته، أو أن يحدد له من يعطي ومن يمنع

أما أن يعطي أحداً غيره ما يشاء من عطاء وفضل في الدنيا أو الآخرة، فإن ذلك شأنه، ولا حق لأحد في أن يطالبه بالمساواة بين الجميع في الفضل والزيادة.

إن الفضل زيادة يختص بها الله من يشاء، وليس للمؤمن إلا أن يرضى، ويدعو الله أن يبارك للآخرين فيما أعطاهم، وله أن يسأل الله أن يعطيه مثلهم أو حتى أكثر مما أعطاهم.

فمشاعر الحسد دليل على أن نفسه راغبة في الحصول على مثل الذي حصل عليه الآخرون، وإن كان راغباً فعليه بذل الجهد، وأكثر الحسد يأتي ممن يرى نفسه عاجزاً عن تحقيق ما يريد، فهو لا ثقة له بنفسه، فيتمنى ولا أمل له في الحصول على ما يريد، ويشغل نفسه بمشاعر الحسد نحو الآخرين، وقد تدفعه

مشاعر الحسد إلى السعي إلى تدمير ما بأيديهم من نعمة ولو بارتكاب الجرائم البشعة أحياناً، لذا أمرنا الله أن نعوذ به من شر حاسد إذا حسد.

وما قتل ابن آدم الأول أخاه إلا حسداً، أن تقبل الله من أخيه قربانه ولم يتقبل منه، وبدل أن يصلح من نفسه بحيث يتقبل الله منه، قام بقتل أخيه، كما أراد إخوة يوسف- عليه السلام- قتله حسداً منهم على حب أبيه له.

الفصل الرابع:ستر أو حد

لقد أجريت دراسات نفسية كثيرة لمعرفة الأثر في سلوك الإنسان للنماذج السلوكية التي يراها، وهل يتأثر سلوكه زيادة أو نقصاناً برؤيته لآخرين يقومون بسلوك معين، والدراسات كلها أكدت أثر النماذج التي يراها الإنسان، حيث إنه يميل إلى تقليدها والاقتداء بها، إلا إن رأى أنها قد عوقبت على سلوكها، ونالها من جرائه ألم ومعاناة.

أما إن هو رأى شخصاً ما يفعل فعلاً ما، وكان واضحاً له أن الفعل قد جلب لمن قام به منفعة، أو متعة، أو غير ذلك مما تحب النفس، فإنه يميل إلى تقليده في المستقبل.

وعلماء النفس يسمون هذا الاقتداء "تعلماً بالمحاكاة والتقليد"، ويميزون بينه وبين تقليد القرود للإنسان، حيث تقليدها أقرب إلى المحاكاة الآلية منه إلى تعلم نمط سلوكي معين، يصبح خياراً للنفس، تلجأ إليه إذا ما مرت بموقف يشبه الموقف الذي كان فيه من رأته يقوم بالفعل أول مرة، وهذا التقليد والاقتداء عند الإنسان لا يكون فورياً عادة، بل قد يقع متأخراً ولو بعد سنين، ويكون اقتداء وتعلماً مما رأى الإنسان ذات مرة.

وعندما يفعل الإنسان فعلاً ويتبع فعله هذا لذة أو راحة من معاناة، فإنه يميل إلى تكرار هذا الفعل، وكذلك عندما يرى غيره يفعل فعلاً يجلب له المتعة، أو يريحه من المعاناة، فإن نفس الإنسان تميل إلى هذا الفعل الذي رآه، وكأنه هو الذي جرب الفعل ونتيجته بنفسه.

وأثر النموذج أو القدوة، وأثر ما يراه الإنسان من أفعال تجر مكافأة، أمر يقلق العلماء من حيث ما يراه الناس، وبخاصة الأطفال في أفلام العنف والجريمة أو

أن عطاء الدنيا، إنما هو فتنة واختبار، وأن لله حكمة بالغة في أن فاوت في العطاء بين البشر، سواء في ذلك المال أو البنون أو القوة أو الجمال أو الذكاء، أو غير ذلك من نعم

ما قتل ابن آدم الأول أخاه إلا حسداً، أن تقبل الله من أخيه قربانه ولم يتقبل منه، وبدل أن يصلح من نفسه بحيث يتقبل الله منه، قام بقتل أخيه

الإباحية، حيث تشكل شخصيات الأفلام قدوة للإنسان، ونموذجاً تميل نفسه إل تقليده، والاقتداء به.

وأثر النماذج لا يقتصر على النماذج المرئية، بل حتى النماذج المحكية التي يسمع الإنسان عنها وعن سلوكها، فإنها تؤثر فيه بالطريقة نفسها، وتولد في نفسه الميل إلى سلوك سبيلها والتصرف مثلها، إلا إن علم أن سلوكها الخاطئ قد جر عليها العقوبة والآلام.

الدراسات كلها أكدت أثر النماذج التي يراها الإنسان، حيث إنه يميل إلى تقليدها والاقتداء بها، إلا إن رأى أنها قد عوقبت على سلوكها، ونالها من جرائه ألم ومعاناة

لذا كان في نشر قصص الجريمة إشاعة للجريمة، وفي نشر قصص الفاحشة إشاعة للفاحشة، وبخاصة إن كانت قصصاً لأناس حقيقيين، فإن أثرها أكبر من أثر القصص المتخيلة والمؤلفة، وهنا تتجلى لنا الحكمة في أن حرم الله قذف مؤمن أو مؤمنة، وإشاعة أنه ارتكب فاحشة ما، والذي يشيع ذلك عن أحد من المؤمنين، يعاقب بالجلد، وبرفض شهادته بعدها ما عاش، ما لم يأت بأربعة شهداء رأوا بأعينهم ما يدعيه، والقذف قذف حتى لو كان القاذف صادقاً، فهو آثم في إشاعة ذلك، إلا إن كان لديه الشهداء الربعة، لأنه بذلك يدمر سمعة مؤمن أو مؤمنة، ومن جهة أخرى، لأنه يبث في المجتمع قصة تكون نموذجاً سيئاً، يحرض الكثيرين على أن يقعوا في مثله، إلا إن كان هنالك من الشهود ما يكفي لإثبات الفاحشة، وبالتالي لإيقاع الجزاء على مرتكبيها، وعندها لا يذكر النموذج السلوكي الرديء، إلا ويذكر معه العقوبة التي تلته، وهذا يكون له أثر إيجابي في سلوك الناس، بعكس إشاعة الحكاية دون عقوبة مرتكبيها.

أن الإنسان ما دام يستتر عند المعصية، ويحافظ على صورته الحسنة في عيون الآخرين، فإنه يبقى لديه من الحياء ما يدفعه إلى التوبة

وقد سبق القرآن الكريم علماء النفس عندما أشار إلى دور إشاعة حكايات الفاحشة في المجتمع من حيث إشاعتها للفاحشة نفسها، ففي حديث الإفك قام المنافقون بالترويج لإشاعة مختلقة عن فاحشة متخيلة، وقد بين الله نتعالى أن دافعهم لنشر هذه الشائعة كان حبهم لأن تشيع الفاحشة فعلاً بين المؤمنين، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ{19}}. (النور: 19).

وقد حث النبي محمد صلى الله عليه وسلم المؤمنين على ستر بعضهم بعضاً، وتوعد المنافقين الذين كانوا يعيرون بعض المؤمنين، ويغتابونهم، فقال: [يا معشر

من أسلم بلسانه، ولم يفض الإيمان إلى قلبه! لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف رحله]. (رواه أبو داود والترمذي).

وقال أيضاً: [ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة]. (رواه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه).

وقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن نستتر إذا ابتلينا بالمعاصي، أي: إن ضعفت نفوسنا ومالت إلى الحرام، فليكن ذلك سراً، ولنستر أنفسنا، ولذلك فائدتان على الأقل:

الأولى: ألا يكون العاصي نموذجاً سيئاً يتشجع الآخرون على الاقتداء به.

الثانية: أن الإنسان ما دام يستتر عند المعصية، ويحافظ على صورته الحسنة في عيون الآخرين، فإنه يبقى لديه من الحياء ما يدفعه إلى التوبة، أما إن جاهر بمعصيته، فإنه حتى لا يعاني من مشاعر الخزي، وحتى لا يتعذب ببقية الحياء لديه يكابر، ويتخلى عن حيائه، فيندفع في معاصيه، ويقنع نفسه بالمبررات التي تخفف عنه الإحساس بنظرات الآخرين اللائمة له، وبذلك يبتعد كثيراً عن التوبة.، لذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم: [كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: "يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا"، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه]. (رواه البخاري).

قال الرسول صلى الله عليه وسلم: [كل أمتي معافى إلا المجاهرون، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملاً، ثم يصبح وقد ستره الله، فيقول: "يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا"، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه].

والذي يتأمل التشريع الإسلامي الخاص بالزنا والقذف يتبين له أن حد الزنا وإن كان يقام على الزاني عقوبة له على الزنا إلا أنه لا يستحقه إلا عندما يجاهر ويتحدث عن زناه وعندها إن وصل أمره إلى الحاكم إما أن يثبت على اعترافه بالزنا فيقام عليه حد الزنا أو أن يعتبر قاذفاً لنفسه ويقام عليه حد القذف وهذا يردع من يتبجح بالفاحشة ويضطره إلى ستر نفسه وبالتالي لا يكون نموذجاً سلوكياً مشجعاً على انتشار الزنا وشيوع الفاحشة في مجتمع المؤمنين.

روى البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: "كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حدا فأقمه

علي، قال: ولم يسأله عنه، قال: وحضرت الصلاة فصلى مع النبي، فلما قضى النبي الصلاة قام إليه رجل فقال: يا رسول الله إني أصبت حداً فأقم في كتاب الله قال: أليس قد صليت معنا قال: نعم قال فإن الله قد غفر لك ذنبك أو قال حدك"

رجل أصاب حداً وطلب من النبي صلى الله عليه وسلم أن يقيمه عليه ليتطهر منه لكن النبي صلى الله عليه وسلم لم يسأله عن التفاصيل بل تركه حتى صلى ثم طمأنه إلى إن ذنبه قد غفر، ولا حرص عند النبي صلى الله عليه وسلم على العقوبة طالما أن الذنب بقي مستوراً ولم ينكشف للعلن، بينما حذر صلى الله عليه وسلم المؤمنين أن الحد سيقام على من كشف الستر عن نفسه فقد روى مالك في موطئه عن زيد بن أسلم أن رجلا اعترف على نفسه بالزنا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلد ثم قال: "أيها الناس قد آن لكم أن تنتهوا عن حدود الله من أصاب من هذه القاذورات شيئا فليستتر بستر الله فإنه من يبد لنا صفحته نقم عليه كتاب الله." فهل أوضح من هذا دعوة إلى ستر النفس وأن الحرص على تلقي العقوبة تطهراً من الذنب ليس السلوك الأمثل الذي يدعو إليه الإسلام بل الاستتار والتوبة أولى وأحب إلى الله.

والحالة الثانية التي يستحق الزاني فيها حد الزنا هي أن يزني ويرى أربعة رجال مؤمنين ممن تقبل شهاداتهم عادة يرون مجتمعين عملية الاتصال الجنسي بوضوح ويكونون متأكدين من هوية الزانيين أنهما لا يحلان لبعضهما، بينما تثبت أية جريمة أخرى بشهادة شاهدين عدلين لا أربعة، ولا يمكن أن يتحقق شرط إقامة الحد هذا إلا إن بلغ استهتار الزاني حداً بعيداً من عدم الحرص على الاستتار والاختباء بالمعصية أو ربما كانت الفاحشة تقع أمام الناس على خشبة المسرح أو أمام الكاميرات.

وهذا يرينا أن هدف حد الزنا وحد القذف في الإسلام هو بالدرجة الأولى إجبار الزناة على الاستتار، أما تطهير المجتمع من الزنا فيحتاج إلى الموعظة وإلى تيسير الزواج وسد ذرائع الفساد التي تقود إلى الفاحشة وليس الاعتماد على العقوبة القضائية في ذلك لأنها بالتأكيد لن تكفي وحدها.

اللهم استرنا ولا تفضحنا، وعافنا واعف عنا.

تطهير المجتمع من الزنا فيحتاج إلى الموعظة وإلى تيسير الزواج وسد ذرائع الفساد التي تقود إلى الفاحشة وليس الاعتماد على العقوبة القضائية في ذلك لأنها بالتأكيد لن تكفي وحدها

القســـــم الثالـــــث :فـــي الدوافـــع النفسيـــة

أ- خلفاء أم متألهون

الفصل الأول: معنى الحياة

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{30}]. (البقرة: 30).

وقال أيضاً: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ{1} الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ{2}}. (الملك: 1 - 2).

إذا ما عجز الإنسان عن اكتشاف معنى وجوده، وعجز عن أن يضفي على حياته ولو معنى مخترعاً من عنده على الأقل، فإن حياته تصبح حياة يائسة كئيبة قلقة

يسعى الإنسان الذي لم يؤمن، ولم يهتد بنور الإيمان... يسعى إلى أهداف مختلفة في حياته، فقد يسعى إلى الثروة، أو الشهرة، أو الجاه، أو كل ذلك، أو غير ذلك... ويستغرق في سعيه غافلاً في أي شيء آخر...حتى إذا أخذ يتفكر يوماً، ويتساءل: وماذا بعد ذلك؟ ماذا بعد أن تزداد الثروة، وتبلغ الأرقام الكبيرة؟ وماذا بعد أن تبلغ الشهرة حداً بعيداً؟ ماذا بعد ذلك؟ وما معنى هذا كله طالما أنني سأموت وأترك كل ذلك؟.

وعندما يصل الإنسان إلى هذه المرحلة، مرحلة التساؤل عن معنى حياته، وعن معنى الحياة الإنسانية عموماً وغايتها، فإنه من دون الإيمان بالله واليوم الآخر، يشعر بالضياع والعبث، وأنه ليس هنالك شيء له معنى.

وإذا ما عجز الإنسان عن اكتشاف معنى وجوده، وعجز عن أن يضفي على حياته ولو معنى مخترعاً من عنده على الأقل، فإن حياته تصبح حياة يائسة كئيبة قلقة، فيأخذ يقلب الفكر والرأي: هل يستمر في حياته خالية من المعنى برأيه، أم ينسحب من هذا الوجود فينهي حياته ويستريح؟.

قليلون هم الذين ينتحرون، أما الأكثرون فيجدون لحياتهم معنى وهدفاً في واحد أو أكثر من النشاطات المفيدة، ينشغلون بها، ويملؤون بها حياتهم.

منهم من يكرس ما يستطيع تكريسه من وقته، وجهده، وماله، لعمل الخير والإحسان، فيكون العطاء في الحياة ونفع الآخرين هدفهم وغايتهم.

ومنهم من يجعل لحياته معنى من خلال تكريسها لقضية من نوع ما سياسية، أو إصلاحية فكرية، أو غير ذلك.

والبعض القادرون على الإبداع يجدون المعنى في الاستمرار في إبداعهم.

وهذه المعاني، والأهداف الحيوية التي يتبناها كثير من الناس ليست إلا صوراً ومظاهر للهدف الأصلي الذي خلق الإنسان من أجله، وهو أن يكون خليفة لله في أرضه. فالخلافة في الأرض لها صور عديدة، وكل عمل يتمثل فيه الإنسان صفة من صفات الخالق، ويعمل على أن يحقق في نفسه ما يقدر على تحقيقه منها، إنما هو مظهر من مظاهر الخلافة في الأرض، إذ ليست الخلافة في الأرض مقصورة على العمران والبناء، إنما علم العالم خلافة، وعدل العادل خلافة، ورحمة الأم لصغيرها خلافة، ورعاية الأب لأسرته خلافة، والإبداع خلافة، ونفع الآخرين خلافة... أليس الله هو النافع وهو بديع السماوات والأرض وهو الرحمن الرحيم الحكم العدل العليم الخبير؟.

الخلافة في الأرض لها صور عديدة، وكل عمل يتمثل فيه الإنسان صفة من صفات الخالق، ويعمل على أن يحقق في نفسه ما يقدر على تحقيقه منها، إنما هو مظهر من مظاهر الخلافة في الأرض

لكن الشقي من لا يجد لحياته من معنى، إلا البحث عن المتعة الحسية، والأشقى منه من يستكبر فيجعل هدف حياته أن يتحدى الخالق، ويفسد في الأرض، وينفر الخلق عن خالقهم، ويبث فيهم روح التمرد على رب العالمين، تلك الروح التي تسيطر عليه، وتجعله شيطاناً مريداً.. إنه يأنف أن يكون خليفة في الأرض، ويأبى إلا أن يكون نداً لله، وخصيماً له، ليرضي نزعة الكبر والعلو في نفسه.

{أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ {77}}. يس (77).

لكن هذا الأحمق المستكبر لا يدري أنه رغم تمرده على الله، فإنه لم يخرج عن أن يكون المخلوق الذي يتمثل صفات الخالق، فهو يحقق في نفسه صفة الكبر والعظمة والعلو، لكنه شقي وتعس، لأنه اختار الصفة التي حرم الله على البشر أن يتمثلوها، وتوعد الذين ينازعونه عظمته وكبريائه أن يلقيهم في النار.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم {العز إزاره. والكبرياء رداؤه. فمن ينازعني عذبته. }. (رواه مسلم). وعن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن الله جل وعلا قال {الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني في واحدة منهما قذفته في النار} {رواه ابن حبان وروى أحمد وابن ماجة في معناه}.

ليست الخلافة في الأرض مقصورة على العمران والبناء، إنما علم العالم خلافة، وعدل العادل خلافة، ورحمة الأم لصغيرها خلافة، ورعاية الأب لأسرته خلافة، والإبداع خلافة، ونفع الآخرين خلافة

إنه الامتحان الأكبر، والخيار بين دور الخلافة في الأرض، ودور الاستكبار فيها، والتأله والتعالي على الخلق والخالق العظيم.

والذي يختار الدور الصحيح، تشرق نفسه بأنوار الإيمان، أما الذي يتمرد ويتأله، فتظلم نفسه، وتكون معيشته ضنكاً.

واسأل عن هذه المعيشة الضنك إن شئت نيتشه، وكامو، وسارتر، وغيرهم... {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ {115}}. (المؤمنون: 115) ؟!.

ومن علمائنا من استهجن القول أن الإنسان مستخلف عن الله في الأرض لأن الله حاضر لا يغيب أبداً، والأصل في الاستخلاف أن يكون أثناء الغيبة فينوب الخليفة عمن استخلفه، لكن استخلاف الله للإنسان في الأرض ليس استخلاف استعانة فالله غني عن العالمين وهو الصمد الذي يحتاجه كل من سواه ولا يحتاج هو أحداً سواه. أما استخلافه للإنسان في الأرض فهو استخلاف امتحان واختبار ليرى ماذا يعمل هذا الكائن الذي آتاه الله من القدرات ما لم يؤت مخلوقاً آخر، والله الحي الذي لا يموت والذي لا ينام ولا يعزب عن علمه شيء في الأرض ولا في السماء خبأ نفسه وترك في الكون آياته التي تدلنا عليه وترك الإنسان يعمل ما يشاء ويتصرف كما يشاء ثم هو سيثيبه على ما فعل من خير ويجازيه على ما ارتكب من شر أو يغفر له إن شاء.

الفصل الثاني:اختبار الصلاحية للخلافة في الأرض

مع بدايات القرن العشرين، توصل علماء النفس إلى الاختبارات النفسية الأولى، وكانت تركز على تقدير درجة الذكاء عند المفحوص، عن طريق أسئلة توجه إليه، ودراسة إجاباته عليها.

ثم تقدم علم الاختبارات النفسية، وصار هنالك أنواع منها، ولعل من أهمها اختبارات الشخصية، حيث يتم التعرف على ميول الشخص وخصاله من خلال إجاباته على مجموعة كبيرة من الأسئلة.

لكن القرآن الكريم، يحكي لنا قصة أول اختبار نفسي في تاريخ البشرية.. وها هي الحكاية....

بعد أن خلق الله الأرض والسموات السبع، وبعد أن تهيأت الأرض لاستقبال الإنسان، أعلن الله للملائكة أنه على وشك أن يخلق الإنسان ليكون خليفة له في الأرض.

ودور الخلافة في الأرض دور كريم، تطلعت إليه نفوس الملائكة، فعرضوا أنفسهم له، وقارنوا بينهم وبين المخلوق الجديد... فهو مخلوق سيفسد في الأرض، وسيسفك الدماء... أما الملائكة الكرام، فمسبحون بحمد الله، مقدسون له.

لم يكن الملائكة يدركون أبعاد الدور الذي سيناط بالإنسان، وكان تصورهم أنه بالتسبيح والتقديس يتحقق الاستخلاف.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاء وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{30} }. (البقرة: 30).

وأراد الله أن يري الملائكة تفوق الإنسان عليهم في قدرات تؤهله لأن يكون الخليفة في الأرض من دونهم. قال تعالى مكملاً لنا القصة الرائعة: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ{31} قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ{32} قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ{33}}. (البقرة: 31 – 33).

الشقي من لا يجد لحياته من معنى، إلا البحث عن المتعة الحسية، والأشقى منه من يستكبر فيجعل هدف حياته أن يتحدى الخالق، ويفسد في الأرض، وينفر الخلق عن خالقهم، ويبث فيهم روح التمرد على رب العالمين

لم يكن ذلك اختباراً ومباراة في القدرة على التذكر والحفظ، فالملائكة لا يعرفون النسيان، لأنهم كما أخبرنا تعالى عنهم يفعلون ما يؤمرون، ولا يمكن أن يفعلوا ما يؤمرون، هكذا بإطلاق، إن كان النسيان من طباعهم، أما آدم فالنسيان من طبعه، ولولا نسيانه لتحذير الله له من عداوة إبليس له، لما وقع في إغوائه، ولما عصى وهو في جنة الخلد....

قال تعالى: {وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً } {طه: 115}

وقد كثرت الآراء وتنوعت في المقصود بقوله تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا} {البقرة: 31}

ومال ابن كثير –رحمه الله– إلى أنها أسماء الأشياء كلها: ذواتها، وصفاتها، وأفعالها.

وإذا ما تذكرنا أن الاختبار لم يكن اختبار ذاكرة، وأن تفوق آدم على الملائكة لم يكن تفوقاً في الحفظ والتذكر، كما أنه ما كان الله ليلقن آدم معلومات معينة، ويحجبها عن الملائكة، ثم يجعل معرفة آدم لها مقياساً لتفوقه على الملائكة، ودليلاً لصلاحيته أكثر منهم لدور لخليفة في الأرض، إنما التفوق في الصلاحية يكون نتيجة في القدرات، وهذا يجعلنا نفهم أن تعليم الله لآدم ما كان تلقيناً، بل كان إقداراً له على تسمية كل شيء.

ولا يشكل علينا قوله تعالى: {وعلّم}، إذ خلق الله الإنسان، وعلمه البيان، دون أن يعني ذلك أن الإنسان يولد وهو يجيد الكلام وغيره من طرق البيان عما في نفسه، بل كلها تقريباً مما يتعلمه في صغره، لكنه يتعلمه لوجود القدرة لديه على تعلمه، وهو يتعلم ما يكون متوافراً له في بيئته الاجتماعية.

وعندما تعرض الأشياء على الملائكة وعلى آدم، فتعجز الملائكة عن تسميتها، لأنها لم تتلقن أسمائها من قبل، أما آدم فيسميها، وبذلك تظهر قدرته على إطلاق الأسماء على الأشياء، وهي القدرة على الترميز، أي: التعبير بالرموز عن الأشياء، والدلالة بالرمز على الشيء،كما تظهر قدرته على تكوين المفاهيم وإبداعها، حيث يستخلص مما يراه مفاهيم يستخدمها في وصف ما يرى من أشياء

إنه الامتحان الأكبر، والخيار بين دور الخلافة في الأرض، ودور الاستكبار فيها، والتأله والتعالي على الخلق والخالق العظيم

وأفعال، وفي تصنيفها بشكل يسهل معه إطلاق اسم واحد على أشياء عديدة تشترك في خواص معينة، وهذه القدرة على الترميز، وعلى إبداع المفاهيم، ما كان للإنسان أن يفكر بالطريقة الفائقة التي يفكر بها، وما كان له أن يبدع ما أبدعه لولاها.

إنها بحق قدرة تجعل منه كائناً أصلح من غيره من الكائنات لدور الخليفة لله في أرضه، ذلك الخليفة الذي يستطيع أن يبدع، ويجتهد في المواقف المختلفة، وأن يجد الحلول للمشكلات التي تعترضه، منطلقاً مما أعطاه الله من قدرات عقلية لم يعط مثلها حتى للملائكة الكرام.

ونعود إلى حديثنا عن الاختبارات النفسية، لنجد أن هذا الاختبار الذي تعرض له آدم، كان أول اختبار ذكاء في التاريخ، أجراه الحكيم العليم.

الذي يختار الدور الصحيح، تشرق نفسه بأنوار الإيمان، أما الذي يتمرد ويتأله، فتظلم نفسه، وتكون معيشته ضنكاً

الفصل الثالث: الفطرة في اللاشعور

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [ما من مولود إلا ويولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه،كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء]. (رواه البخاري).

وجاء في الحديث القدسي: أن الله عز وجل قال: [.... وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطاناً....]. (رواه مسلم).

إذاً هي الفطرة، والتوحيد لله، يولد الجميع بها، وعندما يكبرون يقعون في تأثير البيئة التي إما أن ترعى هذه الفطرة، وتحافظ عليها، أو أن تحرفها، وتشوهها.

وقد حفظ الله هذه الفطرة من أن يؤثر فيها كفر الآباء والأمهات أو شركهم، فكل هذا لا ينتقل إلى الذرية عن طريق الوراثة، ذلك أن الصفات المكتسبة التي تطرأ على المخلوق بعد أن تكون في بطن أمه، هذه الصفات لا تنتقل إلى ذريته، وهذا ما أثبته علم الوراثة الحديث، بعد أن كان علماء القرن التاسع عشر يظنون أن الزرافة التي مدت عنقها إلى الأشجار العالية، فطال عنقها، فجاءت ذريتها طويلة الأعناق، هذا اعتقاد خاطئ، وقد بين العلماء أخيراً بطلانه.

أما نبينا محمد صلى الله عليه وسلم الذي كان يتلقى عن العليم الخبير، فقد أكد عدم تأثر الذرية بالصفات المكتسبة، عندما لفت الأنظار إلى أن البهيمة جدعاء كانت أو كاملة الخلقة لا تنتج بهيمة جدعاء، أي: مقطوعاً أنفها، أو أحد أطرافها.

وقد أكدت حادثة الإشهاد التي أخبرنا الله عنها في القرآن الكريم الأمر ذاته، أي: عدم انتقال الصفات النفسية المكتسبة من شرك بالله ونحوه إلى الذرية.

فقد أخذ الله من الناس من ظهورهم ذريتهم، وأشهد هذه الذرية على نفسها، فاعترفت أن الله ربها وخالقها. وذرية الإنسان، تكون في ظهره عندما يكون هو نفسه جنيناً في بطن أمه دون الشهرين من عمره الجنيني.

أما استخلافه للإنسان في الأرض فهو استخلاف امتحان واختبار ليرى ماذا يعمل هذا الكائن الذي آتاه الله من القدرات ما لم يؤت مخلوقاً آخر

قال تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُواْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ{172} أَوْ تَقُولُواْ إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ{173}}. (الأعراف: 172- 173).

وقد حار كثير من العلماء قديماً في فهم هاتين الآيتين اللتين ترويان قصة لا نذكرها، وبخاصة أن المولى تعالى يقول في آية أخرى:

{وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ الْسَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ{78}}. (النحل: 78).

إننا في هذا العصر الذي عرفنا فيه الكثير عن الدماغ البشري، وعن النفس الإنسانية، لن نقع في حيرة لنفهم قصة الإشهاد التي أخبرنا عنها الحق سبحانه وتعالى.. فقد أظهر العلم لنا أن جزءاً كبيراً من دماغ الإنسان يعمل بشكل لا شعوري، ولا نستطيع الوصول إلى ما فيه من أفكار ومعلومات، إنما هو يرسل إلينا حصيلة ما لديه من أفكار ومعلومات على شكل أحاسيس قلبية، ومشاعر وجدانية.

وهكذا الفطرة ومعرفة كل إنسان لخالقه العظيم، إنما هي مخزونة في اللاشعور، يصلنا منها مشاعر الارتياح والانشراح القلبي للإيمان بالخالق الواحد الأحد.

قال تعالى: {فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ {125}}. (الأنعام: 12).

وقد أشار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى اللاشعور في أحاديثه، فقد قال عندما سئل عن البر: [استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك]. (أحمد والدرامي).

إذاً هما اثنان مفكران: نفس وقلب، إن اجتمعا عند المؤمن على شيء فهو البر، وهذا ما تقوله العلوم الحديثة، فهما شعور ولاشعور، شعور سماه الحديث الشريف نفساً، ولا شعور سماه قلباً.

أما الكافرون الذين يرفضون الحق في البداية عن وعي، فإن قلوبهم تزيغ، ثم يصير رفضهم للحق على المستويين: النفس والقلب.

قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِي وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ {5}}. (الصف: 5).

وقد بين رسول الله صلى الله عليه وسلم بوضوح أن الفطرة موضعها اللاشعور، فقد قال حذيفة رضي الله عنه: حدثنا رسول الله صلى الله ليه وسلم حديثين، رأيت أحدهما، وأنا أنتظر الآخر: [أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم علموا من القرآن، ثم علموا من السنة]. وحدثنا عن رفعها..... إلى آخر الحديث. (رواه البخاري).

وواضح أن الجذر من النبات، هو الجزء الخفي الحي الفعال منه، وليس أفضل من هذا التشبيه لتقريب مفهوم اللاشعور للأذهان.

الفطرة ومعرفة كل إنسان لخالقه العظيم، إنما هي مخزونة في اللاشعور، يصلنا منها مشاعر الارتياح والانشراح القلبي للإيمان بالخالق الواحد الأحد.

الفصل الرابع: الرّان

إن لأفعال الإنسان أثراً في نفسه يبقى بعد انتهائه منها، ونسيانه لها، لأنه ينغرس في القلب، في جزء لا شعوري من الدماغ، وهذا الأثر يقع على هوى الإنسان وميوله، فالفعل الذي تلته متعة حسية أو معنوية، أو تلاه زوال معاناة حسية أو معنوية، هذا الفعل يترك أثراً في القلب يجعل هوى الإنسان ميالاً إليه، فترغب فيه وتشتهي تكراره.

وبالمقابل فإن الفعل الذي يتلوه ألم حسي أو معنوي، أو يؤدي إلى فوات متعة حسية أو معنوية، يكون له في النفس أثر يجعلها أقل رغبة فيه، وأقل ميلاً إلى تكراره.

وهذه الآثار للأفعال التي نقوم بها، لا تعتمد على الناحية المعرفية فحسب، فحتى لو نسي الإنسان التجربة التي مر بها وتركت أثرها في نفسه، فإن ما تركت من أثر في ميوله وأهوائه يبقى قائماً ومؤثراً فيها.

المهم أن يبدو الأمر للدماغ على نحو يربط فيه ما بين الفعل ومتعته، أو الفعل وعاقبته المؤلمة.

ولعل هذا يعيننا على فهم الآلية التي تؤثر فيها أفعال الناس على أهوائهم بما يخص إيمانهم بخالقهم ورسالاته، أو كفرهم به وبها.

وقد بين لنا المولى سبحانه وتعالى أن ما يكسبه الإنسان يمكن أن يرين على قلبه، فيكون مثل ختم يعميه عن أن يرى آيات الله، وعن أن يؤمن بها.

قال تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ{10} الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ{11} وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ{12} إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ{13} كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ{14}}. (المطففين: 10– 14).

وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ{46}}. (الحج: 46).

وبالمقابل لا يكتمل إيمان المؤمن حتى يكون هواه موافقاً لدين الله.

قال صلى الله عليه وسلم: [لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به]. (رواه ابن عاصم في السنة رقم 15، والبغوي في شرح السنة 1 / 213، والبغدادي في تاريخه $ / 369، والديلمي في فردوس الأخبار رقم 7690، وانظره في الأربعين النووية الحديث قبل الأخير، وقال النووي: حديث صحيح).

وقد فصل النبي محمد صلى الله عليه وسلم في بيانه لأثر الأعمال في نفس مرتكبيها، وفي بيانه للكيفية التي ترين بها على قلب فاعلها.

قال حذيفة رضي الله عنه: "سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

أشار الرسول محمد صلى الله عليه وسلم إلى اللاشعور في أحاديثه، فقد قال عندما سئل عن البر: [استفت قلبك، البر ما اطمأنت إليه النفس واطمأن إليه القلب، والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك]

[تعرض الفتن على القلوب كالحصير عوداً عوداً، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين: على أبيض مثل الصفا، فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مرباداً كالكوز مجخياً لا يعرف معروفاً ولا ينكر منكراً إلا ما أشرب من هواه....]. (رواه مسلم).

وقال صلى الله عليه وسلم: [إن المؤمن إذا أذنب كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر صقل قلبه، فإن زاد زادت، فذلك الران الذي ذكره الله في كتابه: {{كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ}المطففين14}. (رواه ابن ماجه وأحمد).

والران الذي تخلفه المعاصي في نفس الإنسان يطمس على قلبه، ويفقده شفافيته وحساسيته، وإن كان ذلك لا يفقد الإنسان القدرة على الإيمان بعد كفر، وعلى التوبة بعد جهالة، لكن لا بد من العمل الصالح والتوبة والاستغفار، ليصقل قلبه، ويعود إلى نقائه وحساسيته.

وبالعمل الصالح يتشكل هوى الإنسان تبعاً لما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم من هداية لنا من عند خالقنا جل في علاه.

والفرائض تحقق حداً من ذلك، لكن إكثار المؤمن من الطاعات التطوعية، والجهاد في سبيل الله وغيرها، كلها تصوغ هواه صياغة تعود به إلى الفطرة التي ولد عليها، بحيث تميل نفسه إلى الطاعات ميلاً يعينه على المزيد منها، فلا يحتاج إلى إكراه نفسه عليها، فقد زالت من نفسه النواهي النفسية التي تعاكس رغبته في الطاعات، وبقيت الدواعي النفسية التي تشده إلى الطاعات، وتحببها إليه، وعندها يجد المؤمن متعته ولذته في الطاعات، لأن هواه وميل قلبه صار تبعاً لدين الله، ومنسجماً مع فطرة الله التي فطر الناس عليها.

هما اثنان مفكران: نفس وقلب، إن اجتمعا عند المؤمن على شيء فهو البر، وهذا ما تقوله العلوم الحديثة، فهما شعور ولاشعور، شعور سماه الحديث الشريف نفساً، ولا شعور سماه قلباً

الفصل الخامس: حقيقة الكبر

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ{13}}. (الحجرات: 13).

الناس سواسية في القدر والكرامة، إلا من رفعته تقواه عند الله، والتقي لا يسمح لنفسه بالتعالي على أحد، لأنه لو أعجب بتقواه وتعالى بها على الآخرين، لخرج من زمرة المتقين.

قال تعالى عن المؤمنين المتقين: {إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ{57} وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ{58} وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ{59} وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ{60} أُوْلَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ{61}}. (المؤمنون: 57 - 61).

وقد سألت عائشة- رضي الله عنها - رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: "يا رسول الله! الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر، وهو يخاف الله عز وجل؟". فقال صلى الله عليه وسلم: [لا يا بنت الصديق! ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل]. (رواه أحمد).

وفي رواية أخرى أنه قال أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن هذه الآية {والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلةٌ} قالت عائشة: أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: "لا يا بنت الصديق ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون أن لا تقبل منهم؛ أولئك الذين يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون". (رواه الترمذي).

صحيح أن الأتقى هو الأكرم عند الله، لكن التقوى والعجب والتكبر لا تجتمع في قلب واحد، فهي متناقضات كالليل والنهار، لا يتسع مكان لهما مجتمعين.

وإذا اقتضت التقوى نقاء القلب من العجب والتكبر، فما الذي يبرر للإنسان أن يتعالى على أخيه الإنسان، والله قد ألغى كل مقياس آخر لتكريم بشر على بشر إلا التقوى؟.

والعُجْب كما يعرفه الإمام الغزالي- رحمه الله - هو: استعظام النفس وخصالها التي هي من نعم الله، والركون إلى هذه النفس وإلى خصالها، مع نسيان إضافتها إلى المنعم، ومع الأمن من زوالها.

والكبر: هو أن يرى الإنسان نفسه فوق غيره في صفات الكمال، فيحصل فيه

الران الذي تخلفه المعاصي في نفس الإنسان يطمس على قلبه، ويفقده شفافيته وحساسيته، وإن كان ذلك لا يفقد الإنسان القدرة على الإيمان بعد كفر، وعلى التوبة بعد جهالة، لكن لا بد من العمل الصالح والتوبة والاستغفار، ليصقل قلبه، ويعود إلى نقائه وحساسيته

نفخة وهزة من اعتقاده بهذه الفوقية. والعجب سبب الكبر، ولكن الكبر يستدعي متكبراً عليه، والعجب مقصور على الانفراد.

رحم الله الغزالي، فقد وضح العجب والكبر توضيحاً رائعاً، والعجب بالمصطلح النفسي الحديث هو "النرجسية"، حيث يشتمل مفهوم الذات عند الإنسان النرجسي على اعتقاد راسخ بتفوقه على الآخرين في صفات هامة كالذكاء والجمال، وغير ذلك.

والنرجسي يُدِلُّ على الناس، فيرى له عليهم حقاً ومكانة، ويستغرب إن هم لم يقدموا له ما يوجبه عليهم هذا الحق وهذه المكانة.

وعلماء النفس يرون أن للتربية في الصغر دوراً خطيراً في تضخيم نرجسية الإنسان، وإعجابه بنفسه، وذلك عندما يكثر الوالدان من مديح طفلهما، والادعاء أنه ذكي أو جميل، أو غير ذلك بما لا يتناسب مع ما فيه من ذكاء أو جمال.... ويكثران من تدليله بناء على تفوقه المزعوم.

لكن هنالك نرجسية وكبر يقع فيه الإنسان باختياره لما يجد في الشعور به من متعة، فيقنع نفسه أنه الأفضل، ويرى نفسه أنه الأكرم، ويحتقر الآخرين، ولا يعجزه أن يجد مبرراً لعجبه بنفسه، وتعاليه على الآخرين، حتى إن البعض قد يتعالى على غيره دون مبرر مقنع.. لذا كان " الفقير المتعال" من الذين لا ينظر الله إليهم يوم القيامة كما قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

إن الكبر والتعالي موقف نفسي إرادي، يقفه الإنسان من الآخرين لأنه يشبع لديه شهوة نفسية، ويحقق له أغراضاً نفسية تقلل قلقه، وتوحي إليه أنه بخير طالما أنه يتمتع بالبشرة البيضاء لا السوداء، أو أنه ينتمي إلى قوم معينين، أو أنه غني، أو قوي، أو جميل..... بل قد يتكبر الرجل على المرأة، والراشد على الطفل.

والعجب والكبر يكمنان وراء كل أشكال التمييز العنصري.

وقد بذلت الحكومة الأمريكية بمعونة علماء النفس، الكثير من أجل تخفيف تعالي البيض على السود، لكن جدوى ذلك كانت ضئيلة، إذ ليس تعالي الأبيض على الأسود، أو تعالي الرجل على المرأة نتيجة معلومات خاطئة لدى المتعالي عن المتعالي عليه، إنما هو رذيلة، وموقف إرادي يقفه إنسان ناقص الأخلاق.. لذا

إن الكبر والتعالي موقف نفسي إرادي، يقفه الإنسان من الآخرين لأنه يشبع لديه شهوة نفسية، ويحقق له أغراضاً نفسية تقلل قلقه، وتوحي إليه أنه بخير طالما أنه يتمتع بالبشرة البيضاء لا السوداء، أو أنه ينتمي إلى قوم معينين، أو أنه غني، أو قوي، أو جميل.....

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: "إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس". (رواه مسلم).

الفصل السادس: الكبر يدفع إلى الكفر (أ)

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: [بينما رجل يمشي في حلة، تعجبه نفسه، مرجل رأسه، يختال في مشيته، إذ خسف الله به فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة]. (متفق عليه). (يتجلجل: يغوص وينزل).

إن التكبر أقبح رذيلة يقع فيها الإنسان، إذ حقيقة الكبر كما قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم أنه:[بَطَرُ الحق وغَمْطُ الناس].

فالتكبر لا يقتصر على التعالي على الناس وازدرائهم، والنظر إليهم على أنهم دون المتكبر، وبالتالي الترفع عن الدخول معهم في علاقة إنسانية حميمة صادقة، إنما الكبر إضافة إلى ذلك بطر للحق أي: إنكار للحق، ورفض لقبوله (المعجم الوسيط)، والكبر هو الدافع للكفر والتمرد على الخالق.

فمنذ أول تمرد على أوامر الخالق العظيم،كانت الكبرياء دافعه، فعندما أمر الله الملائكة ومعهم إبليس أن يسجدوا لآدم، أبى إبليس السجود لآدم طاعة الله، لأنه تكبر على آدم، ورأى نفسه خيراً منه.

قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ{34}}. (البقرة: 34).

ولما سأل الله إبليس عما منعه من تنفيذ أمره سبحانه وتعالى، ظهرت كبرياء إبليس، تلك الكبرياء التي من أجلها أورد إبليس نفسه مورد التهلكة، فهو يعلم علم اليقين أن كبرياءه ستؤدي به إلى جهنم، لأنه رأى بعينيه ما آمنا به بالغيب، ومع ذلك فإن كبرياءه جعلته يتحدى خالقه.

إن تعاليه على آدم جعله يتمرد على أمر الله، ويفسق عنه، وفسوقه هذا أخرجه من دائرة الإيمان إلى حيث الكفر والعصيان، فلم ير أنه قد أخطأ في تماديه مع كبريائه، بل وضع اللوم على رب العالمين، ودخل في تحد معه، وعزم على أن يغوي آدم وذريته.

قال النبي محمد صلى الله عليه وسلم: "لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر" قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنا ونعله حسنة. قال: "إن الله جميل يحب الجمال. الكبر بطر الحق وغمط الناس

قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ{11} قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَاْ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ{12} قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ{13} قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ{14} قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ{15} قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ{16} ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ{17}}. (الأعراف: 11 – 17).

مخلوق صغير يتحدى الخالق العظيم، يريد أن يفسد في الأرض، ويحرف الخليفة الذي جعله الله فيها عن دوره ليوقعه في الرذيلة التي وقع هو فيها، رذيلة الكبر والتعالي والتمرد والكفر والفسوق.

إنه يوقظ في نفوس البشر كبرياء مهلكة، تحول بينهم وبين طاعة الله والإيمان بآياته ورسله.

قال تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِن فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَالِغِيهِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ{56}}. {غافر: 56}.

وقد كانت الكبرياء وراء كفر الأقوام السابقة برسلهم، فالملأ من قوم صالح أعلنوا كفرهم ترفعاً منهم عن أن يسلكوا سبيل الإيمان لأن المستضعفين قد سلكوه. قال تعالى:{ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ{75} قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ إِنَّا بِالَّذِيَ آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ{76}} {الأعراف 75-76}

إذاً لم يمنعهم من الإيمان بصالح عليه السلام، وما يدعو إليه من توحيد الله تعالى أن صدقه لم يتبين لهم، أو أن الدلائل على نبوته لم تكن كافية، إنما هو حرصهم على مخالفة المستضعفين الذين آمنوا، وعلى الترفع عن أن يكونوا معهم في زمرة واحدة.

فلئن كانت الجنة في آخر الطريق التي اختارها المستضعفون، فإن الكبراء المتعالين يفضلون الطريق الأخرى، ولو أدت بهم إلى نار جهنم.

الاستكبار يصد الإنسان عن الإيمان، رغم أن الآيات والدلائل واضحة أمامه، ذلك أن الله لم يجعل في الكون من الآيات ما يلزم العقل إلزاماً بالإيمان به وبرسله، بل دائماً ترك فسحة للعقل، بحيث يؤمن من يؤمن إيماناً بالغيب

عجيب أمر هذا الإنسان، يتكبر، ويحطم نفسه من أجل كبريائه.

والله الذي حرم الكبرياء، لم يحرمنا الكرامة، فهو الذي كرم بني آدم، والناس أحياناً يخلطون بين الكرامة والكبرياء، فيقولون: "منعته كبرياؤه من كذا وكذا، أو: منعتها كبرياؤها من كذا وكذا"، وهم يشيرون إلى مواقف إنسانية رائعة، والدقة تقضي أن يقولوا: "منعته كرامته، ومنعتها كرامتها".

والحرص على الكرامة فضيلة، أما الانسياق وراء الكبرياء فرذيلة ما بعدها رذيلة.

الفصل السابع: الكبر يدفع إلى الكفر (ب)

قال تعالى: {إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ{22}}. (النحل: 22).

وقال أيضاً: {وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ{6} وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِراً كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْراً فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ{7}}. (لقمان: 6- 7).

إن الكبر الذي يمنع كثيراً من الناس من الإيمان بالله ورسله، والاستجابة إليه، لا ينحصر في استعلائهم على من حولهم من البشر، ولا ينحصر في تعاليهم على رسول منهم يأنفون من اتباعه، أو في تعاليهم على المستضعفين من قومهم الذين آمنوا، أن يكونوا معهم في فريق واحد، بل الاستكبار لا يقف عند حدود.

إنهم يستكبرون عن عبادة الله والخضوع له، ويستنكفون، أي: يأنفون ويمتنعون استكباراً منهم عن أن يسجدوا لله، ويبتغوا رضاه.

إنهم يعيشون في أنفسهم إحساساً طاغياً بعظمة وهمية، تجعلهم يتجرؤون على تحدي الخالق، وعلى إساءة الأدب في حقه.

قال تعالى عن أحدهم:{ أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ{77} وَضَرَبَ لَنَا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ{78}}. (يس: 77- 78).

مجادل وقح، أوله نطفة وآخره جيفة، يقف خصماً مبيناً يجادل في آيات الله، يريد أن يثبت كفره، ويدحض الإيمان بالخالق العظيم واليوم الآخر، ولولا استكباره، وإحساسه بوهم العظمة، لما وقف موقف التحدي هذا.

لإيمان بالله ورسالاته يقوم على الاستقراء تماماً،كما تقوم العلوم الحديثة كلها، اللهم باستثناء الرياضيات التي تعتمد على الاستنتاج

وقد بين الله تعالى أن الكافرين يرفضون الهداية، ويعرضون عنها، لأنهم يأنفون، ويستكبرون عن عبادته جل جلاله، وذلك في آيات كثيرة في القرآن الكريم، منها قوله تعالى: {لَّن يَسْتَنكِفَ الْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْداً لِّلّهِ وَلاَ الْمَلآئِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيهِ جَمِيعاً{172}}. (النساء: 172).

وقال تعالى: {سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ آيَةٍ لاَّ يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلاً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَافِلِينَ{146}}. (الأعراف: 146).

والاستكبار يصد الإنسان عن الإيمان، رغم أن الآيات والدلائل واضحة أمامه، ذلك أن الله لم يجعل في الكون من الآيات ما يلزم العقل إلزاماً بالإيمان به وبرسله، بل دائماً ترك فسحة للعقل، بحيث يؤمن من يؤمن إيماناً بالغيب، ولا يقول: أروني، وأسمعوني، إنما يكفيه أن الآيات والدلائل من حوله قد تجاوبت مع الفطرة المغروسة في أعماق قلبه، في اللاشعور منه، وعندها يشعر بالطمأنينة في قلبه وعقله لهذا الإيمان.

إن الكبرياء وكراهية الهداية التي تقتضي طاعة الله، والخضوع له، تجعل المستكبر يخدع نفسه، ويتعامى عن آيات الله من حوله، وبهذا لا يكون الكفر والإيمان مجرد معطيات عقلية، وتفكير منطقي فحسب، بل هما فعلان إراديان، تقرر النفس القيام بأحدهما استجابة للدواعي النفسية التي ترضاها

فالإيمان بالله ورسالاته يقوم على الاستقراء تماماً،كما تقوم العلوم الحديثة كلها، اللهم باستثناء الرياضيات التي تعتمد على الاستنتاج، والاستقراء بطبيعته لا يصل إلى درجة اليقين الملزم للعقل، بل لا بد للإنسان بعد أن يشير الاستقراء إلى حقيقة ما إشارات قوية، بحيث يبلغ احتمال صحتها ما يقارب المئة بالمئة، لا بد للإنسان مع هذا الاستقراء من نفحة إيمانية، تجعله يتعامل مع ما قاده إليه الاستقراء تعامله مع أي فكرة يقينية يؤمن بها.

فالإيمان بالله من خلال آياته في الأنفس والآفاق، قائم على الطريقة التي يقوم عليها العلم، وليس قائماً على الطريقة التي نؤمن بها بوجود الشمس التي تسطع علينا أشعتها كل يوم، والتي يستحيل على العقل إنكارها، ولو كان الإيمان بالله من هذا النوع الملزم المكره للعقل البشري، لما كان لأحد القدرة على الكفر، ولفقد الإنسان حريته في أن يؤمن أو أن يكفر، ولما كان لهذا الإيمان من فضل يستدعي الثواب العظيم.

وهنا تتدخل كبرياء المستكبرين، إذ يتمكنون من الكفر، مستفيدين من الفسحة التي تركها الله للعقل البشري، ومن الحرية التي أعطاها له.

قال تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ.... }. (الكهف: 29).

وقال سبحانه: {لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ... }. (البقرة: 256).

وقد قال نوح لقومه: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّيَ وَآتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَنُلْزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ{28}}. (هود: 28).

إن الكبرياء وكراهية الهداية التي تقتضي طاعة الله، والخضوع له، تجعل المستكبر يخدع نفسه، ويتعامى عن آيات الله من حوله، وبهذا لا يكون الكفر والإيمان مجرد معطيات عقلية، وتفكير منطقي فحسب، بل هما فعلان إراديان، تقرر النفس القيام بأحدهما استجابة للدواعي النفسية التي ترضاها.

الفصل الثامن: المتألهون الجاحدون

تترك أفعال الإنسان آثارها في قلبه، حيث تزيد الطاعات من شفافيته، وحساسيته، وبصيرته، وحيث ترين المعاصي على هذا القلب، فتحيله معتماً كامداً أعمى.

أكثف الران، وأشده ما يترسب على القلب من معصية الكبر والتعالي الذي قد يصل حد التأله، وكان فرعون مثالاً للمتألهين من البشر

وأكثف الران، وأشده ما يترسب على القلب من معصية الكبر والتعالي الذي قد يصل حد التأله، وقد كان فرعون مثالاً للمتألهين من البشر، فقد قال لقومه: {أنا ربكم الأعلى }. (النازعات:24).

وقال: {قَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي...}. (القصص: 38).

وفي عصرنا الحاضر، عبر فلاسفة الإلحاد عن نزعة الكفر في نفوسهم، وبدا من كلماتهم كيف يمكن لكبر الإنسان أن يبلغ حد التأله فها هو "نيتشه" في كتابه الشهير: "هكذا تكلم زرادشت" يعلن إلحاده، ويقول إنه لو كان هنالك آلهة لما تحمل إلا أن يكون إلهاً.

ومثله الفيلسوف الفرنسي الشهير"جان بول سارتر" الذي كان أقدر على إلباس نزعته إلى التأله لباساً من الفلسفة، فهو يقول: إن الإنسان هو الكائن الذي مشروعه في الحياة أن يكون إلهاً.

إنه يعمم ما بنفسه على البشر جميعاً، ويتعامى عن أن هنالك الكثيرين الذين مشروعهم في الحياة أن يكونوا عبيداً لله، خلفاء في أرضه، يهتدون بهديه، ويبتغون رضاه.

إن الران الذي يتركه الكبر والتعالي، يمكن أن يصل إلى حد الختم على قلب الإنسان، فلا يرى آيات الله في الأنفس والآفاق، ولا يهتدي بهداه.

إن الران الذي يتركه الكبر والتعالي، يمكن أن يصل إلى حد الختم على قلب الإنسان، فلا يرى آيات الله في الأنفس والآفاق، ولا يهتدي بهداه

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ{6} خَتَمَ اللّهُ عَلَى قُلُوبِهمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ{7}}. (البقرة: 6- 7).

وقال تعالى عن قوم فرعون الذين جحدوا نبوة موسى عليه السلام، قال: { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْماً وَعُلُوّاً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ{14} }. (النمل: 14).

وعندما يجحد الإنسان الظالم المستعلي هداية الله، يتذرع بمبررات ظاهرها منطقي، فيقول: أنا إنسان علمي، لا أؤمن إلا بما تثبته التجربة الحسية لي.. إنه يطالب أن نريه ونسمعه ونقدم له ما يلمسه بيديه من الآيات، ويدعي أنه سوف يؤمن في تلك الحال.

لكن الله العليم بذات الصدور يخبرنا أن هؤلاء المعاندين لن يؤمنوا حتى لو جاءتهم آيات يرونها بأعينهم أو يلمسونها بأيديهم، ولسوف يجدون المبررات والأعذار لكفرهم بها.

قال تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَاباً مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ{14} لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ{15}} { الحجر: 14-15}

وقال أيضاً:{ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَاباً فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَـذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ{7} } {الأنعام:7}

ويوم القيامة عندما يرى الكافرون العذاب الذي ينتظرهم يدَّعون أن العائق الذي منعهم من الإيمان كان نقص الدليل الحسي الملموس، وأن هذا الدليل قد وجد، وهاهم قد آمنوا، ويطلبون فرصة أخرى يعملون فيها الصالحات.

قال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُؤُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً إِنَّا مُوقِنُونَ{12}} {السجدة:12}

هم أنفسهم كان لهم موقف مختلف في الدنيا، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُّجْرِمِينَ{31} وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُم مَّا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ{32} وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون{33} وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاء يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمْ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ{34} } {الجاثية: 31-34}

لا يمكن فهم سلوك إنسان ما فهماً صحيحاً، ما لم نتعرف على الدافع النفسي الذي دعاه إلى فعل ما، أو نهاه عن فعل آخر

والله تعالى لن يعطيهم فرصة ثانية، لأنه لو أعطاهم فرصة ثانية لاقتضى أن يزيح ذكرى موقفهم لديه ورؤيتهم لناره إلى لاشعورهم، مثلما أزاح موقف الإشهاد الذي تمر به ذريَّة بني آدم وهم في بطون أمهاتهم، وذلك كي يكون الإيمان به بالغيب، فيكون داعياً لثوابه، إذ يكون نابعاً من حريَّة الإنسان دون أي إكراه عقليٍّ.

وقد قال تعالى عن المجرمين أنه لو أعادهم إلى الدنيا لعادوا إلى ما نُهُوا عنه من معصية وكفر...قال تعالى: {وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ فَقَالُواْ يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ{27} بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ{28} وَقَالُواْ إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ{29}} {الأنعام : 27-29}

وهؤلاء المطالبون بالدليل الحسي الملموس هم أنفسهم عندما يحيط بهم الموج من كل جانب، ويشعرون أن الموت قريب منهم يتنازلون عن كبريائهم، ويؤمنون بالله، ويتضرعون له مخلصين له الدين بشهادة ربِّ العالمين على إخلاصهم.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ

وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَـذِهِ لَنَكُونَنِّ مِنَ الشَّاكِرِينَ{22} فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنفُسِكُم مَّتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَينَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ{23} } {يونس: 22-23}

وقال تعالى:{ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ{65}}{العنكبوت: 65}.

الفصل التاسع: اختبار القابلية للهداية

في مسيرة حاشدة، حشر سليمان –عليه السلام– جنوده من الإنس والجن والطير وذلك في انضباط رائع.

وتفقد سليمان عليه السلام جنوده، وتفقد الطير فلم يجد الهدهد، فقال بحزم القائد العسكريّ الذي لا يسمح بفوضى أو تسيّب بين جنوده: ما لي لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين؟ لأعذبنّه عذاباً شديداً أو لأذبحنّه أو ليأتينّي بسلطان مبين.

وعاد الهدهد من غيبته... ما كان الهدهد ليتغيب عن مسيرة الجند استخفافاً بأوامر سليمان – عليه السلام – إنما كان في عملية استطلاعية رائعة.

عاد الهدهد ومكث غير بعيد من سليمان عليه السلام، وقال له: أحطت بما لم تحط به، وجئتك من سبأٍ بنبأٍ يقين، إني وجدت امرأة تملكهم، وأوتيت من كلّ شيءٍ ولها عرش عظيم. وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون. ألاّ يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السماوات والأرض ويعلم ما تخفون وما تعلنون، لا إله إلاّ هو ربّ العرش العظيم.

استمع سليمان عليه السلام لما قاله الهدهد، لكنّه كان حذراً يضع كلّ الاحتمالات في باله فلم يأخذ حكاية الهدهد شيئاً مسلماً بصحتّه، فلربّما كانت كذبةً أراد الهدهد أن يتخلص بها من عقوبة يستحقّها على تغيّبه عن مسيرة الجند السّليماني، فأعطى سليمان – عليه السلام – الهدهد كتاباً يحمله إلى ملكة سبأٍ وينتظر ردّ فعلهم على الكتاب. قال سليمان – عليه – السلام للهدهد: سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين. اذهب بكتابي هذا فألقه إليهم، ثم تولّ عنهم فانظر ماذا يرجعون.

ليس المال والمتاع بحد ذاته شيئا مذموماً يتنافى مع الإيمان والتقوى، إنمّا الأعمال بالنيات، والدافع النفسي وراء امتلاك المال والمتاع هو الذي يجعله دنيا على المؤمن اجتنابها، أو يجعله (خيراً) يسعى إليه المؤمن دون شعور بالذنب

وألقى الهدهد كتاب سليمان عليه السلام إلى ملكة سبأٍ، فأخبرت به قومها.. قالت: يا أيها الملأ! إني ألقي إليّ كتابٌ كريمٌ، إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم: ألاّ تعلوا عليّ ، وائتوني مسلمين.

وقالت تطلب مشورتهم: يا أيها الملأ أفتوني في أمري، ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون.

قالوا: نحن أولو قوةٍ وبأسٍ شديدٍ، والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين.

لقد ذكّروها بقوتهم العسكريّة، لكنها لم تحبّذ هذا الرّد على سليمان عليه السلام فقالت للملأ من قومها: إنّ الملوك إذا دخلوا قريةً أفسدوها، وجعلوا أعزّة أهلها أذلّةً، وكذلك يفعلون.. وإنيّ مرسلةٌ إليهم بهديّة فناظرةٌ بم يرجع المرسلون.

كانت تريد اختبار صدق سليمان عليه السلام في دعوته لها ولقومها، هل كانت دعوته نابعةً من رغبة في توسيع ملكه وكسب المال، إذاً فليكن له المال والهدايا وعندها يتناسى أمر الدعوة.

لكنّ سليمان عليه السلام كان يريد إسلامهم لا أموالهم. فلما جاء وفدهم إلى سليمان قال عليه السلام: أتمدّونني بمالٍ؟! فما آتاني الله خيرٌ مما آتاكم بل أنتم بهديّتكم تفرحون.. ارجع إليهم فلنأتينّهم بجنودٍ لا قبل لهم بها ولنخرجنّهم منها أذلّةً وهم صاغرون.

وبعد أن ردّ سليمان عليه السلام هدية الملكة علم أنّها ستقدم إليه من بلادها، فأراد أن يختبرها، وأن يريها تفوّقه عليها في قدراته وقدرات جنده وبلاده، مما سيكون أدعى إلى إسلامها، إذ الرغبة في الانتماء هي من أهم العوامل النفسية الكامنة وراء الإيمان.

وأراد سليمان اختبار قابليتها للهداية، ومعرفة إلى أي حدٍّ تتحكم بها الكبرياء، أم هي متحررة منها، وهل هي تقر بالحقّ إن كان الحقّ يحرمها من الظهور والعلوّ، ولو كان إنكارها له سهلاً يصعب على الآخرين اكتشافه.

أمر سليمان عليه السلام جنده بإحضار عرشها العظيم إلى قصره دون أن تعلم بالطبع فقد خرجت من بلادها متجهة إلى القدس حيث سليمان عليه السلام، فأحضره له جنديٌّ ذو علم من الكتاب في طرفة عين.

قالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان).

قال سليمان عليه السلام: نكِّروا لها عرشها ننظر أتهتدي أم تكون من الذين لا يهتدون.

ما كان سليمان عليه السلام وهو الحكيم يريد اختبار ذاكرتها... وأيُّ ملك يرى في عرشه وتاجه أغلى ما يملك سيشكل عليه معرفة عرشه أو تاجه إذا ما عرض عليه؟ لقد أراد سليمان عليه السلام أن يرى مدى خضوعها للحقِّ، ومدى صدقها، مع أن صدقها يخفض من مكانتها كملكة، إذ هي تقرُّ أن لدى سليمان في إحدى زوايا قصره عرشاً مثل عرشها، فما يكون ملكها وغناها إزاء ملكه وغناه؟!

كان هيناً عليها أن تنكر أنّ العرش الذي يعرض عليها مثل عرشها، وكانت تستطيع الادّعاء أنّ عرشها أعظم من ذلك بكثير، إذ أنّى لسليمان عليه السلام أن يعرف أنها تكذب ما دام عرشها على بعد آلاف الأميال، ولم يره من رجاله أحدٌ؟

إذا ما نجح المؤمن في إبعاد إرادة العلوّ في الأرض، أو إرادة الفساد فيها عن نفسه، فإن سعيه هذا يكون في سبيل الله

لكن الملكة العاقلة ما كانت لتنساق وراء كبرياء زائفةٍ بحيث تبطر الحقّ وتغمط الناس، بل لما جاءت وقيل لها: أهكذا عرشك؟ قالت على الفور: كأنه هو... جواب فوريٌّ دون تردُّدٍ، لم تقف كبرياء زائفةٌ عائقاً أمامه.. إنها إذاً امرأة عاقلة قابلة للهداية.

وبعد هذا الاختبار النفسيِّ الذي يمكن وصفه أنه اختبار شخصية بمصطلحات علم النفس المعاصر، بعد هذا الاختبار قيل لها: ادخلي الصرّح، فلما رأته حسبته لجّةً وكشفت عن ساقيها حتى لا يتبلل ثوبها بالماء. فقال سليمان عليه السلام: إنه صرحٌ ممرّدٌ من قوارير.. أي أن ما رأته ماء لم يكن إلاّ انعكاس الضوء في الزجاج الذي بني منه الصرّح.

ما كان سليمان عليه السلام يريد التعالي عليها، إنما كان يريد تحطيم الحواجز النفسية التي تقف عائقاً أمام إيمانها، وقد أصاب سليمان عليه السلام إذ قالت ملكة سبأٍ على الفور:{... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ }النمل44

إذن ليست القضية قناعة عقلية لا يستطيع الإنسان مخالفتها بل هو قرار حرٌّ اتخذته بلقيس عندما رأت تفوّق سليمان عليه السلام وأمته فرغبت في الانضمام إليهم فأسلمت مع سليمان والرغبة في هذه المعية كانت العامل المرجح لدواعي الإيمان في نفسها.

وهكذا نرى حكمة سليمان عليه السلام الذي عرف أهمية التفوق العلمي والتقني والعمراني لجذب الشعوب الأخرى إلى دين الله، كما كان انتصار المسلمين داعياً لدخول الناس في دين الله أفواجاً لا نفاقاً.

قال تعالى:{إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ{1} وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجاً{2} فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً{3}} سورة النصر.

ب- مشكلة الدافعية عند المسلم المعاصر:

الفصل الأول :النية والدافع النفسي

إنّ المال والعلم هما عصبا القوة في هذا العصر، ولئن كان المؤمن القادر على طلب العلم والإبداع فيه كالمجاهد في سبيل الله إن هو أقبل على العلم متحررا من حبّ الظهور أو الفساد

لا يمكن فهم سلوك إنسان ما فهماً صحيحاً، ما لم نتعرف على الدافع النفسي الذي دعاه إلى فعل ما، أو نهاه عن فعل آخر.

والإمام الغزالي رحمه الله يسمّي الدافع النفسي (الباعث)، وابن الجوزي رحمه الله يسميه (الداعي). وكلا المصطلحين يؤكدان على حرية الإنسان أكثر من مصطلح الدافع الذي صاغه العلماء الغربيون.

أما النبي صلى الله عليه وسلم فقد أكّد على أهمية النية، وهي وليدة الدافع النفسي، والجزء الذي يكون في الشعور منه، ويستطيع الإنسان بسهولة أن يتفحّصها، وبالتالي أن يعدّل فيها بما يضمن له قبول أعماله عند المولى سبحانه وتعالى .

قال صلى الله عليه وسلم: (إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) (متفق عليه).

إنّ المسلم المعاصر يواجه مشكلة في الدافعية، حيث تتصارع في نفسه أنواع الدوافع الداعية والناهية، وذلك بما يخصّ إقباله على الحياة بما فيها من سعي وعمل، هدفه القريب جمع المال، أو إمتاع النّفس.

فالتقيّ يقبل على جمع المال، أو التمتع المباح وهو متردد يحسّ بالذنب، ويرى نفسه مضطرا إلى شر لا بدّ منه، ويبقى ميدان السعي هذا ينطلق فيه الغافلون، الذين صنّفوا أنفسهم أنهم من أهل الدنيا، فيندفعون في سعيهم وراء المال والمتعة،

وهم كالتقي يرونها معصية، لكنهم قرروا اختيار طريقها، لا يهمّهم ما يكون جزاؤهم إن صحّ أنّ ما يفعلونه معصية.

لكن الإسلام دين الفطرة، وحب الخير–والمال أهمّ أشكال الخير– من الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والإنسان مستخلف في الأرض، وعمارة الأرض جزء هام من هذا الاستخلاف، وكيف يبلغ الاستخلاف مداه إن كان المؤمن مترددا في إقباله على كسب المال، ولم يركّز أقصى طاقاته وإمكاناته في سبيل ذلك ؟

لقد أثنى الله كثيرا على سليمان عليه السلام مع أنّه دعا الله، وطلب منه ملكا لا ينبغي لأحد غيره من البشر، ولنقرأ ما قصّه الله علينا في كتابه الكريم عن حبّ سليمان عليه السلام للمال، بل عن حبّه لحبّ المال: {وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ{30} إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ{31} فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ{32} رُدُّوهَا عَلَيَّ فَطَفِقَ مَسْحاً بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ{33} وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا عَلَى كُرْسِيِّهِ جَسَداً ثُمَّ أَنَابَ{34} قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَّا يَنبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ{35} فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاء حَيْثُ أَصَابَ{36} وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاء وَغَوَّاصٍ{37} وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ{38} هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ{39} وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ{40}} (ص: 30–40).

إذاً لقد أحبّ سليمان عليه السلام من المؤمن أن يحبّ الخير، وما يشمله من المال الحلال، وكان حبّه عليه السلام لذلك نابعا وصادرا عن ذكر الله لا عن غفلة ونسيان.

وها هو بعد أن اختبره الله، ثمّ أناب، يطلب من ربّه المغفرة والملك الذي لا ينبغي لأحد من بعده... وبعد أن يعطيه الله ما سأل، يخبرنا أنّ لسليمان عليه السلام عنده (لزلفى وحسن مآب).

ليس المال والمتاع بحد ذاته شيئا مذموماً يتنافى مع الإيمان والتقوى، إنمّا الأعمال بالنيات، والدافع النفسي وراء امتلاك المال والمتاع هو الذي يجعله دنيا على المؤمن اجتنابها، أو يجعله (خيراً) يسعى إليه المؤمن دون شعور بالذنب.

والمؤمن التقي إذا ما تجنّب أن يكون دافعه إلى المال والمتاع إرادة العلوّ في

عندما يسعى المؤمن إلى المال الكثير، فإنّه لا يخرج عن سبيل الله إلا إن دفعه إلى ذلك إرادة العلوّ في الأرض، أو إرادة الفساد فيها، أو إن هو لجأ إلى ما حرّم الله من سبل كسب المال

الأرض أو الفساد فيها، فإنّ الجنة ستكون مأواه، ذلك أنّه عندما يتجنب إرادة العلوّ في الأرض، أو إرادة الفساد من خلال ما يعمله في حياته، فإنه يكون قد طهّر نفسه من الدافعين المحرمين؛ اللذين يجعلان المال والمتاع حتى لو جاءا من حلال دنيا مرذولة محرّمة.

قال تعالى بعد أن قصّ علينا كيف خسف بقارون وبداره الأرض، منبها لنا إلى أنّه لم يكن ذنب قارون أن كان غنيا، بل أنّه كان متعاليا في الأرض ومفسدا فيها، قال:{ إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ{76} وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77} قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ القُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ{78} فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ{79} وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ{80} فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ{81} وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ{82} تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{83}} (القصص: 76 – 83).

أمّا شكر النّعمة فقد جعل الله له مكافأةً فوريّةً وهي أن يزيدنا الله من نعمه

الفصل الثاني: فهو في سبيل الله

كان النبي صلى الله عليه وسلم مع بعض أصحابه، فمرّ عليهم رجل ذاهب إلى عمله، وكان الرجل قويّ البنية، ويبدو عليه النشاط والجلد، فخطر ببال الصحابة أن لو كان سعي هذا الرجل القويّ في الجهاد في سبيل الله، وكانوا يظنون أنّ قوّة البدن والجلد والنشاط لا تكون في سبيل الله إلا في مواطن الجهاد، وأنّ إنفاقها من أجل السعي والعمل اليومي في سبيل الرزق إضاعة لها، فقال أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم عندما رأوا ذلك الرجل القويّ النشيط في

طريقه إلى عمله اليومي قالوا: يا رسول الله! لو كان هذا في سبيل الله! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن كان خرج يسعى على ولده صغارا فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على نفسه يعفها فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله، وإن كان خرج يسعى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان). (رواه الطبراني).

إذاً هما الدافع والنية اللذان يجعلان من العمل اليومي، ومن السعي إلى الرزق عبادة أو معصية. إن كان الإنسان يقوم بما يقوم به تدفعه إلى ذلك إرادة العلوّ في الأرض، أو إرادة الفساد فيها، فإنّه في معصية. أما إن كان المؤمن يسعى وراء الرزق، ويبذل ما يستطيع ليستزيد منه بالحلال، ونفسه متحرّرة من شهوة التعالي، أو من أيّة نزعة إلى الفساد في الأرض، فإنّ ما يبقى في نفسه من دوافع وراء سعيه يكفي ليحيل عمله اليومي إلى عبادة والى سعي في سبيل الله... ويبقى المقياس قوله تعالى:{ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ{83}} (القصص:83).

المؤمن يسأل الله من خيري الدنيا والآخرة ولا يقتصر همه على الدنيا وينسى الآخرة، كما لا يقتصر همه على الآخرة وينسى الدنيا التي يعينه صلاحها على بلوغ غايته من الفوز بالآخرة

لقد قامت نهضة الغرب العلمية والتقنية على رجال أفنوا أعمارهم في العلم، أو الصناعة، أو التجارة، يحرمون أنفسهم من المتع وهم الأثرياء لا بخلا على أنفسهم، إنمّا نسيانا لها في خضم استغراقهم في التّعلّم، أو البحث العلمي، أو توسيع تجارتهم وصناعتهم، لكن الدافع النفسي لديهم كان في اغلب الأحيان إرادة العلوّ في الأرض... إنهم يريدون المجد العلمي، أو بناء إمبراطورية شخصية من شركات ومصانع تشبع شهوتهم إلى العظمة والكبرياء.

ورغم الدافع الرديء وراء جهودهم، وجلدهم، ونشاطهم، فإنّ ما حققوه صبّ وتجمّع في تيار قوي حققت أممهم من خلاله التفوق والغلبة على باقي الأمم. إنّ سعيهم إنمّا هو سعي في سبيل الشيطان: لأنه سعي قائم على الرياء، والمفاخرة، وحبّ الظهور. لكن المؤمن يستطيع أن يفعل مثلهم دون أن يسعى مثلهم إلى العلوّ في الأرض، إنمّا له أن يعمل ليل نهار في سبيل الاستزادة من العلم، ومن أجل البحث العلمي والاكتشاف، أو أن يعمل ليل نهار حتى ينجح مشروعه التجاري، أو الصناعي، ويتوسع ويصبح مشروعا عملاقا قادرا على المنافسة الشريفة، ويأتيه بالأرباح العظيمة.

وإذا ما نجح المؤمن في إبعاد إرادة العلوّ في الأرض، أو إرادة الفساد فيها عن نفسه، فإن سعيه هذا يكون في سبيل الله. فالنفس لا تخلو أبدا من الدافع والنية وراء أيّ عمل تقوم به، وإن هو تجنّب الدافعين المحرمين، فلا بدّ لدافع آخر أن يبقى في نفسه، ويكون دافعا يرضى عنه المولى، وبذلك يكون السعي وراء المال الكثير الحلال سعياً في سبيل الله، ولا حاجة للمؤمن التقيّ إلى أن يتردّد في ذلك، فنعم المال الصالح للعبد الصالح كما قال النبي صلى الله عليه وسلم.

وهذا المؤمن الثري، حتى لو لم يعط من ماله الكثير سوى الزكاة، فإنّه بمشاريعه يوجد فرص العمل الكثيرة لباقي المؤمنين، وبجلده ونشاطه يساهم في الاستقلال، والاكتفاء الذاتي لأمتّه وبلاده، بحيث تستغني عن أعدائها في طعامها ولباسها وكلّ احتياجاتها، فكيف إن كان هذا المؤمن الغنيّ ممن ينفقون مع الزكاة الكثير؟ إنه سيكون على طريق عثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وغيرهما من أثرياء الصحابة؛ الذين كانوا يمتلكون الثروات الواسعة، وينفقون في سبيل الله منها المبالغ الطائلة.

لقد كانت ثرواتهم بمثابة مركب حملهم إلى الجنة، وهم المبشّرون بها، وما كانت هذه الثروات لتتكوّن لديهم بضربة حظ، إنما هو الجهد والدّأب دون تردد، أو إحساس بالذنب أو سوء فهم لدين الله، أو ظنّ أنّ إقبالهم على جمع المال الكثير الحلال إنما هو انكباب على الدنيا، وإعراض، وغفلة عن الآخرة.

إنّ المال والعلم هما عصبا القوة في هذا العصر، ولئن كان المؤمن القادر على طلب العلم والإبداع فيه كالمجاهد في سبيل الله إن هو أقبل على العلم متحررا من حبّ الظهور أو الفساد، فإنّ المؤمن الماهر في التجارة والصناعة إن هو أقبل على تجارته وصناعته بأقصى اهتمام ونشاط واندفاع، فإنّه سيكون في سبيل الله أيضا ما دام متواضعاً لله، ساعياً إلى الصلاح في الأرض، ولا يدفعه إلى ما يقوم به إرادة العلوّ أو الفساد.

على الدعاةِ إلى الله أن يدركوا أهمّيةَ ذلك كي يحرّروا المؤمنين الأتقياء من صراعهم النفسي وتردُّدهم بين الإقبال على الدنيا والإحجام عنها، وَلِيُحَرِّرُوهُمْ من ظنّهم أنّ المال والمتعة الحلال لا يليقان بالتقيّ، مع أنّ النفس تميل إليهما والحياة لا تستقيمُ إلا بهما

الفصل الثالث: خلفاء الله في أرضه

عندما يسعى المؤمن إلى المال الكثير، فإنّه لا يخرج عن سبيل الله إلا إن دفعه إلى ذلك إرادة العلوّ في الأرض، أو إرادة الفساد فيها، أو إن هو لجأ إلى ما حرّم الله من سبل كسب المال.

أما إن هو اجتنب النوايا المحرمة، والوسائل المحرمة، فإنّ عمله يكون في سبيل الله، وما كان في سبيل الله فهو عبادة، له أن يتوقَع عليها الأجر والمثوبة.

والإنسان مفطورٌ على حبّ الخير، والخير عند العرب وفي القرآن الكريم يعني في بعض الآيات المال.

وقد جعل المولى سبحانه وتعالى المال والبنين من ضمن ما رغّب به الناس كي يؤمنوا، ويتّقوا، مع أنّه وصف المال والبنين بأنّهما زينة الحياة الدنيا، فلم يقتصر وعده للمؤمن على ثواب الآخرة، بل جعل شيئاً معجّلاً مما ترغب به نفسه، وذلك كي يزيد الدافعية لديه، فالإسلام دين الفطرة يجاريها ولا يعاكسها .

فها هو نوحُ عليه السلام يروي ما وعد به قومه إن هم آمنوا....قال تعالى: {ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَاراً{8} ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً{9} فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً{10} يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَاراً{11} وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً{12}} (نوح:8_12).

إذاً لو آمن قوم نوح عليه السلام واستغفروا الله لغفر لهم، ولأرسل السماء عليهم مدراراً بمطرٍ يحيل أرضهم جناتٍ وأنهاراً، ولأمدهم بأموالٍ وبنين... وبذلك يجتمع لهم الرّفاهية والقوّة في الحياة الدنيا ....

على الدعاةِ أن يُنبِّهوا الناس إلى الخير الدنيوي الذي لهم أن يتوقعوه إن هُمْ آمنوا واستغفروا واتّقوا، وهذا مما يزيد دافعيتهم للإيمان، ومما يزيد دافعية من آمن منهم للعمل الصالح ، وتقوى الله

ولو كان ذلك مما يكرهه الله لما وعد به الناس إن آمنوا واستغفروا.

وإن كان العطاء الواسع فتنةً واختباراً بحدَ ذاته، فهو يستوجب الشُّكر لله تعالى، كما يستوجب عدم التعالي به على الناس، وعدم استخدامه في معصية الله، والفساد في الأرض. قال تعالى: {وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاء غَدَقاً{16} لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً{17}} (الجن:16-17)

أمّا شكر النّعمة فقد جعل الله له مكافأةً فوريّةً وهي أن يزيدنا الله من نعمه.قال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ{7}} (ابراهيم: 7)

بل لقد وعد الله المزيد من الرزق كجائزةٍ للتقوى، قال تعالى: {وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجاً{2} وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ} (الطلاق:2-3)

وذكر الحقُّ تبارك وتعالى عن المؤمنين الصالحين أنهّم يسألونه من خيري الدنيا والآخرة، فلا يرون خير الدنيا شيئاً لا يليق بالمؤمن التقيّ الساعي إلى الآخرة. قال تعالى: {فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِنْ خَلاَقٍ{200} وِمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ{201} أُولَـئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ{202}} (البقرة: 200-202)

إذن المؤمن يسأل الله من خيري الدنيا والآخرة ولا يقتصر همه على الدنيا وينسى الآخرة، كما لا يقتصر همه على الآخرة وينسى الدنيا التي يعينه صلاحها على بلوغ غايته من الفوز بالآخرة، فمطلبه ان يرزقه الله في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة.

ومن مقوّمات الشُّكر على النعمة أن يبتغي المؤمن بها الدار الآخرة فيستخدمها في البّر والطاعات، ولكن دون أن ينسى نصيبه من الدنيا، إنّه نصيبه المعترف له به، والمقسوم له، وإذا ما ابتعد المؤمن عن الرياء، والمفاخرة، واستخدام ثروته في التعّالي في الأرض، أوفي ارتكاب الفواحش، وغيرها من المعاصي، وصور الفساد في الأرض، فإنّ نصيبه من الدنيا لن يستهلك ثروته كلّها إن كانت عظيمةً.

قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ{77}} (القصص: 77).

إن الدنيا تنتظر الأتقياء أن يقبلوا عليها، فيكون منهم التّاجر صاحب التجارات الواسعة أو الشركات العملاقة، والحرفيُّ الماهر، والعالم المخترع، والفنان المصلح .

لقد ملّت الدنيا من إقبال الفجّار عليها وغيبة الصالحين، إنّها تفتقد التاجر الأمين الذي لايغشُّ ولا يحتكر، ولا يستغلُّ حاجةَ الناس إلى سِلْعة فيمتصُّ دماءَهُمْ، وهي تفتقدُ الغنيَ الذي لا يفسد في الأرض بماله ولا يستعلي به على الخلق، إنها تنتظرُ الإنسان الخليفةَ الذي يكونُ على أفضلِ مثالٍ، فيكون قدوةً ونموذجاً للبشريةِ يقولُ لهم هكذا تكون الخلافة في الأرض، إقبال على العمل والبناء لكن دون تعالٍ أو فسادٍ، ودون غشٍّ أو أكلٍ لما حرم الله .

إنّ على الدعاةِ إلى الله أن يدركوا أهمّيةَ ذلك كي يحرّروا المؤمنين الأتقياء من صراعهم النفسي وتردُّدهم بين الإقبال على الدنيا والإحجام عنها، ولَيُحَرّرُوهُمْ من ظَنّهم أنّ المال والمتعة الحلال لا يليقان بالتقيِّ، مع أنَّ النفس تميل إليهما والحياة لا تستقيمُ إلا بهما، بل هما مما رغَّبَ الله به الناس كي يؤمنوا ويتوبوا ويتقوا ...

على الدعاةِ أن يُنبَهوا الناس إلى الخير الدنيوي الذي لهم أن يتوقعوه إن هُمْ آمنوا واستغفروا واتّقوا، وهذا مما يزيد دافعيتهم للإيمان، ومما يزيد دافعية من آمن منهم للعمل الصالح ، وتقوى الله.

إنّ كثيراً من المؤمنين قد يستسهلون الوقوع في معصيةٍ آملين أن يغفر الله لهم في النهاية، لكنّ قلائل منهم من هو مستعدّ أن يخسر شيئاً من الرّزق الذي كتبه الله له، وذلك عقوبة ً له على معصيةٍ يقع فيها، وبذلك تكون خشيته من أن يحرم من بعض رزقه دافعاً له للتقوى، واجتناب ما حرمّ الله.

الأتقى عند الله كريم مكرم لا ذليل مستذل، وكلما زاد المؤمن تقىً زاد عند الله كرامة

قال صلى الله عليه وسلم: (لا يزيد في العمر إلا البرُّ، ولا يرد القدر إلا الدعاء، وإنّ الرجل ليحرم الرزق بخطيئةٍ يعملها) (ابن ماجه رقم 90) .

إنّ مشكلة الدّافعية في حياة المسلم المعاصر تحتاج إلى الكثير من الانتباه كي ينطلق هذا المسلم متحرراً مما يكّبله، ويعيقه عن أداء دوره كخليفةٍ في الأرض، يحمل المودة والرحمة قي قلبه والخير في يديه، ويأخذ نصيبه من الدنيا، ويزداد قوة، فيكون للناس نموذجاً تشتاق النفوس إلى تقليده.

الفصل الرابع: بل عباد مكرمون

قال تعالى عن الذين ادعوا أن الملائكة بنات الله: {وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ} الأنبياء26

بل عباد مكرمون أي الملائكة عباد لله مكرمون، وهي عبارة تجمع الأضداد حيث تصف الملائكة أنهم عبيد أو عباد لله وتثبت لهم الكرامة والمكانة العالية فهم مكرمون مع أنهم عبيد، وهكذا هي دوماً العبودية لله تعالى ترفع ولا تخفض، وتعز ولا تذل، قال تعالى: {يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} المنافقون 8

العزة لله ولرسوله وللمؤمنين.. وليس المؤمن ذليلاً إلا على والديه أو على باقي المؤمنين ذلاً من الرحمة لا ذلاً من المهانة وانخفاض القدر، قال تعالى: {وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً} الإسراء24. وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لآئِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ} المائدة54

وقال أيضاً: {لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلاَ يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلاَ ذِلَّةٌ أُوْلَـئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } يونس26

وقال عن الكافرين الرافضين لهدايته: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} المعارج44

وقال: {خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} القلم43

وقال عن عصاة بني إسرائيل: {إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ } الأعراف152

هكذا تكون الذلة عقوبة للمستكبرين الرافضين للهداية جزاء من جنس عملهم حيث الكبر دافعهم الأول للعصيان، ولا تجد المؤمن مطالباً بالذلة أو مشجعاً عليها إلا ذلة الرحمة للوالدين وقد بلغا الكبر وتقدمت بهما العمر وأحنت ظهريهما، أو ذلة المؤمن للمؤمن حيث المودة والرحمة هي العلاقة اللائقة بمجتمع المؤمنين.

ولا تجد فرضاً للذلة على المؤمن حتى لخالقه جل وعلى رغم أنه ربه ومالكه، بل تجد العلاقة المثلى بين هذا الخالق الكريم وعباده الصالحين هي علاقة الحب المتبادل والطاعة من قبل العبد لمولاه، طاعة تليق بعظمته وحكمته التي نؤمن بها، يقابلها ربنا برضاه عنا وحمايته لنا، وهذه قضية يجب أن تكون واضحة في أذهاننا حيث كثرت الدعوات من بعض المؤمنين إلى التذلل لله والتركيز على الذل أمام الله الذي يستحق منا ما أكثر من التذلل له، لكنه الرحمن لم يطالبنا بالذلة له بل أكد على تكريمه لنا كبشر وأكد على أن أكرم الناس عنده أتقاهم، قال تعالى:

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} الحجرات 13

فالأتقى عند الله كريم مكرم لا ذليل مستذل، وكلما زاد المؤمن تقىً زاد عند الله كرامة. ولعل الرجلين الذين حققا العبودية لله حق التحقيق هما إبراهيم ومحمد صلى الله عليهما وسلم فاستحق كل منهما أن يكون لله خليلاً، وكم في هذه المرتبة من تكريم!

نحن مخلوقات لله وملكاً له لكنه جعلنا مستخلفين في الأرض نحقق في أنفسنا صفاته وأخلاقه وإن كان حرم علينا أن نستكبر أو نستعلي لأن العظمة والكبرياء لا تنبغيان إلا له جل في علاه، لكن الإنسان مكرم على سائر المخلوقات قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً } الإسراء70

وقد أمر الله ملائكته أن يسجدوا لآدم عندما خلقه، سجود التحية، مما استفز إبليس وأغضبه أن الله كرم آدم عليه، وهذا يؤكد لنا أن المطلوب من المؤمن هو الحب والطاعة لا الذلة والمهانة، ولعل الإسلام هو الدين الوحيد الذي يحافظ على كرامة الإنسان حتى في علاقته مع ربه ومولاه.

والعلاقة بين المؤمن وربه في الإسلام علاقة حب متبادل، وهي علاقة شخصية بين ذات إنسانية مخلوقة لتكون خليفة لله في أرضه وذات إلهية ليس كمثلها شيء لكنها موصوفة في القرآن الكريم والحديث الشريف بما يقربها إلى نفس الإنسان ويجعلها قابلة للحب والمناجاة، بينما المبالغة في تنزيهه سبحانه وتعالى تجعل التوجه له بالحب، والشعور بالعلاقة الرائعة معه، أمراً عسيراً على النفس البشرية المحكومة بقدرتها على الإدراك والتعاطف، كل ذلك دون أن ينسى المؤمن أن الله ليس كمثله شيء كما قال هو عن نفسه: {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ} الشورى11

وهذا يعني أن أفضل منهج للاعتقاد بصفات الخالق سبحانه وتعالى هو منهج سلف هذه الأمة الذي كانوا عليه قبل أن يتأثر المسلمون بالفلسفات والثقافات التي

> العلاقة بين المؤمن وربه في الإسلام علاقة حب متبادل، وهي علاقة شخصية بين ذات إنسانية مخلوقة لتكون خليفة لله في أرضه وذات إلهية ليس كمثلها شيء لكنها موصوفة في القرآن الكريم والحديث الشريف بما يقربها إلى نفس الإنسان ويجعلها قابلة للحب والمناجاة

اطلعوا عليها لدى الأمم الأخرى، أي الإيمان بصفاته التي وصف بها نفسه بلا تأويل ولا تعطيل، لأنها كما وردت تمكن قلب المؤمن من التفاعل الوجداني مع خالقه، حيث الحب هو الدافع الأكبر للإيمان ومنه تستمد حلاوة الإيمان بالخالق العظيم.

ولنتأمل ما يقوله ربنا سبحانه وتعالى في الحديث القدسي عن حبه للمؤمن الصالح، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الله قال: من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذني لأعيذنّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته). (رواه البخاري)

حب ورحمة ومراعاة للمشاعر في أرقى صورها لا يليق غيرها بالودود الرحمن اللطيف الكريم جل في علاه.

الفصل الخامس: بالتقوى يصير المباح عبادة

يتحرّج كثير من المؤمنين الأتقياء من إعطاء النفس حقّها من اللهو المباح، بما يشمله من ممارسة أنواع الرياضة البدنية المفيدة لبناء جسم قوي، وللحفاظ على العافية البدنية إلى آخر العمر.

يتحرّج كثير من المؤمنين الأتقياء من إعطاء النفس حقّها من اللهو المباح، بما يشمله من ممارسة أنواع الرياضة البدنية المفيدة لبناء جسم قوي، وللحفاظ على العافية البدنية إلى آخر العمر

والظّنّ لدى هؤلاء الأتقياء أنّ اللهو حتى لو كان بما أباحه الله إنما هو في أحسن الأحوال إضاعة للوقت فيما لا ثواب فيه، لذا تراهم يحرمون أنفسهم، ويحرمون أسرهم من كثير من المتع المباحة، ومن الرياضات البدنية وأنواع الترويح الأخرى، مما ينعكس على صحتهم البدنية وصحة أولادهم ترهلاً وضعفاً، ويجعلهم عرضة للأمراض التي تصيب من لا يمارس الجهد البدني عادة، ومما ينعكس على صحتهم النفسية ميلاً إلى الكآبة يقلل من إنتاجيتهم الفكرية، بل وحتى التعبُدية لأن المزاج المتكدّر لا يعين على العبادة .

ولكن الإسلام دين الفطرة، ولا يمكن أن يتعارض معها، وقد اكتشف العلماء المعاصرون أجزاء من دماغ الإنسان وظيفتها أن تولّد الإحساس بالمتعة واللذة إذا

ما نبّهها المنبّه المناسب، ووجدوا أنها هامة جدا للعافية النفسية، حيث يؤدي تنبيهها إلى إخراج الإنسان من اكتئاب نفسي لم ينفع في علاجه دواء، وإلى بث روح الأمل والتفاؤل لديه، وملئه بالحيوية والنشاط.

فالإنسان لا يمكنه أن يحيا طبيعياً معافى نفسياً دون شيء من المتعة والترويح... وطالما أن الله ركّب في أدمغتنا أجهزة للاستمتاع، فلا يمكن أن يتعارض الاستمتاع مع دين الله.

قال تعالى:{يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ{31} قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِيَ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِي لِلَّذِينَ آمَنُواْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ{32} قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ{33}} (الأعراف:31-33).

إذاً الذي حرّمه الله ينحصر في الفواحش، والإثم، والبغي بغير الحق، والشرك، والتَّقَوُّل على الله، وأحلّ ما وراء ذلك من متع وزينة أخرجها الله لعباده قاصداً بذلك أن تكون مصدر متعة وجمال لهم، ولن يكون في استمتاعهم، أو تزيّنهم بها خروج عن أمره.

لكن السؤال يبقى دائما: أوَليس في اللهو المباح إضاعة للوقت فيما لا ثواب عليه؟...

والنبيُ قد بيّن لنا في المتع المباحة ميزاناً بحيث اذا ما تحقّق فيها الشرط الأكبر، وهو اجتناب ما حرّمه الله صار لنا في المتع أجر ومثوبة، أي: صارت عبادة.

روى مسلم في صحيحه عن أبي ذر رضي الله عنه أنّ ناسا قالوا: {يا رسول الله! ذهب أهل الدُثور بالأجور} وأهل الدّثور هم أهل الأموال.. فالصحابة الفقراء هنا أحسوا أنّ الأثرياء من المؤمنين قد سبقوهم في الأجر حيث ينفقون من أموالهم في سبيل الله، والفقراء لا يجدون ما ينفقونه مثلهم...قال هؤلاء الصحابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله! ذهب أهل الدثور بالأجور، يصلون كما

اكتشف العلماء المعاصرون أجزاء من دماغ الإنسان وظيفتها أن تولّد الإحساس بالمتعة واللذة إذا ما نبّهها المنبّه المناسب، ووجدوا أنها هامة جدا للعافية النفسية

نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدّقون بفضول أموالهم. فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: (أوَليس قد جعل الله لكم ما تصدّقون به؟! إنّ بكل تسبيحة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، وفي بضع أحدكم صدقة).

الإنسان لا يمكنه أن يحيا طبيعياً معافى نفسياً دون شيء من المتعة والترويح...وطالما أن الله ركّب في أدمغتنا أجهزة للاستمتاع، فلا يمكن أن يتعارض الاستمتاع مع دين الله

فدهش الصحابة لقوله صلى الله عليه وسلم: (وفي بضع أحدكم صدقة) فلم يكن يخطر ببالهم أنّ تمتّع الإنسان بمتعة ما يكون له به أجر، فكيف بالمتعة الجنسية التي يعنيها النبي صلى الله عليه وسلم بقوله في بضع أحدكم، هنا علّمهم النبي صلى الله عليه وسلم كيف تقاس الأمور، ويحكم عليها، وبيّن لهم أن مجرد اجتناب المؤمن لما حرم الله، وحرصه على الحلال يجعل استمتاعه عبادة مأجورة.

إن الاجتناب لما حرم الله هو جوهر التقوى، وإذا ما أضيف إلى المباح حتى لو كان هذا المباح شهوة خالصة، فإن المباح يصبح عبادة، ولم يشترط النبي صلى الله عليه وسلم لحصول الأجر عند إتيان المؤمن لشهوته شيئا إلا اجتناب الحرام، فهو لم يشترط أن يغيّر المؤمن نيّته وقصده من الاستمتاع إلى ابتغاء ولد يجاهد في سبيل الله أو غير ذلك مما يظنه البعض شرطاً لتصبح المعاشرة الزوجية مأجورة، فهذا تكلُّف إن كان ممكنا في بعض الأحيان فلا مجال له في غالب الأحيان.

ولنتأمّل تتمّة الحوار بين الصحابة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله! أيأتي أحدنا شهوته ويكون له فيها أجر؟ قال: (أرأيتم لو وضعها في حرام أكان عليه وزر؟ فكذلك إذا وضعها في الحلال كان له أجر).

فكما أن النية لا تشترط في المعصية، اذ يكفي أن يقع الإنسان في الحرام وهو يعلم حتى يكون آثماً، فإنّه يكفي للمؤمن أن يجتنب الحرام حتى يكون طائعاً مأجوراً، ومن الحرام الذي عليه اجتنابه في أيَ فعل نيّة العلوّ في الأرض أو الفساد فيها.

إنّه يكفي للمؤمن أن يجتنب الحرام حتى يكون طائعاً مأجوراً، ومن الحرام الذي عليه اجتنابه في أيَ فعل نيّة العلوّ في الأرض أو الفساد فيها.

فبالتقوى تغدو حياة المؤمن عبادة مستمرة... حتى أكله وشرابه. ومرة أخرى دون افتعال نيّة متكلّفة، إنما يأكل ويشرب استجابة لحاجة نفسه ورغبتها. قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها) (رواه مسلم).

قال صلى الله عليه وسلم: (إن الله ليرضى عن العبد أن يأكل الأكلة فيحمده عليها أو يشرب الشربة فيحمده عليها)

صحيح أن المباح بحد ذاته لا أجر عليه ولا عقوبة، لكن اجتناب الحرام عند إتيانه، أي: إتيان المباح بتقوى ، يجعل للمؤمن أجراً عظيماً، وهو أجر التقوى التي تجلّت في هذا المباح، إنه يضعها في الحلال، ولا يضعها في الحرام، فيكون له الأجر، ويكون متعبداً حتى وهو يتمتع بما أباح الله له.

القســــم الرابـــع :أثـــر العبـــادات فـــي النفـــس المؤمنـــة

أ - الصلاة

الفصل الاول: حديث النفس وحضور القلب

إن واحدة من أهم مزايا الإنسان: قدرته على أن يفكر بما وراء اللحظة الراهنة، وبما وراء المكان الذي هو فيه.. إنه قادر على تذكر الماضي، وعلى التفكير بالمستقبل وعلى العيش من خلال خياله في أماكن ومواقف غير التي هو فيها.

إنه قادر على استباق الأحداث، وتصوّرها والتخطيط لها وقادر على إعادة النظر في الماضي، ومراجعة النفس، والحكم على ما فعلته ليستحسن ما يراه صواباً، وليلومها على ما أخطأت فيه.

وهذه القدرة على تجاوز الواقع الراهن، واللحظة الراهنة مفيدة جداً للإنسان، ولا بدّ منها ليتمكن من الإبداع والتخطيط في أي مجال.

لكن التفكير بما وراء اللحظة الراهنة والواقع القائم يجعل الإنسان حاضراً بجسده، غائباً بعقله، وإذا ما سيطر هذا التفكير على الإنسان صار عقله في حالة مستمرة من (حديث النفس) حيث يتوقع شيئاً، ويفكر كيف يمكنه أن يتصرف عند حدوثه، ثم يتوقع احتمالاً آخر، ويقلّب الفكر فيما عساه يقول أو يتصرف.

وتتعدد الاحتمالات ويستمر التفكير وانشغال البال وهكذا يستمر غياب الإنسان الجزئي عن واقعه ولحظته الراهنة، فتراه شارد الذهن كلما خلا بنفسه، أي: كلما صمت، ولم يتحدث مع غيره، حتى لو كان بين ألف إنسان، انه معهم لكن فكره في زمان آخر ومكان آخر... حتى حين يستمع إلى الآخرين وهم يحدثونه فإنه لا

إن واحدة من أهم مزايا الإنسان: قدرته على أن يفكر بما وراء اللحظة الراهنة، وبما وراء المكان الذي هو فيه.. إنه قادر على تذكر الماضي، وعلى التفكير بالمستقبل وعلى العيش من خلال خياله في أماكن ومواقف غير التي هو فيها

يجيد الإصغاء إليهم، فلربما كان أثناء استماعه إليهم مشغولاً في تحضير ما سيقوله عندما يسكتون، ويأتي دوره في الحديث.

إنه يسمع، لكن قلبه لا يصغي، وهو ينظر، لكنه لا يكاد يرى، وهكذا وبمرور الوقت يتحول ما كان جميلاً في عينيه عندما رآه لأول مرة إلى شيء عادي لا جمال فيه، لأن عقله في انشغال دائم عن اللحظة الراهنة، والبقعة الراهنة ولا يخرجه من انشغاله وشروده هذا إلا الجديد والصارخ.

هذه القدرة على تجاوز الواقع الراهن، واللحظة الراهنة مفيدة جداً للإنسان، ولا بدّ منها ليتمكن من الإبداع والتخطيط في أي مجال

وهكذا عندما تنشغل النفس في حديثها شبه الدائم يحرم الإنسان من التمتع بالجمال الذي حوله، ويقل إحساسه بواقعية ما حوله ومن حوله وحقيقتهم، فيقوم بأفعاله بطريقة فيها قدر كبير من الآلية، ويصبح التفكير بما يفعله أو يقوله يتم بعيداً عن بؤرة الوعي والشعور، فقد تراجع إلى خلفية الوعي وهكذا يؤدي هذا الإنسان ما يؤديه وعقله غائب مستغرق في تفكير حالم لأنه في حديث النفس كالذي يسرح في أحلام اليقظة، إنه غافل عن العالم الحاضر الذي تدركه حواسه، ولم يترك لهذا العالم الحاضر سوى جزء من وعيه، لذا فهو يؤدي ما يؤديه بطريقة شبه آلية، إنه يقوم به لكنه (لا يعقله) أي: لا ينتبه لما يؤديه من قول أو فعل، إنه كالذي يمشي في الأسواق ويرى الأشياء والأشخاص وفكره مشغول بغير ما يرى... إنه يمشي بينهم دون أن يصطدم بهم، لكنه لم يرهم حق الرؤية، الرؤية التي يكون فيها القلب حاضراً، أي: منتبهاً لما يقول، أو يفعل، أو يحس.

التفكير بما وراء اللحظة الراهنة والواقع القائم يجعل الإنسان حاضراً بجسده، غائباً بعقله

صحيح أن قدرة الإنسان على القيام بالكثير بطريقة شبه آلية فيه توفير للطاقة العقلية كي تتفرغ لما هو مهم، لكن إن صارت هذه الطريقة شبه الآلية في القول والفعل والإدراك غالبة على الإنسان أغلب وقته، تشغله بحديث النفس عما هو قائم (الآن) و (هنا) بل يكون في حالة من التفكير الحالم المقيم في الماضي أو المستقبل.. بينما يشكل حضور القلب والعيش في اللحظة الراهنة الأساس للقدرة على الابتهاج والتمتع بما أنعم الله علينا في دنيانا، كما يشكل الأساس للقدرة على الشعور بالعواطف والمشاعر الحميمة وتبادلها فيما بيننا سواء منها المشاعر الأخوية أو الجنسية، أما من يعيش مع الذكريات في الماضي أو المخاوف في المستقبل فإنه يفقد قدراً كبيرة من القدرة على الابتهاج والتمتع والشعور بالعواطف، لأنه حاضر بين الناس بجسده، وقلبه ولبه شارد ساه غائب.

إن حدث هذا فإن الإنسان يفقد حالة (الانتباه) و (حضور القلب) الممتعة، وتصبح عودته إليها أمراً صعباً ويفقد هذا الإنسان الكثير من سكينته وطمأنينته، ويكون لا بدّ له من أن يدرّب نفسه على الانتباه، وحضور القلب، وعلى التحرر من حديث النفس والتفكير الحالم حتى يتسنى له أن يعيش لحظته الراهنة، بما فيها من مدركات ومشاعر وأفكار وأفعال، ليحس بالوجود الحقيقي لكل شيء من حوله، فلا يبقى خارج حدود الزمان والمكان القائمين.

وليس كالإيمان والعبادة معيناً على ذلك التحرر، وعلى تلك العودة إلى الانتباه وحضور القلب بحيث لا تحزنه الذكريات، ولا تقلقه احتمالات المستقبل المجهول.

الفصل الثاني : الخشوع وحضور القلب في الصلاة

يخلط كثير من المسلمين بين الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها ويظنون أنهما شيء واحد، وهما في الحقيقة مختلفان وإن كان كلاهما مرغوباً في الصلاة ويدل على الإحسان في أدائها.

المقصود بحضور القلب أن يتوقف الإنسان عن حديث النفس وعن العيش مع الأفكار التي تمر في الذهن والغياب عن الواقع وما فيه، فلا يستغرق في الذكريات ولا في توقعات المستقبل أو غير ذلك مما يشغل البال، فإذا توقف العقل عن التفكير بما هو غير حاضر أمامه أو غير الذي يقوله أو يفعله في تلك اللحظة قلنا إن القلب أصبح حاضراً في الزمان والمكان الحاضرين ولم يعد شارداً في أفكاره.

إن انشغال الذهن بحديث النفس الذي هو أفكار وتخيلات يتجاوز الإنسان بها اللحظة الراهنة والمكان القائم والموقف الحاضر، هذا الانشغال طبيعي ومفيد ليتمكن الإنسان من مراجعة ما مر به أو الاستعداد لما هو مقدم عليه وللبحث عن حلول للمشكلات التي يواجهها، لكن الاستغراق شبه الدائم بحديث النفس يحرم الإنسان من الراحة ومن الانتباه لما يراه ويسمعه ويدركه بحواسه الأخرى.. ومؤخراً تنبه علماء النفس لأهمية استعادة الإنسان لقدرته على العيش بكل ذهنه وانتباهه في اللحظة الراهنة حيث يهدأ القلق ويتحسن المزاج ويزداد الإنسان صحة نفسية. وقد تعلم علماء النفس الغربيون ذلك من الديانة البوذية ورياضاتها

عندما تنشغل النفس في حديثها شبه الدائم يحرم الإنسان من التمتع بالجمال الذي حوله، ويقل إحساسه بواقعية ما حوله ومن حوله وحقيقتهم، فيقوم بأفعاله بطريقة فيها قدر كبير من الآلية، ويصبح التفكير بما يفعله أو يقوله يتم بعيداً عن بؤرة الوعي والشعور

النفسية وأسموه الانتباه أو الوعي الخالص (mindfulness) لأن الإنسان يكون فيه واعياً لما حوله وعياً كاملاً لا يضعفه انشغال الذهن بأية أفكار أو تخيلات، وأبدعوا تدريبات عليه لمساعدة الأشخاص المتوترين على التخلص من توترهم.

لقد حثنا النبي صلى الله عليه وسلم على إيقاف حديث النفس في الصلاة وحضور القلب فيها ما استطعنا حتى جعل ثواب ركعتين لا يحدث الإنسان فيهما نفسه مغفرة ذنوبه كلها. فقد روى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ ذات مرة ثم قال: ((من توضأ مثل وضوئي هذا، ثم قام فصلى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه بشيء غفر الله له ما تقدم من ذنبه)) (رواه النسائي).

ولا يحسبن الإنسان أن التوقف عن حديث النفس ركعتين أمر سهل، لأن عادة التفكير بما ليس أمامنا عادة مستحكمة وغلابة ويحتاج الإنسان إلى مران كثير ليتمكن من إيقاف حديث النفس إيقافاً كاملاً طيلة ركعتين يصليهما، وهكذا تصبح الصلاة تدريباً يومياً على حضور القلب وإيقاف حديث النفس لابد أن تفيد المؤمن نفسياً فائدة لا يحصل عليها غيره إلا بتدريبات طويلة وجهد كبير دون أن يتوقع عليها ثواباً إلا تلك الفائدة النفسية بينما هي للمؤمن عبادة تقربه من خالقه وتمحو عنه ذنوبه.

ولعل أهم ما يساعد المؤمن على حضور القلب في الصلاة إدراكه أنها عماد الدين واعتباره لها أنها أهم عمل يقوم به بعد الإيمان بالله، واستشعار الأهمية البالغة للصلاة يجعل النفس تتفرغ لأدائها وتكف عن الانشغال بغيرها فيحضر القلب ويتحقق الوعي الخالص، أما عندما يقال للمؤمن أن الصلاة لن تأخذ منه إلا دقائق قليلة يعود بعدها لما كان فيه من نشاط فإنه يعتبرها أقل أهمية من غيرها من الأعمال مما يقلل من قدرته على حضور القلب فيها، وإن كان ذلك مفيداً في تشجيع المتكاسل عن الصلاة ليبدأ بالالتزام بها. إذاً حتى يحضر القلب في الصلاة علينا أن نتذكر أهميتها ومكانتها العظيمة من ديننا.

يشكل حضور القلب والعيش في اللحظة الراهنة الأساس للقدرة على الابتهاج والتمتع بما أنعم الله علينا في دنيانا، كما يشكل الأساس للقدرة على الشعور بالعواطف والمشاعر الحميمة وتبادلها فيما بيننا سواء منها المشاعر الأخوية أو الجنسية

ومع أنه ورد عن الصحابي عمار بن ياسر رضي الله عنه أنه كان يقول: لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه. لكن الصلاة تصح حتى لو حدث المؤمن فيها نفسه إنما ثوابها يكون أعظم بمقدار ما يوقف حديث نفسه ويكون حاضر القلب فيها.

من يعيش مع الذكريات في الماضي أو المخاوف في المستقبل فإنه يفقد قدراً كبيرة من القدرة على الابتهاج والتمتع والشعور بالعواطف، لأنه حاضر بين الناس بجسده، وقلبه ولبه شارد ساه غائب.

يبقى الخشوع أمراً آخر مطلوباً في الصلاة ومتوقعاً من المؤمن الذي يصلي ويستشعر عظمة الخالق الذي يتوجه إليه بمناجاته عندما يصلي. وحتى نفهم معنى الخشوع علينا أن نتأمل هذه الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة :

قال تعالى: {يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَت الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْساً} طه108

وقال: {خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ} القمر7

وقال:{أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ} الحديد 16

وقال:{وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ} البقرة45

وقال: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فصلت 39

وقال:{وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ} الشورى45

وقال:{لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} الحشر21

وقال:{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ} القلم43

وقال:{خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ} المعارج44

وقال:{أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ} النازعات9

وقال:{وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ} الغاشية2

وقال:{وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعاً}الإسراء109

– {عن جابر بن عبد الله قال: أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسجدنا هذا، وفي يده عرجون ابن طاب. فرأى في قبلة المسجد نخامة فحكها بالعرجون. ثم أقبل علينا فقال "أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟" قال فخشعنا. ثم قال "أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟" قال فخشعنا. ثم قال "أيكم يحب أن يعرض الله عنه؟" قلنا: لا أينا، يا رسول الله! قال "فإن أحدكم إذا قام يصلي، فإن الله تبارك وتعالى قبل وجهه. فلا يبصقن قبل وجهه، ولا عن يمينه، وليبصق عن يساره، تحت رجله اليسرى، فإن عجلت به بادرة فليقل بثوبه هكذا" ثم طوى ثوبه بعضه على بعض فقال "أروني عبيرا" فقام فتى من الحي يشتد إلى أهله، فجاء بخلوق في راحته، فأخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعله على رأس العرجون، ثم لطخ به على أثر النخامة. فقال جابر: فمن هناك جعلتم الخلوق في مساجدكم} رواه مسلم في صحيحه.

– {عن أنس رضى الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم دخل مكة وذقنه على رحله متخشعاً} رواه الحاكم في مستدركه وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه.

– عن أنس قال: {لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة استشرفه الناس فوضع رأسه على رحله تخشعاً} رواه أبو يعلى في مسنده.

– روى ابن أبي شيبة في مصنفه عن رجل قال: رأى سعيد بن المسيب رجلاً وهو يعبث بلحيته في الصلاة فقال: {لو خشع قلب هذا لخشعت جوارحه} .

– {عن جبير عن أبي الدرداء قال: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشخص ببصره إلى السماء ثم قال هذا أوان يختلس العلم من الناس حتى لا يقدروا منه على شيء، قال: فقال زياد بن لبيد الأنصاري يا رسول الله وكيف يختلس منا وقد قرأنا القرآن فوالله لنقرأنه ولنقرئنه نساؤنا وأبناؤنا.. فقال: ثكلتك أمك يا زياد، إني كنت لأعدك من فقهاء أهل المدينة، هذا التوراة والإنجيل عند اليهود والنصارى فماذا يغني عنهم؟ قال جبير: فلقيت عبادة بن الصامت فقلت له

يخلط كثير من المسلمين بين الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها ويظنون أنهما شيء واحد، وهما في الحقيقة مختلفان

بحضور القلب أن يتوقف الإنسان عن حديث النفس وعن العيش مع الأفكار التي تمر في الذهن والغياب عن الواقع وما فيه، فلا يستغرق في الذكريات ولا في توقعات المستقبل أو غير ذلك مما يشغل البال

ألا تسمع ما يقول أخوك أبو الدرداء وأخبرته بالذي قال، قال: صدق أبو الدرداء، إن شئت لأحدثنك بأول علم يرفع من الناس: الخشوع يوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيه رجلا خاشعاً} رواه الحاكم في مستدركه.

وجاء في رواية أخرى للحاكم {عن جبير بن نفير أنه قال: قال عوف بن مالك الأشجعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر إلى السماء يوماً فقال: هذا أوان يرفع العلم، فقال له رجل من الأنصار يقال له ابن لبيد: يا رسول الله كيف يرفع العلم وقد أثبت في الكتاب ووعته القلوب؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة.. ثم ذكر ضلالة اليهود والنصارى على ما في أيديهم من كتاب الله. قال: فلقيت شداد بن أوس فحدثته بحديث عوف بن مالك فقال: صدق عوف ألا أخبرك بأول ذلك يرفع؟ قلت: بلى. قال: الخشوع حتى لا ترى خاشعاً}.

إذا توقف العقل عن التفكير بما هو غير حاضر أمامه أو غير الذي يقوله أو يفعله في تلك اللحظة قلنا إن القلب أصبح حاضراً في الزمان والمكان الحاضرين ولم يعد شارداً في أفكاره

في الآيات الكريمة نجد القلوب تخشع والأبصار تخشع والأصوات تخشع والوجوه تخشع والجبال تخشع والأرض تخشع والمصلون يخشعون، ومعنى الخشوع أوضح ما يكون في قوله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنَّكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاء اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} فصلت39

فالأرض تكون خاشعة حتى يسقيها الماء فيزول خشوعها عندما تهتز وتربو أي ترتفع لتكون رابية، ويكون الخشوع اجتماع السكون والانخفاض ويزول بالحركة والاهتزاز والعلو والارتفاع، ويكون الخشوع في الصلاة الهدوء والسكينة وعدم الإتيان بحركات ليست من الصلاة، ويرافق هذه السكينة انخفاض الرأس والبصر والجسم عموماً، ويكون نظر المصلي إلى موضع سجوده جزءاً من خشوعه وتأدبه في حضرة خالقه العظيم، وهكذا يكون الخشوع شيئاً يرى بالعين، وليس حضور القلب الذي لا يمكن لأحد أن يراه بل يحس به صاحبه وحده، وبذلك يتوضح لنا معنى الخشوع في الأحاديث السابقة، حيث خشع الصحابة عندما غضب الرسول صلى الله عليه وسلم لأن أحدهم تنخم في المسجد، فسألهم صلى الله عليه وسلم أيهم يحب أن يعرض الله عنه، فطأطئوا رؤوسهم وصمتوا لا يجرؤ

أحد منهم على الكلام، وقد أخجلهم أن يرى الرسول صلى الله عليه وسلم نخامة أحدهم على أرض المسجد. وكذلك نفهم قول الصحابي عن النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة أنه دخلها خافضاً رأسه متخشعاً تواضعاً لله الذي نصره حتى كاد رأسه يلامس رحله، وهكذا الخشوع في الصلاة يتحقق بالتأدب في حضرة الخالق تأدباً يقترب من التذلل والمسكنة وإن كان المؤمنون عباد مكرمون من خالقهم الذي كرم بني آدم ولم يذلهم، إلا العصاة المستكبرين منهم، الذين قال تعالى عنهم عندما يعرضون على النار : {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ} الشورى45.

الاستغراق شبه الدائم بحديث النفس يحرم الإنسان من الراحة ومن الانتباه لما يراه ويسمعه ويدركه بحواسه الأخرى..

والصلاة التي تؤدى حق الأداء صلاة يجتمع فيها الخشوع وحضور القلب ما استطاع الإنسان، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها. والمؤمن قد يعجز عن حضور قلبه في الصلاة لأسباب مرضية كالقلق النفسي والوسواس القهري، حيث لا يستطيع الإنسان التوقف عن حديث النفس المتركز حول الخوف والقلق قلقاً أكثر مما يلزم، ويكون انشغالاً للبال مزعجاً لصاحبه ويحرمه القدرة على التركيز والانتباه والشعور بالطمأنينة. أما عندما يتعالج مريض القلق من قلقه فإنه يستعيد قدرته عل إيقاف حديث نفسه في الصلاة واستحضار قلبه فيها. صحيح أن القلق يضعف القدرة على حضور القلب في الصلاة لكنه لا يؤثر أبداً على قدرة المؤمن على الخشوع فيها ليستحق أجر الخاشعين وتتنزل عليه رحمة رب العالمين. قال تعالى: وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ{45} الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلاَقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ{46} { البقرة 45-46 } فالخشوع لرب العالمين في الصلاة وليد الإيمان بلقاء الله والعودة إليه والرغبة بثوابه والخوف من عقابه وليس الخشوع رياضة نفسية مثل حضور القلب بل هو تأدب المؤمن مع خالقه العظيم حين يكون حاضراً بين يديه يناجيه.

عادة التفكير بما ليس أمامنا عادة مستحكمة وغلابة ويحتاج الإنسان إلى مران كثير ليتمكن من إيقاف حديث النفس إيقافاً كاملاً طيلة ركعتين يصليهما

الفصل الثالث: التسبيح

إنّ قدرة الإنسان على تجاوز المكان والزمان الراهنين، وعلى استباق الأحداث أو استرجاعها بأفكاره وخياله نعمة من الله، وقوة زوده الله بها، لكن التفكير بما

وراء ما تدركه الحواس (الآن) و (هنا)، أي: ما سمّاه النبي صلى الله عليه وسلم (حديث النفس) يتم على حساب سكينة النفس وطمأنينتها في كثير من الأحيان، ويتم على حساب استمتاع النفس بالجمال المحيط بها في كل الأحيان.

ومع تعقد الحياة في هذا العصر وزيادة الضغوط فيها على النفس الإنسانية، زاد شعور الإنسان بالحاجة إلى العودة إلى حياة لا يحدّث فيها نفسه كثيراً، بل يعيش لحظته الراهنة في نطاق ما تدركه حواسه، دون أن يسرح به الفكر والخيال في ذكريات الماضي، أو هموم المستقبل.

ومع تأكيد الدراسات الحديثة على العلاقة القوية بين الضغوط النفسية والأمراض المختلفة، وعلى العلاقة القوية بين سكينة النفس وخلوها من الهموم وعافيتها من الأمراض النفسية والبدنية، ومع زيادة وعي الإنسان إلى انه أقلّ سعادة بكثير مما يُتوقع له، وهو يملك كل ما أنجزته الحضارة الحديثة من أسباب الراحة والرفاهية والتحرر من الشقاء المضني في سبيل لقمة العيش، مع هذا كله كان لابُدَّ للإنسان من أن يبحث عن وسيلة يستعيد بها سكينة نفسه ولو لدقائق معدودات كل يوم.

هكذا تصبح الصلاة تدريباً يومياً على حضور القلب وإيقاف حديث النفس لابد أن تفيد المؤمن نفسياً فائدة لا يحصل عليها غيره إلا بتدريبات طويلة وجهد كبير دون أن يتوقع عليها ثواباً إلا تلك الفائدة النفسية

وولى إنسان الحضارة الغربية وجهه شطر المشرق، لكنه ألقى ببصره إلى ما وراء الإسلام، إلى حيث البوذية والهندوسية، ومن هناك استورد (اليوغا) و(التأمل التجاوزي). وكلاهما يهدفان إلى أن يمضي الإنسان فترة من الزمن ولو دقائق معدودات (لا يفكر)، أي: (لا يحدّث نفسه)، لأنه لا يمكن للإنسان أن يتوقف عن التفكير، لكنه إن توقف عن حديث النفس فكّر بما أمامه دون أن يشعر أنه يفكر، إنه يفكر بشكل تلقائي مثلما ينظر إلى الأشياء، أو يصغي إلى الأصوات.. وتعلم من اليوغا أن يجلس بلا حراك مركّزاً بصره في نقطة ثابتة، مردداً كلمة إمّا أنها لا معنى لها، أو أنها كلمة سنسكريتية ذات معنى ديني في الهندوسية، أو قد لا تعني إلا (الكل) أو (واحد) وما شابه.وهذه الكلمات التي تستخدم أثناء جلسات اليوغا، ويتم ترددها باللسان أو بالقلب فقط تسمى (مانترا Mantra).

ما يساعد المؤمن على حضور القلب في الصلاة إدراكه أنها عماد الدين واعتباره لها أنها أهم عمل يقوم به بعد الإيمان بالله

لكن المؤمن في غنى عن هذا كله. إنه لا يحتاج إلى أن يستعير (مانترا) أحد من العالمين.. إنه ينظر حوله فيرى بديع صنع الله، وآثار قدرته وعظمته، فينطلق

لسانه وقلبه ليقول: (سبحان الله).. إنه يجمع في كلمة (سبحان الله) المعاني الكثيرة الكثيرة، ولا يهرب إلى (مانترا) لا معنى لها حتى يريح ذهنه المكدود بحديث النفس المتعب المستمر.

بأول علم يرفع من الناس: الخشوع يوشك أن تدخل مسجد الجماعة فلا ترى فيه رجلا خاشعاً}

إنه عندما يقول سبحان الله فإنه يقول: ما أعظم الله! وما أقدر الله! وما أحكم الله! وما أكرم الله! وما أقوى االله! وما أعلم الله! وما ألطف الله! وما.. وما.. تجتمع كلها في كلمة سبحان الله، كأنه فيلسوف يقول: (ما أكمل الله).. يقولها ويدرك بعقله الكبير ما يعنيه الكمال المطلق، وما يحتويه من كمالات متنوعة، إنه ينزّه الله عن أيّ عيب، أو نقص، ويبدي إعجابه البالغ بهذا الخالق صاحب الكمال المطلق.

إنه يسبّحه ويردد بقلبه ولسانه (سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم) فيمتلىء قلبه بمشاعر الإعجاب والحمد والتنزيه لله سواء كان فيلسوفاً عبقرياً أو أمياً لم يفكّ حروف كلمة واحدة في حياته.

يكون الخشوع في الصلاة الهدوء والسكينة وعدم الإتيان بحركات ليست من الصلاة، ويرافق هذه السكينة انخفاض الرأس والبصر والجسم عموماً، ويكون نظر المصلي إلى موضع سجوده جزءاً من خشوعه وتأدبه في حضرة خالقه العظيم

ويسحب المؤمن نفسه من شواغل الحياة لفترة من الزمان يسبّح فيها الله بقلبه ولسانه في آن واحد، ويذكره بعبارات متنوعة تعلمها من رسوله صلى الله عليه وسلم، فيزداد إيمانا وسكينة وحضور قلب وانتباه، ويتحرر من حديث النفس الذي يغيّبه عما تراه عيناه، وتسمعه أذناه، وتحسّه حواسه الأخرى من أوجه الجمال في هذا الكون البديع. إن للتسبيح مكانا هاما في الصلاة، إنه في الركوع وفي السجود. والتسبيح في الصلاة مع الخشوع، ومع حضور القلب يكون له أعظم الأثر في النفس المؤمنة، فسبحان الذي أمرنا بعبادات تعمّق الإيمان في نفوسنا، وترسخه، وتمزجه بها مزجاً؛ بحيث يصبح مكوّناً أصيلا من مكوناتها، فلا يكون فيه تكلّف، ولا إكراه للنفس، بل يتجاوب مع الفطرة السوية التي فطرت عليها.

الفصل الرابع: (وجعلت قرة عيني في الصلاة)

في هذا العصر الذي تعقدت فيه الحياة، وزادت فيه الضغوط على النفس البشرية وفقد فيه الإنسان الكثير من الطمأنينة التي كانت توفرها له بساطة الحياة قديماً، وقلة متطلباتها، وقناعته التي كانت كنزه الذي لا يفنى.

في هذا العصر الذي قلّ فيه العمل اليدوي الذي يتطلب انهماك الفكر واليد والتركيز فيما يصنع الإنسان، وحلّت الآلة محله إلى حد كبير، وصار يمكن للإنسان أن يدير آلة بقليل من التركيز، وكثير من الملل والسأم.

في هذا العصر الذي تكدست فيه الملايين في مدن مليئة بالضجيج والحركة، وحرم فيه هؤلاء من هدوء الحقل والجبل والشُطآن.

في هذا العصر الذي ضعفت فيه الروابط الأسرية والاجتماعية، وشحن الإنسان فيه بالعداء للكون كي يتحمس لقهره، والسيطرة عليه، فازداد الإنسان عزلة حتى وهو يعيش بين الملايين، وازدادت عزلته وغربته بعد أن صار يتصور الكون والطبيعة عدوين يجب أن يقهرهما.

في هذا العصر ازداد العبء على عقل الإنسان وركبته الهموم، فصار يعيش في همومه أكثر مما يعيش في واقعه الآني. صار شارداً في حديث نفسٍ لا يكاد ينتهي، فهو دائماً يخطط للمستقبل، ذلك الذي صار كابوساً مخيفاً وصارت توقعات المصاعب فيه أكثر من توقعات النّعم والمسرّات.

في هذا العصر صارت لحظات الانتباه التام إلى اللحظة الراهنة والمكان القائم، الذي يكون فيه هذا الإنسان بلا انشغال للفكر بشيء آخر، صارت هذه اللحظات من الانتباه رفاهية وكمالية لا تتاح للكثيرين.

لقد نسي إنسان الحضارة الحديثة كيف يوقف حديث نفسه الدائم، ليفتح عينيه على ما حوله ومن حوله، وليصغي بأذنيه وقلبه لمن حوله وما حوله، وصار تعليم هذا الإنسان كيف يعود إلى انتباهه، وكيف يحضر قلبه إلى حيث هو، صار ذلك اختصاصا وتجارة.. فمن دروس في اليوغا، إلى دروس في التأمل التجاوزي، إلى دروس في الاسترخاء العضلي، إلى دروس في التنويم المغناطيسي الذاتي، إلى دروس في الإخبار الحيويّ الراجع Biofeedback من أجل التحكم بسرعة ضربات القلب، ومقدار توتر العضلات، بل والتحكم بموجات الدماغ الكهربية. كل ذلك من أجل دقائق قليلة أو كثيرة من السّكينة النفسية، والتوقف عن حديث النفس وما يحويه من هموم أو ذكريات.

الخشوع في الصلاة يتحقق بالتأدب في حضرة الخالق تأدباً يقترب من التذلل والمسكنة وإن كان المؤمنون عباد مكرمون من خالقهم الذي كرم بني آدم ولم يذلهم

الصلاة التي تؤدى حق الأداء صلاة يجتمع فيها الخشوع وحضور القلب ما استطاع الإنسان، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها

لكن المؤمن الذي يصلي لله تعالى كل يوم خمس مرات منذ أن يبلغ السابعة من عمره، هذا المؤمن يقوم إلى صلاته ليصليها بإتقان وإحسان، وكأنه يرى الله أمامه ينظر إليه وهو يؤديها.

((... قال فأخبرني عن الإحسان، قال: أن تعبد الله كأنما تراه، فإن لم تكن تره فإنّه يراك)) (صحيح مسلم). إنه يصلي وهو يستشعر حضور الله. قال صلى الله عليه وسلم: ((إن أحدكم إذا قام في صلاته فإنّه يناجي ربه، أو إن ربه بينه وبين القبلة)) (البخاري حديث رقم 397).

إنه دائما يُصلي وهو يحاول أن يكون حاضر القلب يعلم ما يفعل وما يقول، أي: منتبهاً وليس ساهياً شارداً في حديث النفس، فهو يعلم أن انتباهه وحضور قلبه لا بد منهما حتى يتحقق في صلاته الإتقان والإحسان، حتى أن عمار بن ياسر رضي الله عنه كان يقول: لا يكتب للرجل من صلاته ما سها عنه.

وقد حثّ الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين على التركيز في صلاتهم والانتباه لما يقولون ويفعلون فيها، وعلى عدم السهو والاستغراق في حديث النفس أثناءها، فجعل لمن ينجح في أداء ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه جائزة عظيمة جداً، وهي أن يغفر الله له ما تقدم من ذنبه.

روى عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم توضأ ذات مرة ثم قال: ((من توضأ مثل وضوئي هذا، ثم قام فصلى ركعتين لا يحدّث فيهما نفسه بشيء غفر الله له ما تقدم من ذنبه)) (رواه النسائي في سننه في كتاب الطهارة).

إن حضور القلب في الصلاة، وإيقاف الفكر خلالها عن انشغاله المزعج بحديث النفس والتفكير بما مضى أو ما قد يأتي.. إنّ هذا الحضور للقلب، والسكينة التي يجلبها للنفس من أهم الأسباب التي جعلت الصلاة قرة عين النبي صلى الله عليه وسلم وراحته: (أرحنا بها يا بلال..) وقرّة عين وراحة لكل المؤمنين من بعده.

المؤمن قد يعجز عن حضور قلبه في الصلاة لأسباب مرضية كالقلق النفسي والوسواس القهري، حيث لا يستطيع الإنسان التوقف عن حديث النفس المتركز حول الخوف والقلق قلقاً أكثر مما يلزم، ويكون انشغالاً للبال مزعجاً لصاحبه ويحرمه القدرة على التركيز والانتباه والشعور بالطمأنينة

الفصل الخامس: تنهى عن الفحشاء والمنكر -1

إن الصلاة وتلاوة القرآن تولدان في النفس ناهياً عن الفحشاء والمنكر، ولكن

كيف يتم ذلك؟ الآلية الأولى التي يمكن أن يتولّد بها هذا الناهي في النفس من الصلاة وتلاوة القرآن هو الحالة التي يسميها علماء النفس (التنافر المعرفي) cognitive dissonance. إذ يرى المؤمن الذي يصلي لله خاشعاً والذي خشع قلبه لذكر الله فيتلوه ويلين له، هذا المؤمن يكون مفهومه لذاته، وتصوره لنفسه أنه (إنسان مؤمن طائع لله). وهذه الفكرة الصحيحة عن نفسه تتعارض مع الفكرة والتصوّر الذي ينتج عن وقوعه في الفحشاء والمنكر، وهو أنه: (إنسان عاص لله متّبع لهواه).

وقد وجد علماء النفس أن اجتماع تصوُّرين ومفهومين متنافرين متعارضين لدى الإنسان عن ذاته يسبّب له انزعاجاً وضيقاً ويدفعه إلى التخلص من هذا التنافر بين ما يعرفه عن نفسه، وذلك إما بالامتناع عن سبب هذا التنافر وهو هنا الوقوع في الفحشاء والمنكر، وهذا ما ذكره الله عن المتّقين الذين إذا فعلوا فاحشة ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ولم يصرُوا على ما فعلوا وهم يعلمون، وإما أن يحلّ الإنسان التنافر بتغيير ما يؤمن به بخصوص السلوك المسبب للتنافر المعرفي لديه، وهذا مستحيل هنا إذ لا يمكن للمؤمن أن يرى في الفحشاء والمنكر إلا عصيانا لله وإتباعا للهوى.

أن القلق يضعف القدرة على حضور القلب في الصلاة لكنه لا يؤثر أبداً على قدرة المؤمن على الخشوع فيها ليستحق أجر الخاشعين وتتنزل عليه رحمة رب العالمين

أما إن استمر في الجمع بين الحالين المتنافرين فإنّه سيبقى يعاني من التوتر والانزعاج الذي يدفعه ويحثه على إزالة هذا التنافر، وبذلك يكون لديه في نفسه من الدوافع ما ينهاه عن الفحشاء والمنكر. أما الآلية النفسية الثانية التي يمكن للصلاة وتلاوة القرآن أن تشكلا بوساطتها ناهياً نفسياً للمؤمن عن الفحشاء والمنكر فهي آلية "الذكر واليقظة" حيث لا يمكن للمؤمن أن يقع في الفحشاء والمنكر دون إكراه إلا وهو في حالة من "الغفلة" أو ما يسميه علماء النفس "الإنكار denial" حيث يتصرف الإنسان وكأن الأمر الذي يعلم بوجوده لا وجود له، فالمؤمن يقع في الفحشاء والمنكر حين يمارس هذا الإنكار النفسي، والتغافل عما توعّد الله به من العقوبة على هذه الفحشاء أو ذلك المنكر، وهذا والله أعلم معنى ما جاء في الحديث الشريف من أنّ المؤمن لا يزني وهو مؤمن، ولا يسرق وهو مؤمن..الخ.

ليس الخشوع رياضة نفسية مثل حضور القلب بل هو تأدب المؤمن مع خالقه العظيم حين يكون حاضراً بين يديه يناجيه

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن. ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن. ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن".

فهذا لا يعني أنّه ساعة ارتكابه للزنى أو السرقة كان كافراً مرتداً، إنّما كان لا يعيش حالة الإيمان المُتَيَقِّظ الواعي الذاكر، إنّه أبداً لم يغيّر عقيدته لحظة الزنى أو السرقة، إنما تغافل عنها، وأبعدها عن شعوره، تماما كما يفعل المصاب بالجلطة القلبية وهو يصر على الاستمرار في بذل الجهد الذي ينهاه عنه الأطباء لما فيه من خطورة على حياته.

إنه لا يريد أن يعيش بمشاعره ما يعرفه بعقله، من أنّ قلبه مريض، وأنه لم يبق ذلك القوي المعافى، وهكذا المؤمن عندما يستجيب لشهواته، يبقى عقله مدركاً لحقائق الإيمان كلها، ولخطورة ما يرتكبه، لكنه يزيح هذا الإدراك عن شعوره ووعيه، ينكره نفسياً، أو بالمصطلح الإسلامي: يتغافل عنه.

وهنا تأتي الصلاة خمس مرات كل يوم بوضوئها وقيامها وركوعها وسجودها، وتأتي تلاوة القرآن في الصلاة وخارجها لتجعل من الصعب على المؤمن أن يتغافل، أو ينكر نفسياً ما يعلمه من أنّ الفحشاء والمنكر يضعانه في خطر الوقوع في عذاب الله، وبذلك تكون الصلاة والقرآن مصدري نهي نفسيّ عن الفحشاء والمنكر. أمّا إن وقع هذا المؤمن التقيّ في المحظور فإنه سرعان ما يعود، فيذكر الله، ويستغفر لذنبه، قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{135} أُوْلَـئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ{136}} (آل عمران:135-136).

مع تعقد الحياة في هذا العصر وزيادة الضغوط فيها على النفس الإنسانية، زاد شعور الإنسان بالحاجة إلى العودة إلى حياة لا يحدّث فيها نفسه كثيراً، بل يعيش لحظته الراهنة في نطاق ما تدركه حواسه، دون أن يسرح به الفكر والخيال في ذكريات الماضي، أو هموم المستقبل

الفصل السادس: تنهى عن الفحشاء والمنكر -2

قال تعالى: {اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ{45}} (العنكبوت:45)

إن الصلاة من المؤمن الخاشع بما فيها من قراءة وقيام وركوع وسجود تجعل المؤمن يعيش لحظات من ذكر الله {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

لِذِكْرِي{14}} (طه: 14). وتلاوة ما أوحى الله من ذكره، أي: القرآن الكريم تزيد من يقظة المؤمن، وتقلل من غفلته. وبالصلاة وتلاوة القرآن، وغير ذلك من طرق ذكر الله تتولد في نفس المؤمن دوافع نفسية معاكسة لميله البشري إلى الوقوع في الفاحشة والمنكر الذي يزيّنه له شياطين الإنس والجنّ. فالصلاة تنهى عن الفحشاء (أي: الزنى) والمنكر بأشكاله كافة، وكذلك ذكر الله (أي: القرآن) الذي بدأت الآية الكريمة بالأمر بتلاوته قبل الأمر بإقامة الصلاة، ينهى أيضا عن الفحشاء والمنكر، بل هو كما تقول الآية الكريمة (أكبر) أي: أكبر نهياً للمؤمن عن معصية الله.

وقبل البحث في الآلية النفسية التي يمكن أن يكون هذا النهي متولداً بها، يجب الانتباه إلى أن الله قال: (تنهى) ولم يقل: (تحول وتمنع)، إنّه النهي، ويبقى المؤمن المصلّي التالي لما أوحي من الكتاب والذكر، يبقى على خطر، إذ قد تكون الدواعي النفسية لديه والتزيينات التي يتعرض لها والتي تحثّه وتدعوه إلى الفحشاء والمنكر، قد تكون قوية فيستجيب لندائها، ويتغافل عن نهي الصلاة، وذكر الله له، فيقع في فحشاء أو منكر من المنكرات.

وقد تحدّث القرآن عن المتقين فقال: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ{135}} (آل عمران:135) فالمؤمن الذي يضعف أحياناً، فيقع في فاحشة، أو يظلم نفسه بارتكاب منكر من المنكرات، لا يعني ذلك أن صلاته لم تنفعه وأنّ تلاوته لذكر الله لم تؤثر فيه، إنّما هي الطبيعة البشرية حيث قد يقع الإنسان في كثير من الأحيان في حيرة وتردد بين اختيارات متعددة، ويكون لديه من الدوافع النفسية المتعارضة ما يدعوه لفعل أمر ما، وما ينهاه عن فعله، فالطبيب الذي يعلم حقّ العلم أن التدخين ضار بصحته ولكنه مدمن على التدخين لا يتمتع بسيجارته إلا إن نسي أو تناسى ما يعرف عن أضرارها، أما إن بقي ذاكراً لتلك الأضرار فإنها ستنهاه عن التدخين، أي: ستأمره ألاّ يدخّن، لكنها بالطبع لن تمنعه، فقد تشتد شهوته، ويقرر الاستجابة لها، والتغافل عن صوت النهي والتحذير، وهذا أبدا لا يعني أن معرفة الناس لأضرار التدخين لا تفيد، لأن

إنه عندما يقول سبحان الله فإنه يقول: ما أعظم الله! وما أقدر الله! وما أحكم الله! وما أكرم الله! وما أقوى الله! وما أعلم الله! وما ألطف الله! وما.. وما.. تجتمع كلها في كلمة سبحان الله، كأنه فيلسوف يقول: (ما أكمل الله).. يقولها ويدرك بعقله الكبير ما يعنيه الكمال المطلق

الإنسان الذي يعتقد أن التدخين لا يضر سيدخن أكثر، إذ ستبقى لديه الدواعي النفسية لأن يدخّن، وستغيب النواهي النفسية عن أن يدخّن، ولن يتعرّض لأي نوع من الصراع النفسي قبل إقدامه على التدخين. وكذلك المؤمن تنفعه الصلاة وتلاوة القرآن إذ تولّدان في نفسه (ناهياً نفسيّا) يعينه في وجه أيٍّ (داع نفسي) إلى الفحشاء والمنكر، وحتى مع وجود الناهي تبقى له الحرية في أن يستجيب إلى الناهي، فلا يقع في الفحشاء والمنكر، أو أن يستجيب إلى الدّاعي فيقع فيهما.

إنّ الصلاة والقرآن عاملان معينان للمؤمن كي يبقى في حالة من التقوى، لكنهما لا يسلبانه الإرادة، ولا يلغيان كلّ النوازع البشرية لديه من شهوة، أو غير ذلك.

يسحب المؤمن نفسه من شواغل الحياة لفترة من الزمان يسبّح فيها الله بقلبه ولسانه في آن واحد، ويذكره بعبارات متنوعة تعلمها من رسوله صلى الله عليه وسلم، فيزداد إيمانا وسكينة وحضور قلب وانتباه، ويتحرر من حديث النفس الذي يغيّبه عما تراه عيناه، وتسمعه أذناه، وتحسّه حواسه الأخرى من أوجه الجمال في هذا الكون البديع

الفصل السابع: تنهى عن الفحشاء والمنكر -3

تنهى الصلاة، والقرآن الكريم، وذكر الله عموما عن الفحشاء والمنكر عن طريق السكينة التي تبثها إقامة الصلاة، وتلاوة القرآن في النفس المؤمنة. فالقلق النفسي – وبخاصة الخوف من الفقر والحرمان- قد يولّد في النفس حالة من السخط والإحباط، تبحث عن هدف لها، تتنفّس من خلاله عن غيظها وسخطها. والمؤمن لا ترضى نفسه أن يتوجّه سخطه إلى الله تعالى، وهو الرزاق فتزيح نفسه هذا السخط، وما يرافقه من عداء باتجاه البشر الآخرين. ومشاعر العداء تدفع إلى الفاحشة سواء كانت بين رجل وامرأة، أو كانت شاذة بين رجل ورجل، أو بين امرأة وامرأة. وكون العداوة دافعاً للجنس أحياناً، وبالتالي كون الممارسة الجنسية الطبيعية (المحرمة) أو الشاذة فعلاً عدوانياً هو من المكتشفات الحديثة في علم النفس، لكن القرآن الكريم أشار اليها في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ{5} إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ{6} فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ{7}} (المؤمنون:5-7). وكذلك في قول لوط- عليه السلام – لقومه: {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ{165} وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ{166}} (الشعراء :165-166). ولعل هذا يفسر لنا ورود تخويف الشيطان لنا من الفقر وبثّه للقلق في نفوسنا قبل أمره لنا

بالفحشاء، ثم ترافق المغفرة من الله مع الفضل والرزق في قوله تعالى: {الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاء وَاللّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلاً وَاللّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ{268}} (البقرة:268).

فالشيطان يمهد لوساوسه الطريق بإثارة القلق والخوف في نفس المؤمن؛ لذا كان التوكل على الله حصناً يحمي المؤمن من الشيطان، وتأمل قوله تعالى: {فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ{98} إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ{99} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ{100}} (النحل: 98-100) .

التسبيح في الصلاة مع الخشوع، ومع حضور القلب يكون له أعظم الأثر في النفس المؤمنة، فسبحان الذي أمرنا بعبادات تعمّق الإيمان في نفوسنا، وترسخه، وتمزجه بها مزجاً

وعلى ما يبدو فقد قام الشيطان بإثارة القلق والخوف من المستقبل لدى سيدنا آدم، ليجعله قابلاً لتأثيره وغوايته، فهو عندما زيّن له الأكل من الشجرة التي نهاه الله عن الأكل منها قال له ولزوجه: {فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ{20}} (الاعراف: 20).{فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى{120}} (طه : 120) .

وطلب المتعة والإفراط فيها والشهوة في الامتلاك المادي أو الرمزي (كما في المعاشرة الجنسية) قد يكون نتيجة لمشاعر الإحباط والحرمان، فيكون هذا الامتلاك بمثابة تعويض عما يتصوّر الإنسان أنه قد حرم منه، وبهذه الطريقة يمكن للفقر والحرمان والخشية منهما في المستقبل أن تولّد داعياً نفسياً ينضاف إلى العداوة والعدوان الناتجين من مشاعر السخط وعدم الرضا، بسبب الحرمان الواقع أو المتوقع، فيعمل الشيطان من خلال هذه المشاعر النفسية التي تفقد النفس سكينتها، ويمارس تزيينه للإنسان ليوقعه في الفاحشة، ومعصية الله.

لقد نسي إنسان الحضارة الحديثة كيف يوقف حديث نفسه الدائم، ليفتح عينيه على ما حوله ومن حوله، وليصغي بأذنيه وقلبه لمن حوله وما حوله

والصلاة وتلاوة القرآن تعيدان للنفس المؤمنة اطمئنانها وسكينتها، وتوكلها على الله، فالصلاة حمد وثناء وإعلان للرضا عن الله تعالى يعارض أية مشاعر إحباط وسخط.

كما أن القرآن الذي يتلوه المؤمن في الصلاة وخارجها يعالج كل أنواع القلق الإنساني، فتطمئن نفسه وتسكن: {الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ{28}} (الرعد: 28) .

والصلاة بما فيها من أفعال وأقوال تعطي المؤمن الشعور بالإنجاز وأنه قد فعل شيئا ذا معنى، وذا بقاء، وهي بذلك تعالج واحداً من أهم أسباب القلق الإنساني، وهو: الإحساس باللامعنى، وبخلوّ حياته من الإنجاز. وكلما أوصدنا في أنفسنا باباً للقلق أوصدنا باباً في وجه الشيطان الذي ليس له سلطان على النفس المؤمنة المتوكلة على الله.

ومن جهة أخرى فإن الصلاة، وتلاوة القرآن، الأولى مناجاة لله تعالى، والثانية قراءة، واستماع لكلماته وخطابه، ورسالته لنا.. إنه حوار مع خالق الكون، مع الودود، القوي، الحاضر معنا يسمع ويرى، مع الذي يبادلنا حبّنا له بحب أكبر منه.. مع الذي يراعي مشاعرنا ويرحمنا رغم ضآلتنا وعظمته.

إنه مع هذا الحوار المتجدد كل يوم، وفي معية هذا الرب الرحيم، لا يبقى لدى الإنسان إحساس بالعزلة والوحشة في هذا الوجود، ويوصد باب كبير من أبواب القلق النفسي الذي تنبّه إليه الوجوديون، فأصرّ الملحد منهم على أنه لا حل له إلا بالحب بين البشر، أما المؤمن منهم فإنه رأى في الإيمان والحب حلّين ينعم بهما المؤمن، فلا يدخل القلق إلى نفسه من هذا الباب أبداً. وبهذا يكون في الصلاة وتلاوة القرآن وذكر الله عموماً حماية للمؤمن من تزيينات الشيطان، ونهياً له عن الفحشاء والمنكر، ومصدراً للسعادة في الدنيا قبل الآخرة.

المؤمن الذي يصلي لله خاشعاً والذي خشع قلبه لذكر الله فيتلوه ويلين له، هذا المؤمن يكون مفهومه لذاته، وتصوره لنفسه أنه (إنسان مؤمن طائع لله). وهذه الفكرة الصحيحة عن نفسه تتعارض مع الفكرة والتصوّر الذي ينتج عن وقوعه في الفحشاء والمنكر، وهو أنه: (إنسان عاص لله متّبع لهواه

(ب) الزكاة

الفصل الأول: تطهّرهم وتزكّيهم بها

قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{1} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ{2} وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ{3} وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ{4}} (المؤمنون: 1-4) .

لقد بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإيقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصيام رمضان، وحج البيت من استطاع إليه سبيلاً. لكن للصلاة والزكاة أهمية بالغة، إذ لا يكاد الإيمان يذكر في القرآن إلا وتذكر معه الصلاة والزكاة، وقد قاتل الصديق –رضي الله عنه– أقواماً من المسلمين منعوا الزكاة.

وعندما أذن الله للمؤمنين بقتال الكفار، وبشّرهم بتمكينهم في الأرض، ذكّرهم بما يريده منهم عندما يمكنهم فيها، فكان ما يريده منهم بالدرجة الأولى أن يقيموا

الصلاة، وأن يؤتوا الزكاة، وأن يأمروا بالمعروف، وأن ينهوا على المنكر. قال تعالى: {الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ{41}} (الحج:41).

إن الصلاة والزكاة مقدمتان على ما سواهما من العبادات في الإسلام، لما للصلاة من أثر في النهي عن الفحشاء والمنكر؛ إذ تقام لذكر الله، ولما للزكاة من أثر عظيم في النفس والمجتمع، فهي طهر للنفس ونماء للمجتمع. قال تعالى عن الزكاة وغيرها من الصدقات: {خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاَتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ{103}} (التوبة: 103) .

إذاً الصدقات عموماً، والزكاة خاصة فيها تطهير للنفوس المؤمنة، وفيها النماء والزيادة والبركة للمجتمع المسلم. وكلمة زكاة تحمل المعنيين معاً. فالزكاة : الطهارة، والزكاة: البركة والنماء، وزكا الشيء زُكُوّاً وزكاءً وزكاة: نما وزاد، وزكّى الشيء وأزكاه: نمّاه (انظر إن شئت المعجم الوسيط).

لكن السؤال هنا هو: مم تطهّر الزكاة ؟ وكيف يكون فيها النماء والزيادة ؟

تطهّرهم :

تطهّر الزكاة والصدقات الأخرى نفوس المؤمنين من مشاعر سلبية عديدة، كالشعور بالذنب، والحسد، والحقد، والعداوة، والبغضاء، والقلق، والعزلة، والعجز، والنبذ، والهجران.

فقد اقتضت حكمة الخالق سبحانه وتعالى أن يتفاوت فضله على عباده، فيكون منهم الغني ومنهم الفقير، ومنهم الصحيح المعافى، ومنهم المريض السقيم، ومنهم القوي، ومنهم الضعيف.

ونفوس المؤمنين نفوس تتربّى على التقوى، وتمتلئ بالضمائر الحية الحيية الرحيمة. والمؤمن إذا آتاه الله من فضله ما حرم منه غيره، هذا المؤمن ذو الضمير الحي لن ينعم بفضل الله ونفسه مرتاحة، وهو يرى غيره محروماً مما يتمتع هو به، حتى لو كان ما فضل به هو من قبيل الكماليات، وسيجد غصّة كلما تنعّم بعطاء الله.ومع أنه ليس هو المسؤول عن حرمان المحرومين، فإنه سيبقى يحسُ بالذنب، إذ هو ينعم بالفضل والزيادة وغيره محروم. وقد لوحظ الشعور

وجد علماء النفس أن اجتماع تصوُّرين ومفهومين متنافرين متعارضين لدى الإنسان عن ذاته يسبّب له انزعاجاً وضيقاً ويدفعه إلى التخلص من هذا التنافر بين ما يعرفه عن نفسه، وذلك إما بالامتناع عن سبب هذا التنافر وهو هنا الوقوع في الفحشاء والمنكر

الشديد بالذنب عند من نجا من المذابح ومعتقلات الاعتقال في الحروب الشرسة، بينما قُتل من كان معه من الأسرى. وهذا الناجي يشعر بالذنب لمجرد أنه نجا، بينما هلك الآخرون، مع أنه لا ذنب له في هلاكهم، ولم ينجُ على حسابهم إنما هو قدره وأجله، فكيف سيكون حال المؤمن صاحب الضمير الحي إذا تمتع بينما الآخرون محرومون؟

إنه لا بد سيعاني من إحساس بالذنب، مشابه لإحساس الناجين من الكوارث والمذابح التي مات فيها غيرهم. ونفس المؤمن لن ترتاح حتى يُشرك المحرومين فيما هو فيه من نعمة، ولكن هل يوزّع كل ما لديه من فضل الله على المحرومين لينضم اليهم، ويكونوا في الفقر والحرمان سواءً ؟

إنّ هذا ليس هو الحل، فهو يعاكس الفطرة، كما يتعارض مع الحكمة التي من أجلها جعل الله فضله بين الناس متفاوتاً. وهنا تبرز الحكمة من فرض الزكاة على المؤمن يخرجها مما زاد عن حاجته مدة سنة كاملة، وتبرز الحكمة من تحديد الزكاة تحديداً لا غموض فيه، إنها إثنان ونصف بالمائة، يخرجها المؤمن من ماله الزائد عن حاجته، الذي بقي لديه سنة كاملة زائداً عن حاجته، ويهنأ بالسبعة والتسعين والنصف بالمائة الباقية لديه، يتنعّم بها بما أباحه الله له من الطيبات، دون أن يشعر بالإثم أو الذنب، وإن هو تصدق بأي شيء فوقها أحس بالرضا والارتياح الذي يشعر به المؤمن، كلما قام بعمل صالح تطوّعي يؤديه من تلقاء نفسه.

الآلية النفسية الثانية التي يمكن للصلاة وتلاوة القرآن أن تشكلا بوساطتها ناهياً نفسياً للمؤمن عن الفحشاء والمنكر فهي آلية "الذكر واليقظة" حيث لا يمكن للمؤمن أن يقع في الفحشاء والمنكر دون إكراه إلا وهو في حالة من "الغفلة" أو ما يسميه علماء النفس "الإنكار "denial

ولو أن الزكاة، وهي الحد الأدنى للصدقات، لم تحدّد برقم، وقام المؤمن بالتصدق بجزء من فضل الله عليه، ولنقل: إنه تصدّق بخمسة بالمائة فإنه قد يبقى لديه إحساس أنه مقصِّر في حق المحرومين، وأنه لا حقّ له في أن يتنعّم بالخمسة والتسعين بالمائة الباقية، وحتى لو زاد صدقته إلى عشرة بالمائة، فإنه سيبقى لديه القابلية للإحساس بالذنب والتقصير، وحتى لو زاد على العشرة بالمائة، أو العشرين بالمائة أو أكثر من ذلك، فإنه سيبقى من المؤمنين أناس ضمائرهم حيّة تحاسبهم، وتمنعهم من أن ينعموا بما بقي لديهم من فضل الله.

أما وقد حدّد الله مقدار الزكاة، فإن النفس ترتاح بعد أدائها، إذ يعلم المؤمن

علم اليقين أن الله الحكيم الخبير قد فرض في أموال الأغنياء ما يسدُ حاجة الفقراء، فلا يستقل المؤمن مقدار الزكاة، وهو يعلم أن الله قد فتح باب القبول للصدقات التطوعية، وحثّ عليها، ووعد عليها الأضعاف المضاعفة إلى سبعمائة ضعف.

فالزكاة هي الحد الأدنى، وباب التطوع مفتوح، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يأذن للصحابي بأن يتصدق بأكثر من ثلث ماله للفقراء حرصاً على حق الورثة. هذا بعد موت المؤمن، أما في حياته فإن عليه أن يحرص على من كلفه الله أن يعولهم، وينفق عليهم، فالأقربون أولى بالمعروف، وكل نفقة ينفقها على زوجه أو أولاده إنّما هي صدقة عظيمة الأجر، وأفضل الصدقة ما كان عن ظهر غنى كما قال النبي صلى الله عليه وسلم، أي: الصدقة التي تُبقي المتصدق غنياً، لا التي تستهلك ماله، وتتركه فقيراُ.

والصدقات بما فيها الزكاة، إنما هي عطاء مجسّد، يتجلّى فيه قمة النضج النفسي عند الإنسان؛ لأن الإنسان الناضج نفسياً هو الإنسان المعطاء.

ولما كان عمر أربعين سنة يمثّل ذروة النضج عند الإنسان كان أيضا كما بينت الدراسات النفسية عمر الانتقال إلى مرحلة العطاء، إذ فيه يبدأ الإنسان بتوجيه أكبر قدر من قدراته للعطاء للآخرين، بدءاً بأولاده وانتهاء بجميع أفراد البشرية. والعطاء إنما هو حُب تجسّد، والحب الناضج إنما هو حب العطاء لا حبّ الأخذ والانتفاع. ومن يراقب الأطفال وحبّهم يلاحظ أنه حب أخذ وانتفاع، فالطفل يحب أمه وأباه ليأخذ منهما، أما البالغ فيحب ليعطي ويضحي من أجل محبوبه، وإن كانت الرومانسية تجعل للحب عند المراهقين والشباب شكلاً مميزاً. إن الصدقات بما تمثّله من معاني الود، وبما تجسده من الحب، الذي تفيض به نفس الغني الشاكر على إخوته المحرومين، إن هذه الصدقات تُطهّر نفوس الأغنياء في الوقت نفسه من الشح والبخل والإمساك والتقتير {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{9}} (الحشر: 9) .

ثم إن الصدقات تُطهّر نفوس المحرومين من أية مشاعر سخط تجاه الخالق، يمكن للحرمان أن يولّدها في نفوسهم، وتطهرهم من أي مشاعر عداوة موجهة إلى

يستجيب لشهواته، يبقى عقله مدركاً لحقائق الإيمان كلها، ولخطورة ما يرتكبه، لكنه يزيح هذا الإدراك عن شعوره ووعيه، ينكره نفسياً، أو بالمصطلح الإسلامي: يتغافل عنه

تلاوة ما أوحى الله من ذكره، أي: القرآن الكريم تزيد من يقظة المؤمن، وتقلل من غفلته

باقي أفراد المجتمع ناتجة عن الإحباط الذي يمكن للحرمان الزائد عن الحد أن يثيره في نفوسهم، وتطهرهم من أي شعور بالنبذ، والهجران، والقطيعة بينهم وبين المجتمع، ذلك أن الحرمان والفقر مع كثرة المسؤوليات قد تجعل الإنسان يحس بأن الله قد كرهه وهجره، وأن المجتمع لم يرحمه ولم يشعر به، فتمتلىء نفسه قلقاً وغيظاً، ويضعف شعوره بالانتماء إلى مجتمع لا يهتم به ولا يقف معه في محنته.

هذه المشاعر السلبية يمكن أن تؤدي إلى الكثير من الرذائل، ابتداء بالفاحشة والمخدرات، وانتهاءً بالجريمة أو الثورات الهوجاء المدمرة المدفوعة بالحقد، والحسد، وحب الانتقام.

وعودة إلى نفس المؤمن المتصدق، فإن للزكاة وغيرها من الصدقات أثراً كبيراً في ملء النفس المؤمنة بالرضا والسعادة؛ إذ هي تحقيق للذات وهي تحقيق للخلافة في الأرض، عندما يتمثّل المؤمن من خلال الصدقات الكثير من صفات المولى، وأهمها: العطاء، فالله هو المعطي وهو المقيت.

وعندما ينجح المؤمن في أن يعطي للآخرين ويُدخل السرور إلى قلوبهم، فإنه يتمتع بالسعادة ويستشعر الرضا عن نفسه، لا العجب بها، والتكبر، والتعالي، إنما هو يرى أنه بعمله الصالح قد اقترب من الصورة المثالية للمؤمن التقي المستخلف في الأرض؛ التي يحلم دائماً في أن يصل إليها. وكلما اقترب واقع النفس البشرية من الصورة المثلى التي تسعى إلى تحقيقها، ازدادت هذه النفس طمأنينة، وخفّ قلقها وحزنها، ونعمت بالسعادة.

بالصلاة وتلاوة القرآن، وغير ذلك من طرق ذكر الله تتولد في نفس المؤمن دوافع نفسية معاكسة لميله البشري إلى الوقوع في الفاحشة والمنكر الذي يزيّنه له شياطين الإنس والجنّ. فالصلاة تنهى عن الفحشاء (أي: الزنى) والمنكر بأشكاله كافة

وتزكّيهم :

الصدقات–وعلى رأسها الزكاة– تطهر نفوس المؤمنين، وهي في الوقت نفسه فيها النماء، والزيادة، والبركة، وهذه مكاسب اقتصادية تعمّ المجتمع المسلم أغنياءه وفقراءه. ولدور الزكاة وباقي الصدقات في النمو الاقتصادي في المجتمع جوانب اقتصادية بحتة، والجوانب الاقتصادية البحتة أترك بحثها لأصحاب الاختصاص في الاقتصاد، وان كنت أُشير هنا إشارة عابرة إلى أن الصدقات والزكاة بالذات تزيد من القوة الشرائية في المجتمع، إذ الزكاة توزّع حيث المال (إلا في أحوال

خاصة) وعندما توزع على فقراء المجتمع، الذي أنفقها أغنياؤه، فإن الازدهار والرواج في أسواق المجتمع الناتجة عن هذه الأموال من زكاة وصدقات أخرى يعود نفعها على الأغنياء أنفسهم، لأنهم هم أصحاب التجارات والصناعات وغير ذلك.

والزكاة مع تحريم الربا تُوجد في المجتمع تفاعلات اقتصادية مختلفة كثيراً عما هو الحال في المجتمعات الغربية ذات الاقتصاد الحر، مع أن الاقتصاد في الإسلام حرّ إلى حدّ كبير، والذي يتابع الإجراءات التي تتخذها الدول الغنية هذه الأيام لعلاج الأزمة الاقتصادية التي ضربتهم يجد أنهم يقتربون بالتدريج من الاقتصاد الإسلامي حيث خفضوا سعر الفائدة على القروض من البنوك إلى نصف بالمائة في بريطانيا وإلى واحد وربع بالمائة في باقي دول الاتحاد الأوربي، وهم يقتربون من إلغائها نهائياً ليشجعوا على قيام مشاريع جديدة تشغل العاطلين،كما ضخت الحكومات مليارات الدولارات في المجتمع لتحسين قدرة الناس على الشراء لتنتعش أسواقهم من جديد، وهذا يذكرنا بالزكاة ودورها في تحسين قدرة المجتمع على الشراء مما ينشط التجارات والصناعات ويقي من الكساد.

وأعود إلى الجانب النفسي المؤثر في الاقتصاد الذي من خلاله تكون الصدقات عموماً، والزكاة خاصة، نماءً وزيادة وبركة للمجتمع.ولفهم هذا الجانب نعود لنتذكر الحكمة التي من أجلها فاوت الخالق سبحانه وتعالى في عطائه بين الناس، فكان منهم الفقير ومنهم الغني.وهذه الحكمة الهامة هي في إيجاد الدافع لدى أفراد المجتمع ليقبلوا العمل في المهن المختلفة الشاقة أو اليسيرة، كل بحسب احتياجه، وبحسب الفرصة المتاحة له، وهذه الفرص هي من فضل الله الذي يتفاوت من فرد إلى آخر.

وعندما توجد الحاجة المالية يوجد الدافع إلى العمل، فالنفس البشرية فيها شهوة الراحة، والكسل، والتفرغ للهو والتمتع، ولولا الحاجة فلربما لم يعمل من الناس إلا القلائل الذين سيكون عملهم مدفوعاً بدوافع نفسية أخرى. وكلما استغنى الإنسان مال إلى رفض العمل الشاق، أو رفض العمل ذي الأجر الرخيص، وسعى إلى عمل أقل مشقة، وأعلى أجراً. وقد بيّن المولى هذه الحكمة من تفاوت

المؤمن الذي يضعف أحياناً، فيقع في فاحشة، أو يظلم نفسه بارتكاب منكر من المنكرات، لا يعني ذلك أن صلاته لم تنفعه وأنّ تلاوته لذكر الله لم تؤثر فيه، إنّما هي الطبيعة البشرية حيث قد يقع الإنسان في كثير من الأحيان في حيرة وتردد بين اختيارات متعددة، ويكون لديه من الدوافع النفسية المتعارضة ما يدعوه لفعل أمر ما، وما ينهاه عن فعله

الناس في عطاء الله عندما قال: {أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضاً سُخْرِيّاً وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ{32}} (الزخرف:32).

ومن خلال الزكاة والصدقات الأخرى يتحقق التكافل الاجتماعي في المجتمع، حيث تتأمن حاجة الفقير؛ الذي عجز عن العمل، أو الذي عمل لكن دخله لا يكفيه.

وفي القرن العشرين وجدت صيغ أخرى للتكافل الاجتماعي في المجتمعات الصناعية وبخاصة الغربية، لكنها لا تقوم على الصدقات بل على الضرائب المفروضة على الجميع، وفرض على أصحاب العمل أن يدفعوا إلى الهيئات المسؤولة عن الضمان الاجتماعي مبلغاً يكاد يعادل المرتب المدفوع للعامل أو الموظف لديهم، وذلك عن كل عامل أو موظف لديهم، وهذا يعني أن العامل الذي يتقاضى سبعة آلاف شهرياً يكلف صاحب العمل حوالي الأربعة عشر ألفاً، ومن هذا المال الإضافي الذي يدفعه صاحب العمل تقوم الحكومة بصرف رواتب لمن خسر عمله ريثما يحصل على عمل جديد. وهذا يؤدي إلى شعور العامل بقدر من الأمان، إذ لصاحب العمل الحرية في فصله من عمله متى شاء، وفيه قدر من الأمان للمجتمع حيث يستغني العاطل عن العمل عن الجريمة لتأمين احتياجاته الأساسية، لكن هذا النوع من الضمان الاجتماعي، وهذا الشكل من التكافل لا يخلو من مساوئ وأهم هذه المساوئ أن العاطل عن العمل يزهد فيما يعرض عليه من أعمال، ما لم يكن المرتب المعروض أكبر بكثير مما يحصل عليه شهرياً من الضمان الاجتماعي، فإن كان يتقاضى من الضمان الاجتماعي خمسة آلاف مثلاً وأتته فرصة عمل مرتبها سبعة آلاف، فإنه سيرى أنه سيعمل من أجل ألفين، ولا يرى الألفين كافيين مقابل جهده وعمله، فيرفض هذا العمل، وينتظر عملاً بأجر أعلى، والبعض قد يُؤثر الحياة البسيطة بمرتب الضمان الاجتماعي، ويزهد في العمل كله.

إنّ الصلاة والقرآن عاملان معينان للمؤمن كي يبقى في حالة من التقوى، لكنهما لا يسلبانه الإرادة، ولا يلغيان كلّ النوازع البشرية لديه من شهوة، أو غير ذلك

وكل هذا يؤدي إلى ارتفاع الأجور في المجتمع وغلاء السلع المنتجة فيها وغلاء الخدمات.. وهذا ناتج إلى حد كبير عن عدم تحرج العاطل عن العمل من البقاء معتمداً على المعونة الاجتماعية، لأنها تأتيه من الحكومة، والحكومة بالنسبة

للمواطنين كالأب بالنسبة لأولاده لا يخجلون من الانتفاع من عطاياها، أما الزكاة وباقي الصدقات، فإنها تشكل مصدر أمان للفقير؛ الذي يمكن أن يفقد عمله أو صحته، وأمان للمجتمع من أية جريمة ناتجة عن الاحتياج أو عن الحقد والحسد. لكن الزكاة وباقي الصدقات وإن كان الأصل أن تجمعها الحكومات وتوزعها على مستحقيها، فإن المؤمن يتحرّج من الاعتماد عليها، ومن التكاسل عن العمل طالما أنه يأتيه من الزكاة ما يكفيه، فالمؤمن الذي يحتاج خمسة آلاف في الشهر لنفقته ونفقة عياله، سيعمل ولو بثلاثة آلاف، كي يقلل من اعتماده على الصدقة ما أمكن، فكيف لو أتته فرصة عمل تؤمن له الخمسة آلاف كلها؟ أتراه يتردد أو يترفّع عنها؟ إنه يعلم أن الصدقة بما فيها الزكاة لا تحلّ لقويً، ولا لذي مِرَّة سويً إلا ريثما يعمل، وإلا للضرورة الحقيقية.

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (لا تحل الصدقة لغني ولا لذي مِرَّةٍ سوي) قال أبو محمد: يعني قويّ (رواه الدارمي في سننه). وقد كَرَّه النبي صلى الله عليه وسلم المؤمنين من السؤال، فقال: (ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزعة لحم) (رواه مسلم).

وقال صلى الله عليه وسلم: (من سأل الناس أموالهم تكثُراً فإنما يسألُ جمراً، فليستقل أو ليستكثر) (رواه سلم). وهذا الحديث يبيّن حرمة أكل الصدقة لمن ليس في حاجة إليها. كما حثّ الني صلى الله عليه وسلم على العمل مهما كان شاقا، وقليل الأجر، ليستغني المؤمن عن الصدقات بأنواعها بما فيها الزكاة. قال صلى الله عليه وسلم: (لأن يغدو أحدكم فيحطب على ظهره فيتصدق به ويستغني به من الناس، خير له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ذلك، فإن اليد العليا أفضل من اليد السفلى، وابدأ بمن تعول.) (رواه مسلم).

وقد تحمّل أحد الصحابة حِمالةً، أي: مبلغاً من المال تكفل بدفعه ليفضّ خصومة بين متنازعين وذلك بهدف الإصلاح فيما بينهم، فلجأ إلى النبي صلى الله عليه وسلم طالباً المعونة في هذه الحمالة التي تحملها، يقول قبيصة بن مخارق الهلالي: تحمّلت حمالةً، فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها، فقال:

طلب المتعة والإفراط فيها والشهوة في الامتلاك المادي أو الرمزي (كما في المعاشرة الجنسية) قد يكون نتيجة لمشاعر الإحباط والحرمان، فيكون هذا الامتلاك بمثابة تعويض عما يتصوّر الإنسان أنه قد حرم منه

الصلاة وتلاوة القرآن تعيدان للنفس المؤمنة اطمئنانها وسكينتها، وتوكلها على الله، فالصلاة حمد وثناء وإعلان للرضا عن الله تعالى يعارض أية مشاعر إحباط وسخط

(أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها) قال: ثم قال: (يا قبيصة! إن المسألة لا تحلُ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش (أو قال: سداداً من عيش)، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوي الحجا من قومه: لقد أصابت فلاناً فاقة، فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش (أو قال: سداداً من عيش) فما سواهن من المسألة يا قبيصة سُحت يأكلها صاحبها سحتاً) (رواه مسلم).

وعن أبي سعيد الخدري أنّ ناساً من الأنصار سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نفد ما عنده قال: (ما يكن عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يُعفّه الله، ومن يستغني يُغنه الله، ومن يصبر يُصَبِّرْه الله، وما أُعطي أحد من عطاء خيراً وأوسع من الصبر) (رواه مسلم).

إنها دعوة إلى العفة وغنى النفس. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس) (رواه مسلم).

وعن مالك الأشجعي قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أو ثمانية أو سبعة، قال: (ألا تبايعون رسول الله؟) فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعُك؟ قال: (على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به أحداً، والصلوات الخمس، وتطيعوا (وأسرً كلمةً خفيفة) ولا تسألوا الناس شيئاً) فلقد رأيت بعض أولئك النَفر يسقط سوط أحدهم فما يسأل أحداً يناوله إياه. (رواه مسلم).

ولحكمة عظيمة حرّم الله على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله أن يأكلوا الصدقة. قال أبو هريرة رضي الله عنه: أخذ الحسن بن علي تمرةً من تمر الصدقة فجعلها في فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (كخ كخ، ارم بها، أما علمت أنّا لا نأكل الصدقة؟!) (رواه مسلم) .

وذات مرة قصد شابان من آل محمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يريدان منه أن يوظفهما على الصدقات، كي يستعينا بما يناله العاملون على الصدقات منها، وذلك ليتزوجا، فقال لهما النبي صلى الله عليه وسلم: (إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخُ الناس) (رواه مسلم).

الصلاة بما فيها من أفعال وأقوال تعطي المؤمن الشعور بالإنجاز وأنه قد فعل شيئا ذا معنى، وذا بقاء، وهي بذلك تعالج واحداً من أهم أسباب القلق الإنساني، وهو: الإحساس باللامعنى، ويخلوّ حياته من الإنجاز

وفي رواية ثانية لمسلم: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهما: (إن هذه الصدقات إنما هي أوساخ الناس وإنها لا تحلُ لمحمد ولا لآل محمد).

والذي يتأمل هذه النصوص يستطيع أن يتصور كيف تقوم الزكاة وغيرها من الصدقات بكفاية المحتاجين في المجتمع، دون أن تُضعف الدافع لديهم للعمل، ودون أن ترفع الأجور في المجتمع، ودون أن ترتفع من جراء ذلك الأسعار، وتضعف قدرة الصناعة في ذلك المجتمع على منافسة صناعات تنتجها مجتمعات فيها يد عاملة رخيصة. وهذا لا يعني أن الإسلام يحرص على بقاء فئة معدمة شديدة الفقر في المجتمع، إذ كلما ارتفع مستوى الحياة في المجتمع، كلما ارتفع الحد الأدنى للدخل الذي يحل للمسلم أن يأخذ من الزكاة والصدقات الأخرى إن قلّ دخله عنه، فليست القضية مجرد لقمة طعام تمنع من الموت جوعاً، أو قطعة ثياب تستر العورة.

في الصلاة وتلاوة القرآن وذكر الله عموماً حماية للمؤمن من تزيينات الشيطان، ونهياً له عن الفحشاء والمنكر، ومصدراً للسعادة في الدنيا قبل الآخرة.

لكن التفاوت في المجتمع مفيد للمجتمع، ولا تستقيم الحياة إلا به، فلو انعدم الفقراء من مجتمع استورد الفقراء من المجتمعات الأخرى، وهذا ما نراه في المجتمعات الغنية التي تستورد اليد العاملة؛ التي ترضى بالعمل فيما يترفع عنه أهل ذلك البلد الأغنياء، أو لا يقومون به إلا بأجر مرتفع جداً. إن الزكاة وباقي الصدقات تحل مشكلة الفقر دون أن تضعف الدافعية للعمل ودون أن تتسبّب في الغلاء كما ذكرنا. وإن الإسلام شجع المسلم على العمل والكسب الحلال ليكون للزكاة فاعلاً لا آخذاً، ولم يرض النبي صلى الله عليه وسلم من المسلم أن يتصدق بكل ماله لينضم بعدها إلى الفقراء المحتاجين.

إذاً الصدقات عموماً، والزكاة خاصة فيها تطهير للنفوس المؤمنة، وفيها النماء والزيادة والبركة للمجتمع المسلم

روى أبو داود في سننه (الحديث رقم 1673) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ جاء رجل بمثل بيضة من ذهب، فقال: يا رسول الله، أصبتُ هذه من معدن فخذها فهي صدقة ما أملك غيرها، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أتاه من قبل ركنه الأيمن فقال مثل ذلك، فأعرض عنه، ثم أتاه من قبل ركنه الأيسر، فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أتاه من خلفه، فأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فحذفه بها، فلو أصابته لأوجعته أو لعقرته، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(يأتي أحدكم بما يملك فيقول: هذه صدقة، ثم يقعد يستكف الناس، خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى) (رواه الدارمي أيضا).

كما قال الدارمي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (خير الصدقة عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول). وروى الدارمي أيضا عن أبي لبابة أنه لما رضي عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله! إن من توبتي أن أهجر دار قومي، وأساكنك وأنخلع من مالي صدقة لله ولرسوله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يجزي عنك الثلث). فالثلث بمثابة حدّ أعلى.

وقد روى البخاري ومسلم عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال: جاءني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني عام حجة الوداع من وجع اشتد بي، فقلت: يا رسول الله إني بلغ بي من الوجع ما ترى وأنا ذو مال، ولا يرثني إلا ابنة لي، أفأتصدق بثلثي مالي؟ قال: (لا) قلت: فالشطرُ يا رسول الله؟ فقل: (لا)، قلت: فالثلث يا رسول الله ؟ قال: (الثلثُ والثلثُ كثير أو كبير، إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أُجرت عليها، حتى ما تجعل في فِيِّ امرأتك).

وقد روى أبو داود والدارمي حادثة قد تتناقض مع ما سبق، إذ رويا عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً أن نتصدّق، فوافق ذلك مالاً عندي، فقلت: اليوم أسبق أبا بكر، إن سبقته يوماً. فجئت بنصف مالي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أبقيت لأهلك؟) قلت: مثله. قال: وأتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ما عنده، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما أبقيت لأهلك؟) قال: أبقيت لهم الله ورسوله. قلت: لا أسابقك إلى شيء أبداً.

لكن هذه الحادثة التي تفيد الرخصة في أن ينفق المؤمن نصف ماله، أو كلّ ماله، إنما كانت في ظروف طوارئ وجهاد، إذ بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الروم جمعت الجموع تريد غزوه في بلاده، وكان ذلك في زمن عسرة الناس وجدب البلاد وشدة الحر، فأخذ النبي صلى الله عليه وسلم يحثّ المسلمين

تطهّر الزكاة والصدقات الأخرى نفوس المؤمنين من مشاعر سلبية عديدة، كالشعور بالذنب، والحسد، والحقد، والعداوة، والبغضاء، والقلق، والعزلة، والعجز، والنبذ، والهجران

الصدقات بما فيها الزكاة، إنما هي عطاء مجسّد، يتجلّى فيه قمة النضج النفسي عند الإنسان؛ لأن الإنسان الناضج نفسياً هو الإنسان المعطاء.

الموسرين على تجهيز المعسرين الذين ليس لديهم مؤونة وسلاح وراحلة؛ ليتمكنوا من الخروج مع الرسول صلى الله عليه وسلم للقاء الروم في تبوك، وقد سمي الجيش الذي تكون في تلك الغزوة: جيش العسرة. ولتجهيز جيش العسرة أتى أبو بكر رضي الله عنه بكل ماله، وأتى عمر رضي الله عنه بنصف ماله، وأتى عثمان رضي الله عنه بعشرة آلاف دينار وثلاثمائة بعير بأحلاسها وأقتابها، وخمسين فرساً، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم ارض عن عثمان فإني راضٍ عنه). هذه هي الظروف التي قبل بها النبي صلى الله عليه وسلم نصف مال عمر، وكل مال أبي بكر، وهذه ظروف استثنائية، المجتمع كله فيها مهدد.. إنها ظروف حياة أو موت لدولة الإسلام الناشئة، والاستثناء لا يلغي القاعدة، بل يؤكدها، والقاعدة أن الصدقة تكون عن ظهر غنى.

العطاء إنما هو حُبٌ تجسّد، والحب الناضج إنما هو حب العطاء لا حبّ الأخذ والانتفاع.

ولنتأمل هذه الآيات الكريمة التي يخاطب فيها رب العالمين رسوله صلى الله عليه وسلم وهو يأمره بالصدقة، أو الكلمة الطيبة والقول الميسور إن لم يكن لديه ما يعطي السائلين، وذلك ريثما تأتيه رحمة من ربه، أي: خير من ربه يُمَكِّنُه من إعطاء أولئك السائلين. إنه في هذا السياق بالذات ينهى رب العالمين رسوله صلى الله عليه وسلم وينهى معه كل مؤمن عن أن يبسط يده كل البسط، فيقعد ملوماً محسوراً، إنما هي الصدقة التي تترك المؤمن غنياً، لا التي تأكل ماله وتتركه في زمرة الفقراء المحتاجين، يقول تعالى: {وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلاَ تُبَذِّرْ تَبْذِيراً{26} إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُواْ إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُوراً{27} وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاء رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلاً مَّيْسُوراً{28} وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَّحْسُوراً{29} إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً{30}} (الإسراء: 26-30).

إن هذه الصدقات تُطهّر نفوس الأغنياء في الوقت نفسه من الشح والبخل والإمساك والتقتير {وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ{9}}

إن المؤمن قد يحسُ بالتقصير والذنب إن أمسك خيراً لديه، ولم يعطه للسائلين والفقراء، لكن الله يطمئن المؤمن أن الله هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدره، أي: يضيّقه على من يشاء لحكمة يراها، إنما على المؤمن الاعتدال بحيث تكون صدقته عن ظهر غنىً، وبحيث يبقى من المؤمنين الذي قال عنهم المولى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ{1} الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ{2} وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ{3} وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ{4}} (المؤمنون:1-4).

وإنني لا أدعو المؤمنين إلى الإقلال من صدقاتهم، إنما أدعوهم لئلا يشعروا بالذنب عندما يقرؤون عن بعض الزهاد الصالحين أنهم كانوا ينفقون كل ما يأتيهم، فلو أن كل مسلم أخرج زكاة ماله فلربما لا يحتاج الأمر فوق الزكاة شيئاً، أو ربما لزم بعض الصدقات مع الزكاة.

والمؤمن الذي يقتصر في إنفاقه على جزء من ماله، ويبقي لنفسه أغلب ماله ليس مذنباً، ولا مقصراً، فبقاؤه غنياً يعني أنه سيتصدق مرات ومرات، والقليل الدائم خير من الكثير المنقطع. قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ{219}} (البقرة: 219). قال القرطبي في تفسيره لهذه الآية الكريمة: (والعفو: ما سهُل، وتيسَر، وفضلَ، ولم يشق على القلب إخراجه.. فالمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم، ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة).

إن الصدقات تُطهّر نفوس المحرومين من أية مشاعر سخط تجاه الخالق، يمكن للحرمان أن يولّدها في نفوسهم، وتطهرهم من أي مشاعر عداوة موجهة إلى باقي أفراد المجتمع ناتجة عن الإحباط الذي يمكن للحرمان الزائد عن الحد أن يثيره في نفوسهم، وتطهرهم من أي شعور بالنبذ، والهجران، والقطيعة بينهم وبين المجتمع

ج – الصيام والاعتكاف

الفصل الأول: نظرات نفسية في الصيام

1 - "لعلـكم تتقــــــــون"

قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون" (البقرة 183).. إذن التقوى هي الثمرة المرجوة من الصيـــام. ولكن كيف يؤدي الصيام إلى التقوى؟ إن التقوى اتقاء لغضب الله، والسبيل إلى اتقاء غضبه هي اجتناب ما حرم، والامتناع عن الوقوع فيما نهى عنه، لكن أهواء النفوس ودواعي الانحراف عن هدي الله تحيط بالمؤمن وتغريه بالوقوع فيما حـــرم الله، والشيطان قد كرس حياته ليزين للناس معصية الله، ويجعلهم يشتهونها، لما يظنون فيها من متعة أو منفعة.. والتقوى تتطلب قدراً كبيراً من التحكُّم بالنفس ومقاومة هواها: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى" (النازعات 40 – 41). والإنسان لا يولد متحكماً بنفسه ومسيطراً على أهوائه، بـــل الطفل الصغير لا يكاد يصبر عن شهوة أو حاجة، إنما يطلب إشباع رغباته على الفور، ويزعجه ألاّ يحصل على ما اشتهاه، فيصرخ

ويبكي ويصر على ما أغراه وحرك هواه، لكن هذا الصغير الذي تتحكم به أهواء نفسه وشهواتها يكبر ويتعلم من والديه والآخرين من حوله أن عليه أن يتحكم بأهوائه ويمنع نفسه عن شهواتها أحياناً، وأنـــه لا يمكنه أن يفعل ما يشاء دائماً، ولا أن يتمتع بكل ما ترغب به نفسه، بل هنالك ممنوعات إذا وقع فيها وقعت عليه العقوبة وناله الألم النفسي أو الجسدي أو كلاهما معاً.. لذا كان الطفل المدلل الذي يغرقه والداه بكل ما يشتهيه من متع وأشياء، كان هذا الطفل أضعف الناس من حيث التحكم بأهوائه وضبط نفسه أمام المغريات. وعلماء النفس المعاصرون يرون أن التحكم بالنفس (Self Control) يتركب من مكوّنتين الأولى هي مقاومة الإغراء (Resistance to Temptation)، والثانية هي تأجيل الإشباع (Delay of Gratification)، حيث تعني مقاومة الإغراء أن يمتنع الإنسان عن فعل ما حُرِّم عليه رغم قدرته على ذلك وتوفر الفرصة أمامه للوقوع فيه، ويعني تأجيل الإشباع أن يحرم الإنسان نفسه من رغبة ومتعة عاجلة كي يحصل على متعة آجلة أعظم منها .. فالذي يمتنع عن أخذ ما ليس له رغم سنوح الفرصة لذلك مع أَمْنِ العقوبة فإنه يكون قد قاوم الإغراء، وأما الطالب الذي يحرم نفسه من اللعب والتسليـــة كي يدرس أملاً في نجاح مشرِّف يستطيع بعده أن يلعب ويتسلى وهو يتمتع بالنجاح في الوقت نفسه، هذا الطالب يكون قد أجّل إشباع رغبته في اللعب والتسلية.. وبالتمرس على مقاومة الإغراء وتأجيل الإشباع تنمو قدرة الإنسان على التحكم بنفسه ومقاومة هواه.

والذي يتأمل صيامنا في رمضان يجد فيه دورة سنوية مكثفة على مقاومة الإغراء وتأجيل الإشباع وبالتالي على التحكم بـــالنفس الذي يشكل أساساً هاماً للتقوى .

اللهم آتِ نفوسنا تقواها وزَكِّها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها.

2-" إن الله مبتليكم بِنَهَر "

قال تعالى: "يا أيها النبي حرِّض المؤمنين على القتال، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون" (الأنفال 65) ، إذن بالصبر تتضاعف قدرة المؤمن على القتال وقوته

إن للزكاة وغيرها من الصدقات أثراً كبيراً في ملء النفس المؤمنة بالرضا والسعادة؛ إذ هي تحقيق للذات وهي تحقيق للخلافة في الأرض، عندما يتمثّل المؤمن من خلال الصدقات الكثير من صفات المولى، وأهمها: العطاء، فالله هو المعطي وهو المقيت

في الحرب والبأس عشر مرات.. هذا هو الحال المثالي الذي يتحقق فيه للمؤمن أقصى درجات الصبر وأعلاها، ويبقى المثال فوق الواقع ، ولا عيب في ذلك، إذ المثال هو القمة التي يصبو إليها الإنسان ويسعى لبلوغها، والإنسان على الطريق الصحيحة ما دام متجهاً صوب المثال مهما تعثر وقام وتكرر تعثره وقيامه، ويبقى للضعف البشري أثره في جعل الواقع دون مستوى المثال.. لذا فإن المولى تعالى بعد أن حدثنا عن المؤمن الذي بلغ صبره مستوى المثال والكمال فتضاعفت قوته وقدرته على التغلب على عدوه عشر مرات، بعدها يحدثنا عن الواقع وعن رضاه منا وقبوله بما هو دون المثال بكثير، يقول تعالى: "الآن خفف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله، والله مع الصابرين" (الأنفال 66)، فبالصبر تتضاعف قوة المؤمن أمام عدوه مرتين رغم الضعف الذي يمنع من بلوغ الصبر المثالي.

عندما ينجح المؤمن في أن يعطي للآخرين ويُدخل السرور إلى قلوبهم، فإنه يتمتع بالسعادة ويستشعر الرضا عن نفسه، لا العجب بها، والتكبر، والتعالي

ولنتفكر في ضوء ذلك بقصة بني إسرائيل الذين بعث الله لهم طالوت ملكاً عليهم يقودهم في القتال في سبيل الله، وكان ذلك إجابة لطلبهم "فلما كتب عليهم القتال تولَّوْا إلاّ قليلاً منهم" (البقرة 246).. وبعد أن شكل طالوت جيشاً من بني إسرائيل، وانطلق بهم مجاهداً في سبيل الله أراد له الله ألاّ يصحبه في جهاده إلاّ الصابرون منهم، فاختبرهم اختباراً بسيطاً يُظهر مدى صبرهم وبالتالي كفاءتهم المتوقعة في القتال الذي هم مقبلون عليه.. لقد كانوا عطاشاً وكان الاختبار هو أن يمتنعوا عن شرب الماء من نهر يمرون عليه في طريقهم، وكان في عذوبة ماء النهر إغراء لهم بالشرب منه، لكن كان مطلوباً منهم مقاومة الإغراء وتأجيل الإشباع إلى أن يأذن الله لهم بذلك بعد أن يجتازوا هذا الاختبار لصبرهم، ورحمة بهم رخص لهم أن يغترفوا من النهر غرفة باليد تبل الريق وترطب الفم.. قال تعالى: "فلما فصل طالوت بالجنود قال إنَّ الله مبتليكم بِنَهَر فمن شرب منه فليس مني ومن لم يطعمه فإنّه مني إلاّ من اغترف غرفة بيده.. فشربوا منه إلاّ قليلاً منهم" (البقرة 249) ، ولم يرغب طـــالوت إلاّ بهذه الفئة القليلة الصابرة كي تكمل معه مسيرة الجهاد والقتال في سبيل الله: "فلمـــا جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا

عندما توجد الحاجة المالية يوجد الدافع إلى العمل، فالنفس البشرية فيها شهوة الراحة، والكسل، والتفرغ للهو والتمتع، ولولا الحاجة فلربما لم يعمل من الناس إلا القلائل الذين سيكون عملهم مدفوعاً بدوافع نفسية أخرى

لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده، قـــال الذين يظنون أنهم ملاقو الله كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، والله مع الصابرين، ولما برزوا لجالوت وجنوده قالوا ربنا أفْرغ علينا صبراً وثبت أقدامنا وانصرنـــا على القوم الكافرين، فهزموهم بإذن الله .." (البقرة 249 – 251) .

ألا يذكرنا اختبار الصبر الذي اختار طالوت جنوده على أساسه، ألا يذكرنا بصومنا في رمضان حيث نتدرب فيه كل عام على مقاومة الإغراء وتأجيل الإشباع والتحكم بالنفس عموماً، وبالتالي على الصبر؟ والصبر على الطاعات وعلى حرمـــان النفس من هواها الذي لا يتفق مع أمر الله، هذا الصبر من عناصر التقوى التي لا تقوم إلاّ بها، فالصوم في رمضان درس في الصبر وتربية للنفوس المؤمنة على تقوى الله.

من خلال الزكاة والصدقات الأخرى يتحقق التكافل الاجتماعي في المجتمع، حيث تتأمن حاجة الفقير؛ الذي عجز عن العمل، أو الذي عمل لكن دخله لا يكفيه

3- " فإنـــه له وجــــاء "

روى البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن يزيد قال: دخلت مع عَلْقَمَة والأسودِ على عبد الله، فقال عبد الله: كُنّا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم شباباً لا نجد شيئاً، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا معشرَ الشباب، من استطاع الباءَةَ فليتزوج، فإنَّهُ أَغَضُّ للبصر، وَأَحْصَنُ للفرجِ، ومن لم يستطعْ فعليه بالصومِ فإنّهُ له وجاءٌ " (ورواه مسلم أيضاً في صحيحه) .

إن تفوق الإنسان على جميع الحيوانات التي خلقت قبله يكمن في تحرره من الغرائز إلى حد كبير يكاد يكون تاماً، والرغبة الجنسية لدى الإنسان تتبني على أساس عضوي مرتبط بالهرمون الذكري الذي يزيد هذه الرغبة عند الرجال وعند النساء على السواء، وإن كانت النساء تحتاج إلى مقدار العشر مما يحتاج إليه الرجال من الهرمون الذكري لهذا الغرض، كما يرتبط بنشاط النواقل العصبية في المخ مع أهمية خاصة للناقل المسمى "الدوبامين"، وتتبني هذه الرغبة أيضاً على خبرات الحياة منذ الطفولة وطيلة العمر، وعلى مشاعر أخرى حيث يمكن أن يعبر اللقاء الجنسي عن قمة المودة أو على النقيض يمكن أن يعبر عن أشد العداوة والبغضاء.

أما الزكاة وباقي الصدقات، فإنها تشكل مصدر أمان للفقير؛ الذي يمكن أن يفقد عمله أو صحته، وأمان للمجتمع من أية جريمة ناتجة عن الاحتياج أو عن الحقد والحسد

والصوم وِجاء لمن لا يستطيع الباءة، أي لا يملك القدرة المالية على الزواج، وكثيرون يظنون أن الصوم يضعف الرغبة الجنسية من خلال إضعافه للجسد عموماً بتجويعه وتعطيشه، لكن هذا ليس صحيحاً، فالصوم وجاءٌ حتى لو تسحر الصائم سحوراً طيباً بحيث لا ينقص من غذائه ذلك اليوم شيئاً، والصوم وجاء حتى لو أفطر الصائم متعجلاً للفطر على أشهى الطعام وأفضله من حيث القيمة الغذائية.. والصوم لا يقتل الرغبة الجنسية عند الصائم، فقد كان الجماع محرماً في شهر الصوم حتى في الليل فوقع كثير من الصحابة في المخالفة لعدم قدرتهم على منع أنفسهم فقال تعالى لهم: "أحل لكم ليلة الصيام الرفثُ إلى نسائكم، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم .." (البقرة 187) .

إن الزواج بما يتيحه من فرصة لإشباع الرغبة الجنسية عند الرجل والمرأة يجعل من اليسير عليهما أن يغضا البصر عن الحرام وأن يحصنا الفرج عن الزنا، لكن الإحباط الذي تتعرض له هذه الشهوة الفطرية عند الأعزب والعزباء اللذين لا يقعان في الحرام، هذا الحرمان والإحباط مع ما في أبدانهما من عنفوان وهرمونات خلقت لتحث الناس في عمر الشباب على الانجذاب والتزاوج ليستمر التناسل والتكاثر ولتتعمق المودة بين الزوجين، هذا كله يمكن أن يسبب للشاب أو الفتاة انشغالاً وسواسياً للفكر بهذه الشهوة، يجدان صعوبة بالغة في إيقافه والتحرر منه كي يتفرغا إلى ما يريدان من درس أو تحصيل أو عمل أو عبادة.. إن هذا الانشغال الوسواسي بالشهوة الجنسية يشبه انشغال فكر العاشق بمعشوقه، وانشغال فكر الجائع المحروم بالطعام حتى إنه يحلم في نومه بوجبات شهية ويكثر حديثه عن المأكولات كما بينت ذلك الدراسات النفسية، وكما يلاحظ الموظفون عند اقتراب الدوام من نهايته حيث من السهولة توريطهم بحديث لا يكاد ينتهي عن الطعام وأصنافه.

والصوم وجاء من حيث قدرته على إيقاف هذا الانشغال الوسواسي بالشهوة الجنسية، وقد لا يظهر أثره من أول يوم صيام لكن مع مرور بضعة أيام يشعر الشاب والفتاة أن بمقدورهما إبعاد الموضوع عن الذهن والتركيز على ما لديهما

قال صلى الله عليه وسلم: (من سأل الناس أموالهم تكثُراً فإنما يسألُ جمراً، فليستقل أو ليستكثر) (رواه سلم). وهذا الحديث يبيّن حرمة أكل الصدقة لمن ليس في حاجة إليها

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس)

التقوى هي الثمرة المرجوة من الصيـام

من مهمات، إذ لم تعد الخيالات الجنسية تقتحم عليهما الذهن والخاطر، هذا بشرط أن يترافق الصوم مع الابتعاد عن المثيرات الجنسية، إذ إن وجد المثير وجدت الشهوة حتى في حال الصوم، وهذا ما يجعل عامة الناس لا يحبذون زواج الشباب قبيل رمضان أو خلاله لصعوبة ضبط النفس مع وجود المثير وعدم وصول هذين الشابين إلى قدر من الإشباع الذي يتمتع به المتزوجون عادة، أما الآلية التي يقوم الصوم من خلالها بتأثيره هذا فما زالت تنتظر الباحثين المسلمين كي يكتشفوها.

ثم إن الصوم وجاء من حيث هو عبادة مستمرة من الفجر إلى الغروب، إن نسي الصائم أنه متلبس بها للحظات، ما يلبث أن يتذكر ليعود إلى جو العبادة وغض البصر وحفظ اللسان.

ويبقى للزواج الأفضلية، إذ لم يخلق الله فينا الشهوة ليعذبنا بها، لكنه أمرنا أن لا نشبعها بالحرام.. فمن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجـــــــاء ..

4- " فَلْيَقُلْ: إنـــي صائـــــم " :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " قال الله عز وجل كل عمل ابن آدم له إلاّ الصيام فإنه لي وأنا أجْزي به، والصيام جُنَّة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يَرفُثْ، ولا يَصْخَبْ، فإن سابَّه أحد أو قاتله فليقل: إنـــي صائـــم .." (متفق عليه).

لقد كتب الله علينا الصيام في رمضان ليدربنا على التقوى ويجعلنا نجربها ونتذوقها، فننطلق من رمضان في رحلة تقوى تستمر طيلة العمر عاماً بعد عام، وفي كل عام نزداد تقوى لله من خلال صيامنا رمضان آخر.. ولا تكتمل تقوى المؤمن إلاّ بكظم الغيظ، إذ به يتجلى التحكم بالنفس وضبطها في جانب آخر غير الطعام والشراب والشهوة الجنسية، إنها شهوة الانتقام للنفس عند تعرضها لجهل الجاهلين واعتداء المعتدين، وهي شهوة مشروعة طالما بقي المؤمن عادلاً يعاقب بمثل ما عوقب به، فلا ينتقم ممن اعتدى عليه انتقاماً يفوق الإساءة التي تعرض لها فيصبح هو ظالماً لمن بدأه بالعدوان.. ولكننا في الصيام نمتنع عما أحل الله لنا من طعام وشراب وشهوة، ونمتنع معها عما أحل الله لنا من انتقام عادل لأنفسنا،

التقوى تتطلب قدراً كبيراً من التحكُّم بالنفس ومقاومة هواها: "وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هي المأوى"

علماء النفس المعاصرون يرون أن التحكم بالنفس (Self Control) يتركب من مكوّنتين الأولى هي مقاومة الإغراء (Resistance to Temptation)، والثانية هي تأجيل الإشباع (Delay of Gratification)

وهو وإن كان امتناعاً مؤقتاً من الفجر إلى الغروب، لكنه يزيدنا قدرة على الامتناع الدائم عما حرم الله علينا من شهوات فيها الإثم والضرر.

وفي رمضان يزداد المتقون حسن خلق، ويكظمون غيظهم فيكون صومهم أقرب ما يكون إلى الكمال، إذ لا قيمة للامتناع عن الطعام والشراب ما لم يرافقه حسن الخلق والامتناع عما يغضب الله من قول أو عمل، فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه" (رواه البخاري). لكن المؤسف أن البعض يزداد سوء خلق إذا صام في رمضان، ويقل صبره على أهله أو الناس الذين يتعامل معهم في عمله، ويحتج بأنه صائم وليس مستعداً لأن يتحمل أحداً.. إنه لا يصبر على مسبة أو مقاتلة، بل يثور في وجه من قد يلح عليه إلحاحاً بسيطاً طالباً منه حاجته، وصاحب الحاجة أرعن كما يقولون بحكم حرصه على حاجته.. ولو صح أن الصوم عن الطعام والشراب يؤدي إلى سوء الخلق لما كتبه الله علينا ليعلمنا التقوى من خلاله، ولو صح أن الجوع والعطش يجعلان الإنسان سيئ الخلق، لكنا قبلنا ذلك آخر النهار لا أوله، فالموظف الذي يسيء معاملة مراجعيه منذ الصباح الباكر متعللاً بأنه صائم، لا يمكن أن يكون الجوع والعطش سبباً لسوء خلقه وبخاصة إن كان قد تسحر كما يفعل أكثر الصائمين .

تعني مقاومة الإغراء أن يمتنع الإنسان عن فعل ما حُرِّم عليه رغم قدرته على ذلك وتوفر الفرصة أمامه للوقوع فيه، ويعني تأجيل الإشباع أن يحرم الإنسان نفسه من رغبة ومتعة عاجلة كي يحصل على متعة آجلة أعظم منها ..

قد يكون لدى البعض أسباب للعصبية في الصيام، لكن البعض الآخر يستفيد من رمضان كي يعطي نفسه هواها ويظهر غضبه وسوء خلقه مطمئناً إلى أن الصيام عذر مقبول، حيث يتسامح الناس معه على سوء خلقه أولاً لأنهم خير منه، فقد صـــاموا عن الغضب وسوء الخلق مثلما صاموا عن الطعام والشراب، وثانياً لأنهم يحسنون الظن به ويصدقون أنه معذور حقاً في أن يكون سيئ الخلق بسبب الصيام، وهو لسوء خلقه المتأصل فيه يستغل هذه الفرصة ويظهر قلة أدبه.. ومثل هذا المؤمن الذي لم يكتمل إيمانه بعد مدعو لمراجعة نفسه والتذكر أن من الخير له أن يرضي ربه ويحسن خلقه ليدخل في عداد المتقين الذين تنتظرهم جنة عرضها السماوات والأرض .

5- "الصيـــام لا يسبب العصبيـــة"

بعض الصائمين يجدون صعوبة في السيطرة على انفعالاتهم الغضبية، فيثورون لأبسط الأمور، وبعد ثورتهم هذه يدركون أن رد فعلهم كان مبالغاً فيه، ويشعرون بالأسف والندم لأنهم عجزوا عن أن يكونوا على المستوى الراقي المتوقع من المؤمن الصائم.

وليست العصبية وسرعة الاستثارة دليلاً على سوء الخلق دائماً، بل كثيراً ما تنتج عن خلل كيميائي أو كهربائي في المخ يجعل الإنسان على حافة الغضب دائماً، فيغضب ثم يندم لكنه ما يلبث أن يغضب في موقف أخر ويتكرر منه الندم.. ومن الحالات التي تتأثر فيها قدرة الإنسان على الحلم وتحمل الآخرين وكظم الغيظ حالات القلق النفسي والاكتئاب وغيرهما من الحالات النفسية المزعجة، ومنها تأثره بمواد مؤثرة على المخ تناولها إما بقصد العلاج أو بقصد المتعة المحرمة كالخمور والمخدرات والمنبهات، إذ تزيد هذه الأخيرة العدائية عند الإنسان وتجعل الواقع تحت تأثيرها سريع الغضب حتى لو كان في الأصل طيب القلب حسن الخلق.. وكذلك الحالات التي يحرم فيها الدماغ من مادة كيماوية كانت ترفع المزاج فيه فانقطع صاحبه عن تناولها فجأة، فيضطرب عمل خلايا المخ التي تعودت على وجود تلك المادة الكيماوية فيها وبرمجت نفسها على ذلك، ومن المواد التي يتعاطاها الكثيرون ويضطرون للامتناع عنها في نهار رمضان التبغ والكافئين .

لقد شاع التدخين لدى الكثيرين وصار لدى البعض دليلاً على رجولة زائفة، وأكثر المدخنين لا يدرون أنهم مدمنون.. فالمدخن الذي يواظب على التدخين يومياً لمدة طويلة هو مدمن على مادة النيكوتين التي يحتوي عليها دخان السجائر الذي يستنشقه المدخنون، وعند انقطاع المدخن الصائم عن السجائر بضع ساعات يبدأ بالمعاناة من أعراض الحرمان من النيكوتين، وهذه الأعراض تشمل العصبية وسرعة الغضب والتململ والصداع وضعف التركيز وانخفاض المزاج والقلق وضعف الذاكرة واضطراب النوم.. وهي أعراض لا تدوم أكثر من أسبوع عادة إن استمر الإنســـان في الامتناع عن التدخين، لكنها في الأيام الأولى مزعجة وتجعل كثيراً من الصائمين يفطرون على سيجارة قبل أي طعام أو شراب..

بالتمرس على مقاومة الإغراء وتأجيل الإشباع تنمو قدرة الإنسان على التحكم بنفسه ومقاومة هواه

إن هذا الانشغال الوسواسي بالشهوة الجنسية يشبه انشغال فكر العاشق بمعشوقه، وانشغال فكر الجائع المحروم بالطعام حتى إنه يحلم في نومه بوجبات شهية ويكثر حديثه عن المأكولات كما بينت ذلك الدراسات النفسية

وهذا يرينا أن الصيام بحد ذاته لا يسبب العصبية إذ الأصل أن لا يدمن المؤمن على ما ضرّه أكبر من نفعه .

كما أن هناك إدماناً آخر شائعاً بين الناس يتسبب في عصبية بعض الصائمين وهو الإدمان على مادة الكافئين الموجودة في القهوة والشاي والكاكاو والكولا، والانقطاع المفاجئ عن الكافئين يتسبب بعد عدة ساعات بشعور المدمن عليه بالكسل والنعاس وفقد الرغبة في العمل، ويتسبب كذلك بالعصبية وانخفاض المزاج. وإذا طـــال الامتناع المفاجئ عن الكافئين وبلغ ثماني عشرة ساعة أو أكثر فقد يصاب الإنسان بصداع يشمل كامل رأسه يكون الألم فيه نابضاً يشتد مع كل ضربة من ضربات قلبه، وفي أغلب بلاد المسلمين قلما يبلغ صيامنا هذه المدة الطويلة لذا فإنه مـــن المفيد لمن تعود على القهوة أو الشاي أو الكولا أو الكاكاو إما أن يخفف مقاديرهـــا بالتدريج قبل رمضان أو أن يتناول جرعة جيدة منها عند السحور حتى لا يعاني من أعراض الحرمان منها أثناء الصيام.

ومرة أخرى نجد أن الصيام لا دخل له في العصبية وسرعة الغضب إنما هي عادات صار الكثيرون منا أسرى لها يأتي الصيام ليذكرنا ويلفت انتباهنا إلى هذا الأســـر والخضوع الذي وقعنا فيه.

6- "لا حــــــــــرج "

إن من نعم الله علينا أن جعل لنا الليل نسكن فيه وننام، ذلك أن النوم حاجة لا يستغني عنها الإنسان، وهو ضروري ليستعيد الجسد حيويته وطاقته وليستعيد العقل نشاطه بعد التعرض للضغوط النفسية والإجهاد طيلة النهار، وإذا ما حُرم الإنسان النوم مدة تزيد عن يوم كامل بدأ يعاني من الإرهاق النفسي، وإذا زادت الأيام دون أي نوم فإن البعض يضطرب عقلياً وتظهر لديه الأهلاس والتوهمات .

وفي رمضان يضطرب نظام نوم بعض الصائمين إذ ينفقون الليل في السمر والأكل والشرب، حتى إذا اقترب الفجر تسحروا وناموا، وبعضهم يحرص على صلاة الفجر فينام بعد أن يؤديها.. ومع أن الحكومات في معظم البلدان الإسلامية تؤخر بداية الدوام الرسمي في رمضان فإن الساعات الباقية بين الفجر وبداية الدوام لا تكفي ليستعيد هذا الصائم نشاطه العقلي والبدني وقد حرم نفسه من

الصوم وجاء من حيث قدرته على إيقاف هذا الانشغال الوسواسي بالشهوة الجنسية، وقد لا يظهر أثره من أول يوم صيام لكن مع مرور بضعة أيام يشعر الشاب والفتاة أن بمقدورهما إبعاد الموضوع عن الذهن والتركيز على ما لديهما من مهمات، إذ لم تعد الخيالات الجنسية تقتحم عليهما الذهن والخاطر، هذا بشرط أن يترافق الصوم مع الابتعاد عن المثيرات الجنسية

ساعات النوم التي اعتاد عليها، فيذهب إلى عمله والإرهاق ظاهر على وجهه والكسل مسيطر عليه ولا رغبة له في العمل، فتمر ساعات العمل شاقة عليه ومزعجة له. إنها عادة لا تتمشى مع نمط الحياة المعاصرة حيث الواجبات الكثيرة والمواعيد المنتظمة، وحتى أيام النبي صلى الله عليه وسلم حيث لم يكن شعور الناس بالزمن زائداً كما هو حالنا اليوم، مع ذلك لم تكن عادته صلى الله عليه وسلم أن يسهر الساعات الطويلة ينتظر السحور إلاّ إن سهر لقيام الليل وتلاوة القرآن. إن لأبداننا علينا حقاً، ويكفيها في رمضان مشقة الصيام عن الطعام والشراب والشهوة، ومن الخطأ أن نضيف إلى تلك المشقة اضطراب نظام النوم لدينا حيث ننام في النهار بعد العودة من أعمالنا أكثر بكثير مما ننام في الليل.

ومن ناحية أخرى فإن بعض الصائمين الميالين بطبعهم إلى القلق النفسي قد يعانون في رمضان من انخفاض معنوياتهم في النهار، ويبدأ ذلك لديهم منذ الصباح مع أنهم لم يجوعوا بعد ولم يعطشوا وبخاصة إن كانوا قد تسحروا قبيل الفجر، وانخفاض معنوياتهم هذا يعود إلى إحساسهم بقلق غامض مرتبط بخوفهم من المعاناة نتيجة عدم قدرتهم على الأكل والشرب إلى غروب الشمس، وهذا قلق وتخوف لا داعي له، إذ ديننا دين رفع الحرج، وديننا دين الرحمة ولا مكان فيه لتعذيب النفس، فالذي صام إن بلغ به الجهد حد الألم والمعاناة فالرخصة له في أن يفطر ويصوم بعد رمضان بدلاً عما أفطر، هذه الرخصة قائمة، وكل مؤمن أدرى بنفسه وبقدرته على إتمام صومه، ولن يخدع اللهَ أحدٌ، فهو العالم بالسر وما أخفى من السر، وهو الذي يعلم ما في نفوسنا ولا نعلم ما في نفسه سبحانه وتعالى، لكن الذي لا شك فيه ولا خلاف عليه أن الله لا يرضى لنا العذاب والمشقة والحرج، وأننا مطالبون أن نتقيه ما استطعنا، وأنه لا يطالبنـــا بما لا طاقة لنا به، والمؤمن الصائم إن كان من الذين يميلون إلى القلق النفسي سيخف قلقه إن أدرك أن الرخصة بالفطر إن بلغ به الجهد حداً يؤلمه قائمة ومتاحة له، وعلى الغالب فإنه لن يفطر، إذ قلما يبلغ الجهد بالإنسان حد العجز عن الاستمرار في الصوم دون معاناة إلاّ في حالات خاصة يتعرض فيها الصائم لحر شديد مثلاً أو لا يصحو للسحور ويجهده الجوع أو غير ذلك .

لا تكتمل تقوى المؤمن إلاّ بكظم الغيظ، إذ به يتجلى التحكم بالنفس وضبطها في جانب آخر غير الطعام والشراب والشهوة الجنسية، إنها شهوة الانتقام للنفس عند تعرضها لجهل الجاهلين واعتداء المعتدين

لا قيمة للامتناع عن الطعام والشراب ما لم يرافقه حسن الخلق والامتناع عما يغضب الله من قول أو عمل

أما إن أصابه المرض وهو صائم حتى لو كان صداعاً فله أن يفطر ويتداوى، هذا وإن كان الصيام ضاراً بصحته فليس له الخيار، بل عليه المحافظة على صحته وهو معذور في ذلك من الخالق الرحيم الذي كتب علينا الصيام كما كتبه على الذين من قبلنا لعلنا نتقيه لا ليعذبنا به.. إن الظن أن تعذيب الجسد يؤدي إلى سمو الروح، والظن أن تعذيب الجسد عبادة يتقرب بها الإنسان إلى الله ليس من هدي الرسول صلى الله عليه وسلم. لقد نزَّه الله دينه عن الحرج، والحرج دون العذاب والمعاناة الصريحة: "مـــا يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون" (المائدة 6)، "هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج، ملة أبيكم إبراهيم، هو سماكم المسلمين من قبل.. " (الحج 78).

ليست العصبية وسرعة الاستثارة دليلاً على سوء الخلق دائماً، بل كثيراً ما تنتج عن خلل كيميائي أو كهربائي في المخ يجعل الإنسان على حافة الغضب دائماً، فيغضب ثم يندم لكنه ما يلبث أن يغضب في موقف آخر ويتكرر منه الندم

فلنقبل على صيامنا منشرحين بالطمأنينة إلى رحمة الله بنا، فهو الرؤوف الرحيم سبحانه وتعالى .

7- " في السحـــــور بركـــــة "

كتب الله علينا الصيام لنتدرب على التقوى ونزداد منها لا لنتعذب بالجوع والعطش، فالمبالغة في الجوع والعطش ليست مطلوبة ولم يرد أنها تزيد من أجر المؤمن على صيامه، ثم إن رحمة الله تتجلى في أن جعل الصيام لساعات محدودة كل يوم بحيث يبقى الليل لنا نأكل ونشرب ونتمتع بما أحل الله لنا ..

لقد كتب الله علينا الصيام حيث نصبر على الامتناع عما تشتهيه أنفسنا من طعام وشراب وشهوة حلال، فإذا ما غربت الشمس أبيح لنا كل ذلك وامتلأت أنفسنا بالرضى عن أنفسنا وبالثقة إذ اكتشفنا أننا قادرون على التحكم بأنفسنا إلى حد معقول، أما نبينا صلى الله عليه وسلم الذي كان بالمؤمنين رؤوفاً رحيماً فقد سن لنا السحور وسن تأخيره، كما سن لنا التعجيل في الفطر عند الغروب، ونهانا عن الوصال في الصيام وهو أن يصل المؤمن صوم يوم بيوم يليه دون أن يفطر .. قال صلى الله عليه وسلم: "تسحروا فإن في السحور بركة" (رواه البخاري ومسلم)، وقال أيضـــــاً: "لا يزال الناس بخير ما عجلوا الفطر" (رواه البخاري ومسلم) .

وقد وردت الأحاديث التي تؤكد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يؤخر سحوره إلى قبيل الفجر، فقد قال زيد بن ثابت رضى الله عنه: " تسحرنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم نمنا إلى الصلاة. قيل: كم كان بينهما؟ قال: خمسون آيــــــة" (متفق عليه)، إذن كان الوقت بين سحورهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلاتهم الفجر مقدار قراءة أحدنا لخمسين آية من القرآن الكريم لا أكثر، وقد كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم مؤذنان للفجر، فكان بلال رضى الله عنه يؤذن الأذان الأول قبيل الفجر بدقائق قليلة، إذ ما أن ينزل بلال من على السطح الذي كان يــؤذن منه، ويرقى المؤذن الثاني وهو ابن أم مكتوم حتى يكون الفجر قد طلع ويؤذن ابن أم مكتوم الأذان الثاني، ولنتأمل رحمة الله ورسوله بنا إذ قال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ بلالاً يؤذن بليلٍ فكلوا واشربوا حتى يُؤَذِّنَ ابن أم مكتوم" ويقول ابن عمر رضي الله عنهما وهو يروي هذا الحديث: "ولم يكن بينهما إلاّ أن ينزل هذا ويرقى هذا" (رواه البخاري ومسلم) .

المؤمن الصائم إن كان من الذين يميلون إلى القلق النفسي سيخف قلقه إن أدرك أن الرخصة بالفطر إن بلغ به الجهد حداً يؤلمه قائمة ومتاحة له، وعلى الغالب فإنه لن يفطر

والذي بينه علم وظائف الأعضاء (الفيزيولوجيا) المعاصر حول المعاناة التي يمكن أن يسببها الجوع يتلخص في أن المعدة بعد أن تفرغ من الطعام الذي كان فيها، ويمضي على فراغها عدة ساعات تبدأ فيها تقلصات قوية تسمى "انقباضات الجوع" تترافق مع الإحساس النفسي بالجوع والرغبة في تناول الطعام، وهذه الانقباضات في المعدة تكون أشد ما تكون في الشباب والشابات ذوي الصحة الجيدة حيث المعدة لديهم نشيطة. كما إن انخفاض سكر الدم نتيجة الصيام يزيد من انقباضات الجوع هذه كثيراً ليحث الإنسان على تناول الغذاء وتأمين ما يحتاجه الجسم.. فإذا طال جوع الإنسان صارت انقباضات الجوع هذه انقباضات مؤلمة وصار اسمها "عضات الجوع"، وهي تظهر عادة بعد (12 – 24) ساعة من آخر وجبة، وهذا يختلف من شخص إلى آخر كعادة الأجسام في الاختلاف.. أما في حالة المجاعة أو الصيام المتواصل فإن عضات الجوع تشتد لتبلغ أقصاها في اليوم الثالث أو الرابع ثم تضعف تدريجياً في الأيام التالية ويتلاشى معها الإحساس بالجوع مع أن الإنسان لم يذق طعاماً، ويكاد يموت مــن الحرمان من الغذاء.

قيام الليل سنة، ورمضان موسم من مواسم هذه السنة الرائعة.. قال صلى الله عليه وسلــم: "من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه"

إن الجوع هو الإحساس الذي يدعو الكائن الحي إلى تناول الطعام، وقد وجد العلماء في الدماغ لدى البشر ولدى الحيوانات مركزاً صغيراً جداً إذا ما تنبه أحس الكائن بالجوع وأقبل على الطعام، وإذا ما خربه المرض أو استأصله الجراح فقد الإنسان أو الحيوان أي رغبة في الطعام فقداً نهائياً ومات جوعاً رغم أن الطعام الوفير أمامه .

إن بركة السحور وتعجيل الفطر يقللان من بلوغ الصائم مرحلة عضات الجوع المؤلمة، وتؤكدان أن المشقة ليست مطلوبة بحد ذاتها وأن الصائم لا ينقص أجره إن تسحر سحوراً جيداً يعينه على الصيام بأقل قدر من المشقة.

8- " وبالأسحـــــار هم يستغفـــــرون "

في بداية الدعوة الإسلامية كان قيام الليل فريضة على النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وبعد أن حقق القيام والقرآن الذي يتلى فيه الغرض الذي فرض من أجله، وقام بغسل قلوب الكوكبة الأولى من الصحابة من أدران الجاهلية لتكون النـــواة التي يقوم عليها المجتمع الإسلامي فيما بعد، بعد هذا خفف الله عن المؤمنين وصار قيام الليل سنة، ورمضان موسم من مواسم هذه السنة الرائعة.. قال صلى الله عليه وسلـــم: "من قام رمضان إيماناً واحتساباً غفر له ما تقدم من ذنبه" (متفق عليه).

ولكن في عصرنا الحالي كثرت الدراسات الطبية والنفسية على نوم الإنسان وأهمية الهجوع والسكن كل ليلة لصحة الإنسان العقلية والجسدية، فلو حرم إنسان ما من النوم حرماناً تاماً عدة أيام لأصابه إرهاق ذهني شديد جداً وقد يبلغ به الأمر حد الهلوسة والتوهم .

أما من الناحية الجسدية فإنه أثناء النوم يتم ترميم ما اهترأ من جسم الإنسان خلال النهار، وأثناء النوم وبخاصة نوم الليل يتم النمو، إذ تزداد في الليل الهرمونات التي تحرض النمو والترميم في الجسد، وتزداد في النهار الهرمونات التي تنشط الجسم من أجل العمل والحركة واليقظة، وفي النهار يغلب معدل الاهتراء في الجسم معدل الترميم والبناء ليكون تعويض ذلك أثناء النوم في الليل.. قال تعالى: "ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون" (القصص 73) .

كشفت دراسات الأطباء النفسيين في السنوات الأخيرة أن حرمان المريض المصاب بالاكتئاب النفسي من النوم ليلة كاملة وعدم السماح له أن ينام في النهار الذي يليها حتى يأتي الليل من جديد، هذا الحرمان من النوم له فعل عجيب في تخفيف الاكتئاب النفسي

هل يعني هذا أن قيام الليل يكون على حساب صحة الإنسان العقليــة والجسديـــــة ؟

والجواب المتوقع هو: لا بالطبع، إذ لم يشرع الله لنا إلاّ الطيبات وما فيه صلاحنا ولم يحرم علينا إلاّ الخبائث وما فيه الضرر لنا.. ولكن أين تكمن المنفعة العاجلة في قيام الليل ؟

لقد كشفت دراسات الأطباء النفسيين في السنوات الأخيرة أن حرمان المريض المصاب بالاكتئاب النفسي من النوم ليلة كاملة وعدم السماح له أن ينام في النهار الذي يليها حتى يأتي الليل من جديد، هذا الحرمان من النوم له فعل عجيب في تخفيف الاكتئاب النفسي عند الإنسان وفي تحسين مزاجه حتى لو كان من الذين لم تنفع فيهم الأدوية المضادة للاكتئاب.

دراسات أخرى بينت أنه لا داعي لحرمان المريض من النوم ليلة كاملة كي يتحسن مزاجه، إنما يكفي حرمانه من النوم النصف الثاني من الليل ليحصــل على القدر نفسه من التحسن، والنصف الثاني من الليل هو الذي يكون فيه السحر الذي أثنى الله على من ينفقه في الاستغفار والقيام..

ثم تلا ذلك دراسات أخرى بينت أنه لا داعي لحرمان المريض من النوم ليلة كاملة كي يتحسن مزاجه، إنما يكفي حرمانه من النوم النصف الثاني من الليل ليحصــل على القدر نفسه من التحسن، والنصف الثاني من الليل هو الذي يكون فيه السحر الذي أثنى الله على من ينفقه في الاستغفار والقيام.. قال تعالى: "إن المتقين في جنات وعيون، آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين، كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون" (الذاريات 15-18).

فسبحان الذي جعل لنا في قيام الليل والتهجد في الأسحار جائزة فورية قبل الثواب الأخروي، وهي اعتدال المزاج وتحسنه لدى القائمين والمتهجدين، وعافية نفسية تجعلهم أكثر سعادة في الدنيـــا قبل الآخـــرة.

9- "الصــــوم التــــــزام"

لا يكون البقاء بلا طعام أو شراب أو شهوة من الفجر إلى الغروب، لا يكون صوماً ما لم ترافقه نية الصيام، وفي صوم الفريضة اشترط الفقهاء أن تسبق النية بداية الصوم، أي أن تكون قبل طلوع الفجر، إذ الأعمال بالنيات، ثم إن النية تجعل الصيام التزاماً يلتزم به المؤمن فيمتنع عن الطعام والشراب والشهوة من تلقاء نفسه ولا يحتــاج إلى رقيب عليه يتأكد من صيامه.

والقدرة على الالتزام والمحافظة على هذا الالتزام من علامات نضج الشخصية لدى الإنسان، كما إن الالتزام المتمثل بنية الصيام يجعل الامتناع عن الطعام والشراب والشهوة ابتغاء مرضاة الله أهون على النفس مما لو كان البقاء دون أكل وشرب ناتجاً عن مانع من خارج النفس، كأن يمنعك شخص من الوصول إلى الطعام والشراب مثلاً، إذ في هذه الحالة يكون الجوع والعطش أشد، وهذا ما بينته الاختبارات النفسية حيث وجدت أن "الالتزام يغير الدافـــــع"، وهي عبارة من علم النفس تعبر عن نتيجة لدراسات عديدة، في إحداها حضر الأشخاص الذين ستتم عليهم التجربة دون أن يأكلوا أو يشربوا لعدة ساعات قبل مجيئهم وذلك بناء على ما طلبه الباحثون منهم، ثم بعد وصولهم طلب الباحثون من بعضهم أن يبقى دون طعام أو شراب فترة أخرى –دون أي مقابل مالي أو غير مالي– وقبل هؤلاء أن يلتزموا بذلك، فكان صومهم عن الطعام والشراب لساعات أخرى التزاماً منهم وقراراً اتخذوه بحرية وإن كان استجابة لطلب من الباحثين، لكن كان لهم الحرية في أن يرفضوا ولا يلزموا أنفسهم بذلك.. أما بـــاقي الأشخاص المجرب عليهم فلم يطلب منهم الالتزام بالبقاء دون طعام وشراب إنما تركهم الباحثون دون طعام وشراب وجعلوا الأمر يبدو لهم وكأنه غير مقصود. وفي نهاية التجربة أجريت على الجميع اختبارات نفسية لمعرفة شدة الجوع والعطش لديهم، فوجد أن الذين التزموا بالامتناع عن الطعام والشارب التزاماً كـــانوا أقل جوعاً وأقل عطشاً من الذين تمت مماطلتهم بحيث صاموا الساعات نفسها لكن دون التزام منهم بذلك، كما تمت معايرة "الحموض الدسمة الحرة" في دمائهم جميعاً، وهي مواد تزداد في الدم كلما اشتد الجوع عند الإنسان، فوجد أنها كانت أقل ازدياداً عند الذين التزموا بالصيام التزاماً.. وهكذا كان للالتزام بالصوم أثـــر حتى على رد فعل أجسامهم الفيزيولوجي نتيجة بقائهم دون طعام أو شراب الساعات الطويلة.

وفي دراسة أخرى: درس العلماء أثر الالتزام على العطش، فوجدوا أن العطش عند من التزم من تلقاء نفسه بالامتناع عن الماء كان أقل حتى في الاختبارات النفسية التي تكشف مدى انشغال النفس اللاشعوري بالعطش وبالرغبة في الماء.

سبحان الذي جعل لنا في قيام الليل والتهجد في الأسحار جائزة فورية قبل الثواب الأخروي، وهي اعتدال المزاج وتحسنه لدى القائمين والمتهجدين، وعافية نفسية تجعلهم أكثر سعادة في الدنيـــا قبل الآخــــرة

إن الصوم صبر، والصبر في جوهره التزام ورضا بالحال التي يضعنا الله فيها، وبالصبر تهون المعاناة وتقل، لأن الرضا حتى بالمصائب يشبه الالتزام بها، كالذي منع نفسه من الطعام والشراب لأنه يريد الصيام لله تعالى، والذي ابتلاه الله بالفقر والمرض أو بفقد عزيز فصبر، فإنه امتنع عما حرمه الله منه امتناعاً عن رضاً وتسليم، وهو امتناع يشبه امتناع الصائم وإن كان الفرق بينهما في أن رفض المصاب وسخطه لا يغير من الواقع شيئاً بينما للصائم الحرية في أن يتم صومه احتساباً أو أن يقع في معصية الله فيفطر دون عذر، والامتناع الراضي يكون أقل إيلاماً للنفس مما لو تلقى المصيبة بتذمـــر وسخط وغضب.

إن الصوم صبر، والصبر في جوهره التزام ورضا بالحال التي يضعنا الله فيها، وبالصبر تهون المعاناة وتقل

وهكذا يكون في صيامنـــا كل عام في رمضان تدريباً لنا على الالتزام وزيادة لنا في النضج النفسي.

10- "الصيام تهذيب نفسي"

يتفاوت الناس في فضل الله عليهم، ففيهم القوي وفيهم الضعيف، وفيهم الغني وفيهم الفقير، وفيهم صاحب الجاه والسلطان، وفيهم الشخص العادي الذي لا سلطان له؛ وعندما يعطي الله من فضله أحداً أكثر من غيره،قد ينسى هذا الإنسان أن قدرته وقوته، أو غناه أو سلطانه، إنما هو فضل من الله وامتحان واختبار له، أيشكر أم يكفر هذا الفضل، فإذا ما نسي ذلك غرته قدرته، وغره ماله، ودعاه ذلك إلى أن يتكبّر ويتجبّر على الآخرين، ناسياً قدرة الله عليه، وأن الله هو الجبار، وهو القاهر فوق عباده.

إن الصائم يستشعر بهذا ضعفه البشري، فيقل اغتراره بقوّته، وتتطهر نفسه من نزعة التجبر والعلو في الأرض

وفي رمضان، يصوم المؤمن، ويمضي الساعات الطويلة بلا طعام ولا شراب، فيشعر بشيء من الضعف في قوته، ويشعر بالحاجة إلى الطعام والشراب، ويسره أن تغيب الشمس، حتى يتمكن من أن يأكل ويشرب من جديد.. إن الصائم يستشعر بهذا ضعفه البشري، فيقل اغتراره بقوّته، وتتطهر نفسه من نزعة التجبر والعلو في الأرض، إذ كيف يتجبر وهو لم يصبر دون طعام وشراب أكثر من ساعات؟ ولعل هذا من الفوائد النفسية الهامة للصيام، لأنه يُرجع المغرور إلى الواقع، ويخلصه من عقدة التفوق والعلو التي أفسدت عليه نفسه.

كما أن الصوم، بما يترك في نفس الصائم من إحساس بالضعف، والحاجة إلى لقمة طعام، وإلى جرعة ماء، هذا الصوم يجعل للآيات الكريمة، التي وعدت

المؤمنين في الجنة: الطعام والشراب، ضمن ما وعدتهم به من نعيم، يجعل لها أثراً كبيراً في النفس، أكبر مما يكون لو أن الإنسان الذي أنعم الله عليه، قد أمضى عمره كله دون أن يجوع أو يعطش، فكما أن الصحة تاج على رؤوس الأصحاء، لا يراه إلا المرضى، فإن الطعام والشراب نعمة من الله، لا يعرف قدرها إلا من جاع وعطش.

11 - الفطر على التمر

روى أبو داود والترمذي والدارقطني والبيهقي والحاكم في مستدركه عن أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: "كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يفطر على رُطَبَاتٍ قبل أن يصليَ، فإن لم تكن رطباتٌ فعلى تمراتٍ، فإن لم تكن حَسَا حَسَوَاتٍ من ماء."

كما روى الترمذي والبيهقي والحاكم في مستدركه وقال: "هذا حديث صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه وله شاهد صحيح على شرط مسلم" عن سلمان بن عامر الضبي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أفطر أحدكم فليفطر على تمر فإن لم يجد فليفطر على ماء فإنه طهور".

والرطب هو التمر الناضج الطازج، والرسول صلى الله عليه وسلم كان إذا صام في موسم الرطب في الصيف أفطر على رطبات وفي غير موسمه أفطر على تمرات، فإن لم يجد الرطب أو التمر أفطر على الماء. وفي حرصه صلى الله عليه وسلم على الفطر على التمر مع تفضيل الرطب، وإلا على الماء، ما يشير إلى أن في التمر خاصية لا توجد في غيره، وهي في التمر الناضج في موسمه أي الرطب أقوى وأنفع، وقد شاركت عندما كنت أدرس الطب البشري في جامعة دمشق عامي 1976 و1977 في بحث علمي أجراه أستاذنا الدكتور محمد هيثم الخياط لمعرفة أثر الفطر على التمر على سكر الدم عند الصائم، فوجدنا سكر الدم المنخفض عند الغروب بسبب الصوم يرتفع خلال دقائق معدودة من تناول تمرة واحدة وقبل أن يمر الوقت الكافي لهضمها وامتصاص ما فيها من سكر، وكان الارتفاع في سكر الدم حوالي خمسة وعشرين بالمائة، أما ما تعجبنا منه فهو أن بعض الصائمين الذين كان سكر دمهم مرتفعاً فوق الحد الأعلى

يتلو المؤمن القرآن فتطمئن نفسه..{الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ{28}} (الرعد:28).

الطبيعي رغم صومهم أي كانوا مرضى بالداء السكري، انخفض سكر دمهم بشكل واضح وخلال دقائق قليلة من تناولهم لتمرة واحدة عند أذان المغرب. وكان أن طلبنا من عدد من زملائنا أن يحضروا إلى القسم المخبري في الجامعة صائمين على الريق ذات صباح بعد رمضان، وأخذنا عدة عينات من دمائهم: واحدة قبل أن يتناولوا التمرة ثم عدة عينات بفواصل زمنية بعد أن تناول كل منهم تمرة واحدة، وقمنا بمعايرة السكر والإنسولين في دمائهم.. فوجدنا الإنسولين يتضاعف عدة مرات خلال دقائق من تناول التمرة وفي الوقت نفسه يرتفع سكر الدم عندهم بنفس السرعة، وهذا يعني أن تمرة واحدة رفعت سكر الدم المنخفض ورفعت معه الإنسولين ليستفيد الجسم من ارتفاع السكر، كما فسر ذلك انخفاض سكر دم السكريين الذين أفطروا على تمرة، لأن الإنسولين يدخل السكر إلى الخلايا لتنتفع به وبالتالي يخفض مستواه في الدم. وكان تفسير أستاذنا لارتفاع السكر الفوري عند تناول التمر بأنه ناتج عن فعل هرموني مثل فعل هرمون الغلوكاكون الذي يرفع سكر الدم من الجسم نفسه حتى دون تناول أي سكر، ولعل هذا يفسر لنا كيف كان يكتفي الجندي المسلم في جيش العسرة بتمرة يمصها قليلاً ثم يخبؤها ليمصها من جديد عندما يشعر بالجوع مرة أخرى لأن الطعام معهم كان قليلاً جداً.

يتلو المؤمن القرآن فتنجلي عن نفسه غمتها، ويذهب عنها همها ويزول انقباضها فيُشفى صدره مما فيه من حزن وكرب.. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ{57}} (يونس:57).

هذه دراسة تحتاج من الباحثين المسلمين أن يعيدوها وينشروها وربما أن يدرسوا أثر الرطب والتمر عموماً مع الماء على مزاج المرأة عند الولادة وبعدها، حيث تصاب الكثيرات بكآبة المزاج في الأيام التالية للولادة، وحوالي سدسهن يصبن بمرض الاكتئاب النفسي الذي يحتاج للعلاج الطبي الفعال، وقد أشارت الآيات الكريمة التي تحدثت عن ولادة مريم لعيسى عليه السلام إلى أكل الرطب وشرب الماء ساعة الولادة وأثره في المزاج حيث تقر عين الوالدة ولا تحزن، فقد قال تعالى:{فَأَجَاءهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْياً مَّنسِيّاً{23} فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً{24} وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً{25} فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْناً فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنسِيّاً{26}} (مريم 23-26) والسري جدول ماء.

ولعل الدراسات تجرى على الرطب أو التمر الجديد لأن حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الفطر على الرطب إن وجد وكذلك تشجيع عيسى عليه السلام لأمه لتأكل رطباً جنياً مما يشير إلى أن التمر يفقد هذه الخواص إن كان قديماً.

الفصل الثاني: رمضان شهر القرآن

في رمضان أُنزل القرآن.. {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِيَ أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ..} (البقرة:185).

في رمضان موسم للقيام، والقيام: ترتيل للقرآن ضمن أركان صلاة خاشعة..{ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ{1} قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً{2} نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً{3} أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً{4}} (المزمل: 1-4).

يتلو المؤمن القرآن فتطمئن نفسه..{الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ{28}} (الرعد:28).

ويتلو المؤمن القرآن فتنجلي عن نفسه غمتها، ويذهب عنها همها ويزول انقباضها فيُشفى صدره مما فيه من حزن وكرب.. {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاء لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ{57}} (يونس:57).

أجل في القرآن الشفاء لما في الصدور، وفي القرآن الطمأنينة للنفس المؤمنة لأن فيه التكريم للإنسان، والاستخلاف في الأرض عن خالق الأرض والسماء، وفيه تسخير لما في السماوات والأرض لهذا الإنسان المكرم المستخلف. وهو رسالة من المولى تعالى لنا جميعا، ولكل منا على حدة، رسالة حملها جبريل عليه السلام إلى محمد صلى الله عليه وسلم ثم بلّغنا إياها نبينّا صلى الله عليه وسلم البلاغ المبين.

القرآن خطاب ورسالة تخاطب كل واحد منا بذاته وشخصه، فما كان جبريل إلا رسول، وما كان محمد صلى الله عليه وسلم إلا رسول، أما الرسالة فهي هذا القرآن.. هذا الكتاب الذي يخاطبني فيه الله ويخاطبكم أنتم..وهل بعد هذا من كرامة؟

لقد أرسل الخالق إلينا رسالة في حجم كتاب، فيها كلماته لنا، وإرشاده، وهداه فهل يحق لأحد منا أن يشعر بالتفاهة، وبأنه ذرة ضائعة في كون لا يتخيل حدوده، وقد أرسل إليه خالق هذا الكون الكبير تلك الرسالة المطولة الهادية؟! .

اللهم إنّا نسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزننا، وذهاب همّنا.. اللهم آمين

كان إقبال –الفيلسوف المسلم– يقرأ القرآن كما يقرؤه الكثير من المسلمين، فقال له أبوه ذات مرة: اقرأه يا بني! وكأنما يتنزل عليك.. ما كان أبوه يدعوه إلى أن يظن نفسه نبياً، إنما كان يذكره بأن هذه الكلمات التي كان يتلوها إنما هي رسالة له نفسه، لإقبال بالذات، من رب العالمين خاطبه بها، وإن كان قد خاطب معه بها كل مؤمن، وكل إنس وجن.. ومنذ ذلك اليوم صار للقرآن الكريم وقع آخر في نفس إقبال.

إذا أتتني رسالة من حبيب، كم تراني أقرؤها، ثم أعيد قراءتها المرة تلو الأخرى دون أن أملّ ؟.. فهل أملّ قراءة رسالة رب العالمين، ربي وخالقي وحبيبي؟

بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، ووفاء له أراد أبو بكر رضي الله عنه أن يزور أم أيمن حاضنة النبي صلى الله عليه وسلم، فقال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: انطلق بنا إلى أم أيمن رضي الله عنها نزورها! فلما انتهيا إليها بكت، فقالا لها ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله.. لقد ظنا أنها إنما بكت لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم، لكنها قالت لهما: والله ما أبكي ألا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسوله، ولكن أبكي أن الوحي انقطع من السماء، فهيجتهما على البكاء فجعلا يبكيان. (رواه مسلم وأحمد والبيهقي).

اللهم إنّا نسألك بكل اسم هو لك، سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحداً من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك: أن تجعل القرآن ربيع قلوبنا، ونور صدورنا، وجلاء حزننا، وذهاب همّنا.. اللهم آمين.

الفصل الثالث: الاعتكاف ذكر وحرية

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتكف في كل رمضان عشرة أيام، فلما كان العام الذي قبض فيه اعتكف عشرين يوما، وكان يعتكف العشر الأواخر من هذا الشهر الكريم.

والاعتكاف هو: المكث في المسجد للصلاة، أو الذكر، أو العلم، أو لمجرد المكث والنوم فيه، ولا يخرج من المسجد إلا لحاجة، ولا يباشر أهله طيلة مدة الاعتكاف. والاعتكاف عبادة تطوعية واظب عليها النبي صلى الله عليه وسلم في

المسجد بيت الله، والاعتكاف فيه يجعل إحساس المرء بوجود الخالق سبحانه وبحضوره أشد وأقوى، فتخفّ غفلته، ويتحقق له نوع من الذكر في القلب، إضافة إلى ذكر اللسان، حيث لا تنسى نفسه رب العالمين لحظة واحدة. إنه يذكر الله إما بشعوره أو بلاشعوره ما دام موجوداً في بيته، وهكذا يكون الاعتكاف ذكراً

كل رمضان لكنه لم يصح عنه أمر للمؤمنين بها، ولعلّ لذلك حكمة، وهي: رفع الحرج نهائياً عمن لم يقم بها. وللاعتكاف آثار طيبة في نفس المعتكف، إذ عندما يعتكف المؤمن في المسجد ويمضي فيه ليله ونهاره يتعمق إحساسه بوجود الله ويملأ هذا الإحساس نفسه على المستوين الشعوري واللاشعوري، وذلك طيلة أيام الاعتكاف. ولفهم الطريقة التي يعمق فيها الاعتكاف من ذكر الله، تخيل أخي القاريء أنك دخلت قصر ملك من الملوك.. فإن معرفتك أن هذا القصر الذي أنت بين جوانبه هو قصر الملك يجعل للملك حضوراً في نفسك، وإن أنت انشغلت في التفكير في أي شيء آخر، فإن الملك يبقى في ذهنك، ولو في الخلفية من مسرح تفكيرك ما دمت في قصره؛ ذلك أن كل شيء يقع عليه بصرك يذكرك به ولو بشكل لاشعوري.

الاعتكاف من حيث هو مكث في المسجد ليل نهار يحمي الإنسان من المؤثرات الاجتماعية المقيدة لحريته في أن يعيش كما يؤمن

والمسجد بيت الله، والاعتكاف فيه يجعل إحساس المرء بوجود الخالق سبحانه وبحضوره أشد وأقوى، فتخفّ غفلته، ويتحقق له نوع من الذكر في القلب، إضافة إلى ذكر اللسان، حيث لا تنسى نفسه رب العالمين لحظة واحدة. إنه يذكر الله إما بشعوره أو بلاشعوره ما دام موجوداً في بيته، وهكذا يكون الاعتكاف ذكراً، فكيف يكون حرية؟

يعيش الناس في مجتمعات وكل مجتمع يصوغ شخصيات أفراده وقيمهم، وأخلاقهم، وعاداتهم، وفق نمط ثابت ومتكرر إلى حد كبير، وأي خروج عن عادات المجتمع، وتقاليده، وقيمه يضع الفرد تحت وطأة ضغوط متعددة يمارسها المجتمع عليه ليضبط سلوكه، وليعيده إلى الطريقة التي يرسمها له المجتمع. فالذي يريد أن يخالف عادات الناس في سلوكه أو أفكاره، أو زيّه، أو غير ذلك يأخذ من حوله بمحاولة إقناعه ليعدل عن السلوك الجديد، أو الدين، أو الزيّ؛ الذي خالف به عادات مجتمعه، وتقاليده.

خلق الله الإنسان وجعله سميعاً بصيراً وبث فيه الشوق لمعرفة كل شي

والإقناع يمارسه الأقربون والمحبون، أما الناس فيجعلون من الذي خالف عاداتهم وتقاليدهم مادة لحديثهم، يغتابونه، ويهزؤون من فعله أو قوله، وقد يتجرأ عليه بعضهم فيسخر منه، ويعيب عليه في وجهه، ويلقّبه الألقاب القبيحة المهينة، وإن كان في الأصل موضع إجلال واحترام وأصرّ على مخالفة التقاليد سقط من أعين الناس، وصار موضع احتقارهم وازدرائهم وصار يلمس استهانتهم به وبكلامه.

وفي بعض المجتمعات وبخاصة إن كان السلوك الذي خرج فيه على تقاليد الناس وعاداتهم يعدّ كبيرة، هجره الناس، وامتنعوا عن الكلام معه امتناعا تاماً، وتركوه يعيش بينهم منبوذاً.

هذه هي أهم وسائل الضبط والتحكم الاجتماعي التي يمكن أن تقع على الفرد، وهي وسائل تتحكم بسلوك الفرد لتضبطه وفق العادات والتقاليد إضافة إلى القوانين المكتوبة التي تضمن السلطات تقيد الفرد بها.

وإذا تأملنا في الأمر وجدنا أن المجتمع يسلب الإنسان القسط الأوفى والأكبر من حريته الشخصية ولا يشجع فيه أي ميل للإبداع؛ لأن أيّ إبداع هو خروج على المألوف والمعتاد؛ لذا يجد المرء صعوبة بالغة في اتباع دين، أو فكر جديد آمن به، ويحتاج الأمر إلى صلابة وقوة في الشخصية تمكنه من أن يسير عكس التيار. وهذا ما واجهه النبي صلى الله عليه وسلم عندما بدأ دعوته في المجتمع المكي؛ الذي كان مجتمعاً يقدس التقاليد، ويدين لها، ويرفض أي تجديد، أو تغيير يخالفها. وكان لا بد لمحمد صلى الله عليه وسلم من إعداد لهذه المواجهة مع المجتمع؛ الذي وُلد فيه، وترعرع بين ناسه، وانتمى إليه. ولعل تحنثه في غار حراء، الذي كان بإلهام من الله تعالى، إذ لم يكن عادة يتّبعها أهلُ مكة، لعل تحنثه وعزلته في الغار، هنالك في الأعلى بعيدا عن صخب مكة، وعن نظرات أهلها، لعله كان استشفاءَ لنفس النبي صلى الله عليه وسلم من الخشية من الناس، تلك التي يغرسها مجتمع التقاليد في نفوس أبنائه منذ السنين الأولى من العمر، ومنذ أن ينهرهم عل الفعل القبيح، ويقول لهم (عيب).

ولعل التريث في إظهار الدعوة كان لتربية الرسول صلى الله عليه وسلم والمسلمين الأوائل حتى يثبتوا في وجه الضغوط الاجتماعية؛ التي كان من المتوقع أن يتعرضوا لها عندما يجاهرون بخروجهم على قيم مجتمعهم، وعاداته، ودينه. ورغم كل ذلك يبقى لدى النبي صلى الله عليه وسلم أثر من الخشية من كلام الناس ينكشف عندما يخبره الوحي أن الله سيزوجه من زينب مطلقة ابنه بالتبني، وقد كان هذا عند عرب الجاهلية عاراً كبيراً، إذ كانوا يساوون بين الولد بالتبني والولد الحقيقي في كل شيء.

الذي يتنزه عن التخيلات والظنون، فإنه لا يبتدع الأساطير ليريح عقله الباحث عن التصورات، بل يفضل أن يتحمل عبء الغموض، وأن يصبر عليه حتى يجعل الله له نوراً

لقد تحرج النبي صلى الله عليه وسلم من الحديث إلى الناس بما أخبره الوحي، فنزلت الآيات الكريمة تكشف ذلك كله وتنسف كل أثر لخشية الناس في نفس النبي صلى الله عليه وسلم. قال تعالى: {وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً{37} مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَّقْدُوراً{38} الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيباً{39}} (الأحزاب:37-39) .

وهنا يأتي دور الاعتكاف، فالاعتكاف من حيث هو مكث في المسجد ليل نهار يحمي الإنسان من المؤثرات الاجتماعية المقيدة لحريته في أن يعيش كما يؤمن؛ إذ في العادة لا يكاد المجتمع يغيب عن بال الفرد في كل قرار يتخذه، أو تصرف يتصرفه. ولا يستطيع الإنسان أن يتحرر من ضغط المجتمع على حريته إلا إن هو خرج بنفسه خارج نطاق هذا المجتمع خروجا كاملاً، كما فعل النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان يتحنث في غار حراء.

ولما كان هذا غير عملي للغالبية العظمى من الناس كان الاعتكاف بديلاً رائعاً له، إذ تخرج من قبضة المجتمع لتلجأ إلى بيت الله حيث تخشى الله، ولا تخشى أحداً إلا الله، وحيث تستمد قوة تعينك في مقاومة ضغوط المجتمع عليك، تلك الضغوط التي تكبلك، وتعيق نموك النفسي وتحقيقك لذاتك، وبالتأكيد يخرج الإنسان من اعتكافه وشخصيته أقوى وأنضج مما كانت عليه عندما دخل.

الذي يتنزه عن التخيلات والظنون، فإنه لا يبتدع الأساطير ليريح عقله الباحث عن التصورات، بل يفضل أن يتحمل عبء الغموض، وأن يصبر عليه حتى يجعل الله له نوراً

(د) الحــــــج

الفصــل الأول: من الآثــار النفسيــة للحــج

خلق الله الإنسان وجعله سميعاً بصيراً وبث فيه الشوق لمعرفة كل شي، فترى الإنسان يبحث عن تصور لكل حادث، أو مكان، أو إنسان، أو أمر سمع عنه، فإن لم يتيسر له التصور الصحيح ربما أبدع خياله التصورات، حتى لو كانت سخيفة وغير منطقية، لكن يظن أنها تسد جوعة عقله، فعندما جهل الناس كيف تحدث الزلازل قالوا: إن الأرض محمولة على قرن ثور عظيم، فإذا تعب من حملها نقلها إلى قرنه الثاني فتهتز وهو ينقلها.

أما الذي يتنزه عن التخيلات والظنون، فإنه لا يبتدع الأساطير ليريح عقله الباحث عن التصورات، بل يفضل أن يتحمل عبء الغموض، وأن يصبر عليه حتى يجعل الله له نوراً.

لكن ماذا إن سنحت لي الفرصة أن أرى ما آمنت به بالغيب رأي العين، فتطمئن نفسي عندما تتصور ما سمعت عنه؟ هل أفوّت الفرصة؟ بالطبع لا.

ومن قبل قال سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِـي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَى وَلَـكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً وَاعْلَمْ أَنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ{260}} (البقرة: 260).

لقد آمن إبراهيم وصدّق أن الله يحيي الموتى، لكن عقله كان يبحث عن تصوّر لكيفية إحياء الله للموتى، وكان يسعى إلى الاطمئنان القلبي الذي ينجم عن المعاينة لما آمن به بالغيب، فالرؤية ما كانت ستزيده إيماناً إنما كانت ستبث الطمأنينة في قلبه، الذي سيستريح من عناء البحث عن تصور لعملية إحياء الله للموتى، فما كان قلب إبراهيم في شك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، إنما كان في شك في صحة ما يخطر بباله من تصورات لكيف يحيي الله الموتى، وقد كان محقاً في شكه هذا طالما أن عقله كان يفترض الكيفيات التي يتوقع أن يتم الإحياء بها افتراضاً، فكانت الرؤية مصدر (الاطمئنان الناجم عن التصور الصحيح).

آمن إبراهيم وصدّق أن الله يحيي الموتى، لكن عقله كان يبحث عن تصوّر لكيفية إحياء الله للموتى، وكان يسعى إلى الاطمئنان القلبي الذي ينجم عن المعاينة لما آمن به بالغيب

وعموماً فإن ارتباط أمر من الأمور بصورة يراها المرء ويتذكرها، يرسخه في النفس رسوخاً شديداً ويضفي عليه مسحة واقعية مريحة للنفس؛ لهذا كانت وسائل الإيضاح المختلفة من مجسمات، ورسوم ونماذج، كانت ذات أهمية بالغة للعلوم كلها. ولعل هذا يعود إلى أن التفكير في أي شيء من خلال صورة له، أو أية وسيلة إيضاح أخرى أهون على عقولنا، وبخاصة أن كلاً منا قد مر بمرحلة عقلية، طوال سنوات حياته ما قبل الثانية عشرة، ما كان يدرك فيها الأفكار المجردة إلا قبيل نهاية تلك المرحلة، إنما كان لا يدرك من الأفكار إلا ما كان مجسداً في شيء من الأشياء يراه أمامه، أو يتخيله في عقله، أو مجسداً في فعل من الأفعال القابلة للإدراك بالحواس.

وبعد تلك المرحة تتكون وبالتدريج القدرة على إدراك الأفكار المجردة، دون ضرورة لحصرها بمثال، أو تجسيدها في شيء من الأشياء، أو فعل من الأفعال.

والإنسان الذي خلقه الله أطواراً ينتقل من الأهون إلى الأصعب؛ لذا يبقى الأهون مرغوباً ومريحاً ومطمئناً للنفس، فالمثال يجعلك تفهم الفكرة أكثر، وصورة الشيء تجعلك تشعر أنك تعرفه أكثر، فقد دخل إلى عقلك من خلال حواسك. والتاريخ واحد من تلك العلوم التي ترسخ في العقول بوسائل الإيضاح، فرؤيتك لصورة مدينة من المدائن أو قصر من القصور للذين عاشوا قبل مئات السنين أو آلافها تجعل هذه الشخصية تنطبع في ذاكرتك انطباعا وثيقاً لا يعادله تكرار اسمها المرات الكثيرة؛ لأنه صار لهذا الملك أو ذاك القائد في ذهنك اسم وصورة مرتبطة بآثاره، وليس الاسم فحسب.

وكذلك لو سمعت عن ملك أو شعب عاش في عصر من العصور، وكنت واثقا بصدق من أخبرك لآمنت أن هذا الشعب أو ذلك الملك قد وجد ذات يوم حقاً، لكن إن كانت لهم آثار، وقدر لك أن تراها فسيتعمق إحساسك بواقعية هذا التاريخ الذي آمنت به وصدقت بالغيب، وستبعث رؤيتك للآثار قدراً من الحياة في صورة هذا التاريخ في ذهنك، لأنك صرت أقدر على تخيلهم، فهذه قصورهم، ودورهم، وأسواقهم، وتلك مرابضهم، ومقابرهم، إن رؤيتك لذلك كله تعمق ذاكرتك لهم وتقويها، لأنك قد أضفت إلى ذاكرتك مع أسمائهم أشياءهم التي رأيتها رأي العين، والإنسان يتذكر مما يرى، ويلمس، ويختبر بحواسه أكثر بكثير مما يقرأ عنه أو يسمع عنه.

إن القوة والحيوية التي اكتسبتها ذاكرتك لهم تجعلك تشعر أن أولئك الذين قرأت تاريخهم قد وُجدوا على هذه الأرض وجوداً كوجودنا، فتطمئن النفس برؤية آثارهم، لا لأننا ازددنا إيمانا بأنهم وجدوا، بل لأننا ازددنا معرفة وإدراكاً، وتصوراً لما آمنا به من قبل، أي: أننا تعلمنا ما آمنا به تعلماً أكمل من خلال اشتراك حواسنا في هذا التعلم، ومن خلال ما أضفناه إلى عقولنا من صور وأحاسيس ارتبطت بالمعلومات التي آمنا بها بالغيب، فالذي تعمق هو التعلم والتصور، وليس الإيمان والتصديق.

ما كان قلب إبراهيم في شك في قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، إنما كان في شك في صحة ما يخطر بباله من تصورات لكيف يحيي الله الموتى

رؤيتك لصورة مدينة من المدائن أو قصر من القصور للذين عاشوا قبل مئات السنين أو آلافها تجعل هذه الشخصية تنطبع في ذاكرتك انطباعا وثيقاً لا يعادله تكرار اسمها المرات الكثيرة

وهكذا شأن الحاج الذي يقطع المسافات كي يصل إلى مكة المكرمة، فإنه عندما يقع بصره على الكعبة المشرفة لأول مرة ثم يتأملها المرة بعد المرة وكأنه يريد أن يختزنها في عقله فلا ينساها أبداً، يمتلئ قلبه بذلك الاطمئنان الإبراهيمي الناجم عن التصور لما آمن به من قبل، وتساءل كثيراً كيف هو، فكم من مرة صلى واستقبل الكعبة متوجها إلى الكعبة المشرفة، أتراه شك في وجودها لحظة واحدة؟ أبداَ. لكن ما أحلاها طمأنينة تغمر القلب لمرآها!.

وعندما يطوف المؤمن بالكعبة يتذكر انه هنا طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه الأرض المباركة التي تطؤها قدماه قد وطئتها قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعندما يذهب الحاج للسعي فإنه يرى الصفا والمروة ويسعى بينهما حيث سعت هاجر، ويقف فوقهما حيث وقفت تنظر إلى البعيد تبحث عن الماء من أجل إسماعيل عليه السلام وهو طفل صغير ظامىء.

أننا تعلمنا ما آمنا به تعلماً أكمل من خلال اشتراك حواسنا في هذا التعلم، ومن خلال ما أضفناه إلى عقولنا من صور وأحاسيس ارتبطت بالمعلومات التي آمنا بها بالغيب، فالذي تعمق هو التعلم والتصور، وليس الإيمان والتصديق

إن محمداً صلى الله عليه وسلم وإبراهيم وإسماعيل وهاجر، وكل ذلك التاريخ المجيد يكتسب بعداً واقعياً جديداً في قلب المؤمن الذي طاف بالكعبة، التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، وسعى بين الصفا والمروة، وشرب من زمزم ذلك الماء الذي شربت منه هاجر، وشرب منه إسماعيل وإبراهيم ومحمد صلى الله عليه وسلم. إن نفس المؤمن تزداد اطمئناناً، وإن ذلك التاريخ المجيد يزداد رسوخاً في نفسه، فيشعر أنه يعرفه ويدركه معرفة أعمق، وإدراكاً أوضح من ذي قبل، وإن كان إيمانه وتصديقه به لم يتغير، فالجاحد الذي لم يؤمن بشيء ما لأنه لم يره، إن رآه قال: سحرت أبصارنا، لأنه لا يريد أن يؤمن ابتداءً، فحتى الرؤية لا تجبر الجاحد على الإيمان، إنما هو شيء آخر، وبعد جديد لما عرفناه وآمنا به من قبل، ذلك الذي يأتينا من الرؤية والعيان بعد الإيمان.

وكذلك يكون عندما يقف المؤمن في عرفة، وعندما يرجم بحصياته الصغيرة تلك المواقع التي ظهر فيها الشيطان لسيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام يريد أن يثنيه عن طاعة الله، وكذلك أيضا يكون عندما يدخل المؤمن مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم زائراً للمسجد الذي فيه كان يجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، مصلياً فيه حيث صلى النبي صلى الله عليه وسلم وصلى

أصحابه، ثم يقف أمام قبره الشريف مسلّماً، وأمام قبري اللذين كانا من بعده أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ويرى الحجرة الشريفة حيث كان يسكن صلى الله عليه وسلم مع أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وعندما يزور البقيع وأحُداً، وقباء وغيرها من الأماكن التي شهدت أحداث السيرة العظيمة، سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة صحابته الكرام.

إن أحداث هذه السيرة وتفصيلاتها تأخذ بُعداَ واقعياً آخر في قلب المؤمن عندما يشهد مواقعها، ويزداد حضورها في هذا القلب؛ إذ أصبح بعضها (ولو كان الأماكن) جزءاً مما خبرته حواسه، فرآها المؤمن بعينه ولمسها بيديه، أي: صار بعضها بالنسبة له من عالم الشهادة بعد أن كان غيباً.

عندما يطوف المؤمن بالكعبة يتذكر انه هنا طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه الأرض المباركة التي تطؤها قدماه قد وطئتها قدما رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولئن كانت رؤية هذه الآثار الطيبة تضفي المزيد من الحيوية والوضوح على صورة هذه السيرة العظيمة في أذهاننا، فإنها أيضا تنشئ رابطة عاطفية إضافية بيننا وبين الرسول صلى الله عليه وسلم، وبيننا وبين صحابته الكرام رضوان الله عليهم. فنحن قد مشينا حيث مشوا، وقد وقعت أبصارنا على الأرض والجبال التي وقعت أبصارهم عليها، وقد شربنا من الماء الذي شربوا منه.. أما كان الصحابة رضوان الله عليهم يتخاطفون شعر رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حلق أو قصر؟ أما حرصوا على أن يفوزوا بشيء من أشيائه في حياته وبعد أن لحق بالرفيق الأعلى صلى الله عليه وسلم تبركاً، ولأنها أثر من الحبيب؟ وإن فاتنا أن نفوز بما فازوا به من آثار من الحبيب صلى الله عليه وسلم فها نحن نطوف حيث طاف، ونسعى حيث سعى، ونشرب من حيث شرب.

وإذا تعذر على المسلم أن يزور تلك البقاع الطاهرة، وأن يؤدي فريضة الحج بنفسه، فلن يتعذر ذلك على أهل بلده كلهم، فإنه لا بد من أن يذهب من كل بلد وفد الرحمن، ويعودوا من حجهم بما فازوا به، يتحدثون إلى الأهل والأصحاب عما رأوا وعايشوا، فينتقل بعض تلك الطمأنينة إلى نفوس السامعين.

فكما أن رؤية شيء مما تركه الأقدمون تضفي على الشعور بتاريخهم بعداً جديداً من الواقعية، فإن رؤية من رأى تلك الآثار يضفي على شعورنا بوجود تلك الآثار بعداً جديداً مماثلاً يخفف من غيبيتها بالنسبة إلينا قليلاً، فكأنهم قد رأوها نيابة عنا، فتحقق بعض المراد وإن لم يتحقق كله، إذ ليس الخبر كالمعاينة.

وهذه الطمأنينة التي تأتي من أن بعضنا قد رأى تلك الأشياء التي آمنا بها بالغيب دون أن نراها، نشعر بها عندما نقرأ في القرآن الكريم أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة السلام قد رأى كيف يحيي الله الموتى؛ لأننا عندما نعلم علم اليقين أن واحداً منا نحن البشر هو إبراهيم قد رأى ذلك، يسري في قلوبنا شيء من تلك الطمأنينة التي نعم بها قلبه، إذ بهذا يكتسب الغيب مسحة من الشهادة. ولعل هذا ما أحس به الصحابة رضوان الله عليهم وما نحسّ به نحن عندما يحدثنا الرسول صلى الله عليه وسلم عما رأى في إسرائه ومعراجه، فقد رأى السماوات، ورأى الأنبياء السابقين، ورأى الجنة، واطلع على المعذَّبين وهم يعذبون ورأى الكثير الكثير مما آمنا به بالغيب. ولن ندرك الأثر الذي تركته رؤيته صلى الله عليه وسلم لكل هذا في نفوسنا نحن، إلا لو تأملنا أنفسنا، وتخيلنا أنه صلى الله عليه وسلم لم يُعرج به إلى السماء ولم ير ما رأى؛ إن تلك المسحة الملطفة من الشهادة التي تأتينا عن طريقه صلى الله عليه وسلم ستختفي، وسيعود لتلك المغيبات طابعها الغيبي المطلق في أذهاننا.

إن محمداً صلى الله عليه وسلم وإبراهيم وإسماعيل وهاجر، وكل ذلك التاريخ المجيد يكتسب بعداً واقعياً جديداً في قلب المؤمن الذي طاف بالكعبة، التي بناها إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام

إنه لم يكن في الإسراء والمعراج تطمين لقلب محمد صلى الله عليه وسلم دون قلوبنا؛ ولم تكن رؤية إبراهيم عليه الصلاة والسلام للطيور الأربعة تبعث حية أمام ناظريه، تطميناً لقلبه دون قلوبنا؛ وليس الحج تطميناً لقلب الحاج دون قلوب أهله وأصحابه إذا رجع إليهم. ولكن شتان ما بين الاطمئنان يفوز به من رأى، والاطمئنان يناله الذي يرى من رأى!

الفصل الثاني: الحكمة من مناسك الحج

في كل عام، ومع اقتراب ذي الحجة، تهفو أفئدة مؤمنة كثيرة إلى بيت الله الحرام، وتتوق للحج إليه.. إنها تحلم برؤية البيت العتيق، والطواف حوله، والصلاة عنده، وتشتاق إلى الصفا والمروة لتسعى بينهما كما سعت هاجر.

إنها تتوق إلى عرفة، وإلى مزدلفة، وتتمنى أن تمسك بالحصى، وترجم تلك المواقف التي ظهر فيها الشيطان لسيدنا إبراهيم – عليه الصلاة والسلام– محاولا إخراجه من إسلامه، وانقياده لله تعالى.

ويبقى السؤال الذي يخطر في البال: ما الحكمة من تلك الفريضة التي تحتاج

إن أحداث هذه السيرة وتفصيلاتها تأخذ بُعداً واقعياً آخر في قلب المؤمن عندما يشهد مواقعها، ويزداد حضورها في هذا القلب

إلى المشقة البالغة، والمال الكثير لأدائها؟ فالمؤمن يعرف أنه لا بد هنالك من حكمة وراء أي تكليف يكلفنا الله به، وبالتأكيد هنالك حكمة من أن الحج محدد بمكان واحد معين يقصده الحجيج من كل مكان، وليست الحكمة محصورة في المناسك نفسها من طواف، وسعي، ووقوف في عرفة، أو رمي للجمرات، أو حلاقة للشعر، أو ذبح للهدي. ذلك أن كل هذه المناسك يمكن القيام بها في مكان إقامة المؤمن، مثلما تقام الصلاة في كل حي أو بلدة. وكنت فصلت القول حول الأثر النفسي لكون الحج محدداً في مكة المكرمة وعند أول بيت وضع للناس، وبين الصفا والمروة وعند زمزم والجمرات.

غياب الحكمة حكمة:

سؤال متكرر: ما الحكمة، وما السر في الطواف حول الكعبة بعكس عقارب الساعة سبعة أشواط؟ وما الأثر النفسي لهذا الطواف؟

وسؤال مثله عن السعي بين الصفا والمروة وعن تكبد المشقة للوقوف بعرفة في وقت محدد من العام، ثم الوقوف بمزدلفة وبعدها منى، ورمي الجمرات، وحلق الشعر، أو تقصيره.

وقد يقول قائل: إن الطواف حول الكعبة بعكس عقارب الساعة يشبه دوران الكواكب في أفلاكها، وإن السعي بين الصفا والمروة إعادة لما قامت به هاجر وهي تبحث عن الماء لرضيعها.. وإن رمي الجمرات تكرار لما فعله سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

إن رؤية من رأى تلك الآثار يضفي على شعورنا بوجود تلك الآثار بعداً جديداً مماثلاً يخفف من غيبيتها بالنسبة إلينا قليلاً، فكأنهم قد رأوها نيابة عنا، فتحقق بعض المراد وإن لم يتحقق كله، إذ ليس الخبر كالمعاينة.

وهذا كله صحيح، ولكن أين الحكمة في ذلك؟ الحكمة التي تقتضي الرحلة الطويلة، والمشقة العظيمة، التي يزيدها أن هذه المناسك يجب أن تؤدى في موسم معين من السنة مما يؤدي إلى التزاحم عليها؟ أليس من الواضح أن التشبه بدوران الكواكب في أفلاكها، وإعادة ما فعله إبراهيم وهاجر لا يستدعي تلك المشقة البالغة؟ أو لم يقل النبي صلى الله عليه وسلم عن الحج: إنه جهاد المرأة والضعيف لما فيه من مشقة وجهد؟

يبدو أن الحكمة المقنعة غائبة هنا، ولكن قد يكون غيابها هو الحكمة بعينها.

عندما يتلقى الإنسان أمراً صادراً عن شخص آخر بفعل شيء ما، سواء كان هذا الشخص صاحب سلطة عليه أو لم يكن، فإنه ينفذ هذا الأمر الذي تلقاه مدفوعاً في أغلب الأحيان بأحد ثلاثة دوافع، أو بمزيج اثنين منها، أو أكثر.

الدافع الأول هو الخوف من عاقبة فورية للعصيان، ويكون التنفيذ خضوعاً للإكراه، والتهديد، والابتزاز، فإنك قد تنفذ أمر لصٍّ مسلح بأن تخرج محفظة نقودك، وتضعها في يده، وقد يتخلى طفل صغير عن لعبة تشبث بها، ويتركها لأخيه عندما يستشعر من نبرة صوت أمه أو أبيه قرب العقوبة.. وقد يغادر الإنسان أرضه وداره حفاظاً على حياته، أو عرضه أو دينه.. والخضوع للإكراه يختلف عن الطاعة.

أما الدافع الثاني الذي قد يقود المرء إلى تنفيذ ما صدر إليه من أوامر، فهو الاقتناع العقلي بهذا الأمر، ورؤية مصلحة له في القيام به، أو أن يكون القيام به يشبع رغبة نفسية لديه، ويرضي هواه. ويكون التنفيذ هنا ناتجا عن موافقة الأمر لهوى الإنسان أو قناعته، فهو طاعة للهوى القلبي، أو القناعة العقلية، أو كليهما، وليس طاعة لصاحب الأمر.

أما الدافع الثالث فهو الطاعة لصاحب الأمر، إذ ينفذ الإنسان الأمر الصادر إليه طاعة للذي أمره، وإرضاء له دون خوف من سيف مسلّط على رقبته، أو إيذاء متوقع عند الرفض، وينفذه بغض النظر عن قناعته بالأمر الذي صدر إليه، وبغض النظر عن موافقته لهواه أو معارضته له.. إنه يطيع مُسلِّماً قياده للذي أمره، لا يقاوم الأمر، ولا يتذمر، ولا يجادل، ولا يتردد. وهذا ما فعله إبراهيم عليه السلام عندما تلقى أمر ربه أن يحمل زوجته الضعيفة هاجر مع ابنها الرضيع إسماعيل عليه السلام، تلك الزوجة الشابة الحبيبة، وذلك الابن الغالي الذي أتى بعد طول انتظار، يحملهما ليتركهما في وادٍ غير ذي زرع حيث لا مؤنس ولا معين.

لقد أطاع إبراهيم عليه السلام، وهو المسلم المثالي في طاعته لله تعالى، ولم ينتظر أن تتبين له الحكمة كي ينفذ أمر الله، على الرغم من أن الأمر كان مخالفاً لهوى قلبه المحب لزوجته وابنه، ومخالفاً لعقله الكبير الذي على الرغم من كبره لا يعلم الغيب.

والطاعة والإسلام لله تعالى كان خلق هاجر عندما تركها إبراهيم مع رضيعها في ذلك الوادي القاحل، واستدار قافلاً فسألته: لمن تتركنا؟ آلله أمرك بهذا؟ فلما قال: نعم، قالت: إذاً لن يضيعنا الله. إنها الطاعة لله والتوكل عليه..

شتان ما بين الاطمئنان يفوز به من رأى، والاطمئنان يناله الذي يرى من رأى!

ما الحكمة من تلك الفريضة التي تحتاج إلى المشقة البالغة، والمال الكثير لأدائها؟

ما الحكمة، وما السر في الطواف حول الكعبة بعكس عقارب الساعة سبعة أشواط؟ وما الأثر النفسي لهذا الطواف؟

وتمر السنون، ويكبر الرضيع، ويصير شابا وقرة عين لأبيه العجوز الكبير.. فيأتيه أمر جديد: أن يذبح ولده الحبيب بيده دون ذنب اقترفه.. إنه أمر يخالف هوى إبراهيم، ذلك الأب المحب الرحيم، ويخالف عقله وقناعته، إذ ما الحكمة التي يمكن لإبراهيم أن يراها في أن يذبح ابنه بيده؟

ولم يكن لدى إبراهيم قناعة أو هوى يوافق هذا الأمر، ولم يكن واقعاً تحت الإكراه والتهديد.. لكن المسلم المثالي هو الذي ينقاد لله ويطيع، ذلك العبد الحقيقي الذي لا يتمرد على خالقه، ولا يتذمر من أوامره، ولا يتردد في تنفيذها..

لم يضع إبراهيم وقتاً، بل نقل الأمر إلى ولده الحبيب ليشاركه طاعة الرب العظيم فقال:{فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى...} (الصافات:102). لم يكن إبراهيم مترددا ينتظر التشجيع، أو التثبيط من إسماعيل، إنما أراد أن يخيّر إسماعيل في أن ينصاع لأمر الله طاعةً واستسلاماً، أو يقوم إبراهيم بتنفيذ أمر الله، سواء تعاون إسماعيل أو قاوم، ولكن إسماعيل سليل الأب المسلم المثالي والأم المسلمة المثالية كان مسلماً حق الإسلام مثلهما، فقال:{... يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ} (الصافات:102).

وفي الطريق إلى مكان الذبح يظهر الشيطان لإبراهيم محاولاً بعث روح التمرد والعصيان فيه، فيرميه إبراهيم ويرجمه بالحجارة عند تلك المواضع التي يرجمها الحجاج.

ويجتاز إبراهيم وإسماعيل اختبار الطاعة لله تعالى، ويفدي الله إسماعيل بذبح عظيم، فالله أرحم من أن يفجع والداً محباً مطيعاً لله مثل إبراهيم بولده وبيده، لكنه البلاء والاختبار.

{فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ{103} وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ{104} قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ{105} إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاء الْمُبِينُ{106} وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ{107}} (الصافات: 103- 107).

أما نحن فإننا عندما نقطع المسافات الشاسعة، وننفق الأموال الطائلة، كي نذهب إلى هناك، ونعيد تمثيل أفعال إبراهيم، وهاجر، وإسماعيل التي تجسدت فيها

إن الطواف حول الكعبة بعكس عقارب الساعة يشبه دوران الكواكب في أفلاكها، وإن السعي بين الصفا والمروة إعادة لما قامت به هاجر وهي تبحث عن الماء لرضيعها.. وإن رمي الجمرات تكرار لما فعله سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام

لقد أطاع إبراهيم عليه السلام، وهو المسلم المثالي في طاعته لله تعالى، ولم ينتظر أن تتبين له الحكمة كي ينفذ أمر الله، على الرغم من أن الأمر كان مخالفاً لهوى قلبه المحب لزوجته وابنه، ومخالفاً لعقله الكبير الذي على الرغم من كبره لا يعلم الغيب

طاعتهم المطلقة لله، طاعة مجردة عن القناعة العقلية، أو الهوى القلبي، إننا عندما نقوم بذلك نقوم بطاعة مماثلة لطاعة إبراهيم، وهاجر، وإسماعيل، إذ نتكبد المشاقّ، ونضحي بالمال من أجل أن نقوم بمناسك لا يرى فيها عقل الإنسان ما يبرر تلك المشقة، والنفقات، والتزاحم، نؤديها بحماسة واندفاع على الرغم من خفاء الحكمة فيها، وغيابها عنا.

فبغياب الحكمة المقنعة من تلك المناسك تتخلص طاعتنا لله في أدائها من أي شائبة تشوبها من طاعتنا لعقولنا أو قلوبنا، فليس فيها ما يشبع الفكر إقناعاً، أو يحرك الأهواء ويستفزها.

هناك حيث يتدافع الأمي مع العالم العبقري ليرمي كل منهما حصياته، وهناك حيث يسعى الرجال والنساء بين كتلتين صغيرتين من الصخر إحداهما الصفا والثانية المروة، ويكررون السعي سبع مرات.

إنها مناسك تتجسد فيها طاعة أسرة نموذجية في إسلامها القياد لله تعالى إسلاماً كاملاً جعلها قدوةً وأسوةً، نسافر إلى هناك من أجل أن نقلد ونحيي بعض أفعالها تقليداً ظاهره البساطة والبدائية، وجوهره الطاعة الحقيقية، على الرغم من الذكاء والثقافة والعلم الراسخ. لذلك يعود المؤمن الذي يحج الحج المبرور من حجه ونفسه أكثر انقياداً لله تعالى؛ وأكثر إسلاما واستسلاما له، فقد مارست الطاعة الحقيقية المطلقة الخالصة لله تعالى، مارستها مع الألوف المؤلفة من المسلمين، ورددت معهم: (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك). إنه إعلان للاستعداد الدائم للاستجابة الفورية لله تعالى دون تردد ولا تذمّر، ولا جدال (لبيك اللهم لبيك).

أليست الحكمة العظيمة كامنة في غياب الحكمة المقنعة من تلك المناسك المعظمة؟! {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ{32}} (الحج: 32)

ترسيخ الهوية الإسلامية :

عندما يصل الإنسان إلى البلوغ العقلي الذي يتزامن في الحالة الطبيعية مع البلوغ الجنسي، يشتد ميله إلى الفردية والاستقلالية، ويأنف من تبعيته السابقة للكبار فيأخذ في المحاولة كي يشق طريقه في الحياة بشكل مستقل وبطريقته

إننا عندما نقوم بذلك نقوم بطاعة مماثلة لطاعة إبراهيم، وهاجر، وإسماعيل، إذ نتكبد المشاقّ، ونضحي بالمال من أجل أن نقوم بمناسك لا يرى فيها عقل الإنسان ما يبرر تلك المشقة، والنفقات، والتزاحم، نؤديها بحماسة واندفاع على الرغم من خفاء الحكمة فيها، وغيابها عنا.

إنها مناسك تتجسد فيها طاعة أسرة نموذجية في إسلامها القياد لله تعالى إسلاماً كاملاً جعلها قدوةً وأسوةً.

الخاصة. في هذه المرحلة تتحدد ملامح الهوية التي يرتضيها لنفسه، وذلك إما نتيجة بحث شخصي ومحاولات يقوم بها المراهق يتشبّه فيها كل مرة بشخص قد أُعجب به، فيقلده في لباسه، أو طريقة كلامه أو نشاطاته حتى يتوصل إلى الصفات والأهداف الحياتية، والمهنة، والآراء، والاتجاهات التي يرضاها لنفسه، ويعتبرها خاصة به يعيش بها ولها.

والذي يعنيه علماء النفس بالهوية هو: جواب الإنسان على سؤاله لنفسه: (من أنا؟ وماذا أريد أن أكون، وأن أحقق في حياتي؟). إن هوية الإنسان تشتمل على مشروع حياته بكل جوانبه كما يحدده هو، أو كما يحدده له المجتمع متمثلاً بوالديه، ومدرّسيه، وباقي مصادر السلطة في المجتمع، ويقبل هو بهذا المشروع، ويحدد هويته على أساسه.

والهوية كما ذكرت تتضمن جواب الإنسان على سؤاله : (من أنا ؟)، وعلى سؤاله: (إلى أين أنا ذاهب في هذه الحياة؟)، وهناك في الحج تتأكد صفة الإسلام كوصف أساسي للمسلم، فلو سأل: من أنا؟ لأسرع الجواب إلى ذهنه مبتدئاً بأنا مسلم.. فالحاج يعيش أياماً عدة مع الآلاف الكثيرة من المسلمين الذين أتوا من كل بلاد العالم، لا يجمعهم هنالك رابط أقوى من إسلامهم وإيمانهم بربٍ واحدٍ ، وكتابٍ واحدٍ، ونبيٍ واحدٍ.

ومع أن إحساس الإنسان بتميزه القومي أو الوطني أو العرقي أو اللوني كمقوّم هام من مقوّمات هويته يشتد إن وجد في بيئة غريبة، في بلد غير بلده، وبين أناس من غير جنسه، فإنه في الحج الذي يأتي فيه المسلمون من كل قطر ولون وعرق ولغة توحدهم ملابس الإحرام، وهتافات: (لبيك اللهم لبيك)، هنالك يضعف إحساس المسلم بكل جوانب هويته التي تميزه عن باقي المسلمين من الشعوب الأخرى أو الأعراق والألوان المختلفة، ويبرز جانب الإسلامية والعبودية الموحدة لله تعالى الطائعة لأوامره، الملبية لندائه، وبذلك تترسخ الصبغة الإسلامية لهوية الحاج، ويتعمق شعوره بالإسلام لله تعالى كمميز له عن البشر الذين تمنعوا عن الانقياد لمولاهم، أو تمردوا عليه وحاربوه.

ولعل هذا أهم أثر نفسي لكون الحج مؤتمراً عاماً سنوياً للمسلمين، إنه مؤتمر، ومخيم، ودورة، وأكثر من ذلك(1).

نسافر إلى هناك من أجل أن نقلد ونحيي بعض أفعالها تقليداً ظاهره البساطة والبدائية، وجوهره الطاعة الحقيقية

يعود المؤمن الذي يحج الحج المبرور من حجه ونفسه أكثر انقياداً لله تعالى؛ وأكثر إسلاما واستسلاما له

أليست الحكمة العظيمة كامنة في غياب الحكمة المقنعة من تلك المناسك المعظمة؟! {ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ{32}}

مغفرة شاملة، وعافية نفسية:

قال صلى الله عليه وسلم: (من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه).(متفق عليه).

وقال أيضاً: (العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة). (متفق عليه).

لقد جعل الله في النفس الإنسانية القدرة على إدراك أخطائها، ومحاسبة ذاتها، فيكون شعورها بذنبها، ولومها لنفسها حافزاً لها، لتتوب، وتصلح ما أفسدت، وتعوّض الآخرين عن إساءتها إليهم.

ولوم النفس يدل على الخير في هذه النفس التي تحاسب ذاتها، وتعترف بخطيئتها .

أما النفس الظالمة المكابرة المتبعة لهواها، فقلما تلوم نفسها، إنما هي دائما تتعامى عن أخطائها وعيوبها وتضع اللوم على الآخرين، وتحمّلهم مسؤولية ما أصابها، وما أصابهم على يدها.

فعندما عصى آدم وزوجه ربهما وأكلا من الشجرة التي نهاهما عنها قالا: {{... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (الأعراف: 23)، أما عندما عصى إبليس ربه ورفض السجود لآدم فإنه اتهم الله أنه أغواه، ورفض إبليس أن يرى خطيئته، بل أنكر مسؤوليته عما فعل، فقال: {.. رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ{39} إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ{40}} (الحجر:39-40) وقال: {.. فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ{16} ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ{17}} (الأعراف: 16-17).

ولأن النفس اللوامة تصدر عن موقف إيماني لا يبطر الحق، ولا يغمط الناس، ولا يستعلي على رب العالمين، موقف من طبعه الإقرار بالحق، لا الكذب على النفس وعلى الغير؛ لأن النفس اللوامة تصدر عن مثل هذا الموقف، فقد أظهر المولى تقديره لها عندما أقسم بها فقال:{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ{1} وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ{2}} (القيامة: 1-2) .

الحاج يعيش أياماً عدة مع الآلاف الكثيرة من المسلمين الذين أتوا من كل بلاد العالم، لا يجمعهم هنالك رابط أقوى من إسلامهم وإيمانهم بربٍ واحدٍ ، وكتابٍ واحدٍ، ونبيٍ واحدٍ.

أن إحساس الإنسان بتميزه القومي أو الوطني أو العرقي أو اللوني كمقوّم هام من مقوّمات هويته يشتد إن وجد في بيئة غريبة، في بلد غير بلده، وبين أناس من غير جنسه

لكن لوم النفس إن زاد عن حده تحول إلى مرض نفسي يشل الإنسان ويثبطه ويصبغ حياته بالكآبة والحزن والقلق وعدم الطمأنينة ، فالذي يغلبه الشعور بالذنب يعيش خائفاً من أن يعاقبه الله في الدنيا والآخرة، ويزداد خوفه من أن يداهمه الموت قبل أن يتحرر من خطاياه، وبذلك يصبح قلقاً، ويكره نفسه لما تسببت به من معاصٍ بحق الخالق وإساءاتٍ بحق الناس فيكتئب.

وعلى الرغم من أن باب التوبة مفتوح دائماً، وعلى الرغم من أن الله قال في الحديث القدسي: (فاستغفروني أغفر لكم) فإن الكثير من النفوس المؤمنة ذات الضمائر الحية يبقى فيها قدر من الشعور بالذنب ولوم النفس، بانتظار طاعة كبرى كالحج، طاعة مجسدة، فيها المشقة والبذل، كي تحس تلك النفوس المتحرجة بأنها قد عوضت عما أخطأت بحق مولاها، فتطمئن إلى أنها رجعت من حجها كيوم ولدت نقية من الخطايا، قد غفر لها، وفتحت لها صفحة جديدة، فيكون في إحساسها ذاك راحة لها، وتحرر من الشعور بالذنب، ولوم النفس، وبالتالي شفاء من القلق والاكتئاب الناتجين عنهما، وهكذا يعود المؤمن من حجه المبرور أكثر عافية نفسية، تملؤه السكينة والطمأنينة، مندفعاً بحماسة ليخطّ في صفحته الجديدة كل فعل خير يرضي الله تعالى.

فالحمد لله الذي شرع لنا الحج، وجعل لنا عليه الأجر العظيم.

في الحج الذي يأتي فيه المسلمون من كل قطر ولون وعرق ولغة توحدهم ملابس الإحرام، وهتافات: (لبيك اللهم لبيك)، هنالك يضعف إحساس المسلم بكل جوانب هويته التي تميزه عن باقي المسلمين من الشعوب الأخرى أو الأعراق والألوان المختلفة

الفصل الثالث :المزيد من الآثار النفسية للحج

إنّ للحج من الآثار النفسية الرائعة في نفس المؤمن ما يبرر ما ينفقه فيه من مال كثير، وما يبذله في أدائه من جهد كبير. ولعل في المشقة والنفقة الكبيرة التي يتطلبها الحج حكمة، إذ إن عدم تيسّر الحج لكل من شاء متى شاء، بالإضافة إلى كونه الركن الخامس من أركان الإسلام، كل ذلك يجعل أداء الحج إنجازاً هاماً في حياة المؤمن.

والإنجاز مطلب نفسي هام في حياة الإنسان، إذ عندما يتساءل إنسان عن معنى حياته، فإن أول مرتبة في مراتب المعنى في الحياة أن تكون حياة مليئة بالإنجازات، لأن ما يحققه الإنسان من إنجازات يجعل حياته ذات معنى، لا حياة ضائعة فارغة، فالإنجاز في الحياة يحمي النفس الإنسانية من القلق العميق؛ الذي

تترسخ الصبغة الإسلامية لهوية الحاج، ويتعمق شعوره بالإسلام لله تعالى كمميز له عن البشر الذين تمنعوا عن الانقياد لمولاهم، أو تمردوا عليه وحاربوه

يمكن أن يثيره فيها الظن أن الحياة كانت بلا معنى، والشعور باللامعنى في حياة الإنسان يسلبه السعادة، وقد يدفعه إلى البحث عن معنى زائفٍ في مجرد اللهو والمتعة، أو في غير ذلك من إنجازات قد لا تكون بريئة، بل قد تكون فاسدة مدمرة.

فلئن كان للإنجازات البشرية الدنيوية الأثر الكبير في إضفاء المعنى على الوجود الإنساني، وفي ملء النفس البشرية بالطمأنينة والسكينة والرضاء، وهي تستعرض إنجازاتها فيما مضى من عمرها، فإنّ الحج يحقق للمؤمن سكينة أعظم؛ إذ هو إنجاز باقٍ، ثوابه الجنة والمغفرة، وارتفاع المنزلة.

ومن ناحية أخرى فإن المؤمن الذي يحقق إنجازاً كبيراً في حياته كالحج يحسّ بالرضا عن نفسه، فيحبها أكثر، على عكس ما يحس به من سخطٍ عليها وكراهيةٍ لها إن وقعت في معصية كبيرة، تجعله يحس بالخزي أمام نفسه، وأمام الناس ويستحي من الله، ويندم على ما فعل.

وإن هذا الرضا عن النفس يزيدها عافية وتوازناً ويحميها من الأمراض النفسية وعيوب الشخصية، بينما السخط عليها وكراهيتها أو ازدراؤها يوقعها في الاكتئاب والقلق، وربما الإدمان وغيرها من العيوب النفسية والسلوكية.

والحج كإنجاز في حياة المؤمن وما يرافقه ويتلوه من الرضا لدى المؤمن عن نفسه، يجعله ينظر إلى نفسه نظرة تقدير واحترام، فيراها نفساً صالحةً، وتكون في نظره جديرة بالتقدير والتوقير لصلاحها وتقواها، وهذا يُحسِّن لدى المؤمن ما يسميه علماء النفس (قدر الذات) Self- Esteem .

وقدر الذات أو احترام الذات يترافق مع التوازن والاستقرار النفسي ويقلل من القلق لديه ، فالإنسان عموماً يزداد قلقه كلما نظر إلى نفسه فوجدها بعيدة عن الصورة المثالية التي يتمناها لها.

والحج وكل عمل صالح يجعل واقع النفس المؤمنة أقرب إلى الصورة المثالية التي يحلم المؤمن في الوصول إليها، وبذلك يقلل العمل الصالح- عموماً والحج خاصةً - من القلق عند المؤمن؛ إذ يملأ نفسه بالرضا عن نفسه، والتوقير والاحترام لها.

لوم النفس إن زاد عن حده تحول إلى مرض نفسي يشل الإنسان ويثبطه ويصبغ حياته بالكآبة والحزن والقلق وعدم الطمأنينة

هكذا يعود المؤمن من حجه المبرور أكثر عافية نفسية، تملؤه السكينة والطمأنينة، مندفعاً بحماسة ليخطّ في صفحته الجديدة كل فعل خير يرضي الله تعالى.

الحمد لله الذي شرع لنا الحج، وجعل لنا عليه الأجر العظيم

وللحج اثر كبير في ترسيخ التقوى في النفس المؤمنة، فالحج التزام Commitment والمؤمن الذي يحج ويتكلف المشقة والمال والوقت يقطع على نفسه خط الرجعة، الذي ربما كان يحتفظ به قبل الحج، حيث كان يحتفظ بمساحة يعطي نفسه فيها بعض أهوائها المحرمة، فتراه ملتزماً بدينه، إنما قد يتراجع بين الحين والآخر استجابة لشهوة، أو لضغط اجتماعي يقع عليه، لكن عندما يحج فإنه يكون قد قرر أنه سيلتزم بدينه التزاماً جيداً، وأنه سيتقي الله ما استطاع، والحج يأتي بمثابة تجسيد لهذا الالتزام، فيكون بمثابة ميثاق وعهد يقطعه المؤمن على نفسه أنه لن يعصي الله بعده.

ومما يزيد دافعية المؤمن للتقوى والالتزام الكامل بعد الحج أن الحج يبيّض صفحة المؤمن فالذي يحج فلا يرفث، ولا يفسق يعود كما ولدته أمه نقياً من ذنوبه، وبياض الصفحة يدعو المؤمن إلى الحفاظ عليها بيضاء نقية، أما امتلاؤها بالمعاصي فيشجع على المزيد من المعاصي؛ لأن من يلبس ثوباً متّسخاً لن يجد مانعاً من الجلوس على أرض وسخة، أو من أن يمسح بقايا طعام أكله بثوبه، فثوبه متّسخ، ولا يبدو له في إضافة المزيد من الأوساخ مشكلة، أما صاحب الثوب الأبيض النقي فإنه يحرص على بياضه ونقائه من أن يتلوّث بشيء، فتراه يتجنب كل ما يمكن أن يدنّس هذا الثوب أو أن يلطخه، وكذلك المؤمن العائد من حجه بالمغفرة الشاملة تزداد الدافعية النفسية لديه للحفاظ على صحيفته بيضاء تزينها الطاعات وتغيب منها المعاصي والخطايا.

وإنّ من طبيعة الإنسان أن نجاحه يقوده إلى المزيد من النجاح، إذ يشجّعه نجاحه الأول على المزيد، وقد لمس حلاوة النجاح، كما يكسبه نجاحه الأول ثقة بإمكاناته وقدرته على المزيد من النجاح، فتزداد همّته للسعي إلى نجاحات أخرى.

ونجاح المؤمن في أداء هذه الطاعة الكبيرة المتمثلة في فريضة الحج، يشجعه على المزيد من الطاعات، ويهوّن عليه الطاعة، إذ قد تمرّس فيها، وجرّبها في أشد أشكالها وضوحاً، وتجسيداً.

خاتمـــــــــة

لعلّ هذه التأملات استطاعت أن تبين إلى أي حدّ يمكن للإسلام أن يلتقي مع ما هو ثابت في علم النفس، بل أن يكون مُلهماً لعالم النفس المسلم يعينه على

الإنجاز مطلب نفسي هام في حياة الإنسان، إذ عندما يتساءل إنسان عن معنى حياته، فإن أول مرتبة في مراتب المعنى في الحياة أن تكون حياة مليئة بالإنجازات

ما يحققه الإنسان من إنجازات يجعل حياته ذات معنى، لا حياة ضائعة فارغة، فالإنجاز في الحياة يحمي النفس الإنسانية من القلق العميق؛ الذي يمكن أن يثيره فيها الظن أن الحياة كانت بلا معنى

الشعور باللامعنى في حياة الإنسان يسلبه السعادة، وقد يدفعه إلى البحث عن معنى زائف في مجرد اللهو والمتعة، أو في غير ذلك من إنجازات قد لا تكون بريئة، بل قد تكون فاسدة مدمرة

وضع الفرضيات، وصياغة النظريات التي ستكون بالتأكيد أكثر قرباً من الحقيقة من نظريات نبتت بعيداً عن هداية الله، ونبعت من أهواء تصرّ على إنكار وجود الخالق كي تبرر كفرها واستنكافها عن شكره على نعمه؛ التي أهمها نعمة الوجود ذاته.

والمسلمون ما يزالون محرومين من الكثير من المنافع التي يمكن لعلم النفس أن يقدمها لهم، وعلم النفس ما يزال محروماً من الكثير من البصائر التي يمكن للمسلمين أن يُثروا بها هذا العلم الناشىء، إذ ينهلون من معين القرآن الكريم والحديث الشريف الذي لا ينضب.

وما يزال الأمل معقوداً على الشباب المسلم الموهوب، الذي يتمتع بالقدرات الذكائية العالية، والميل لدراسة النفس البشرية، وذلك كي يُقبل على العلوم النفسية والاجتماعية التي تعيننا في حياتنا، وفي حلّ مشكلاتنا، وتبليغ ديننا إلى العالمين البلاغ المبين، بالحكمة والموعظة الحسنة كما أمرنا رب العالمين.

وكذلك التي تعيننا في تربية أولادنا على الإسلام على الرغم ممّا يتعرّض له عالمنا الإسلامي من غزو ثقافي يمتلك إمكانيات هائلة.

وتعيننا أيضا في علاج الاضطرابات النفسية التي قد تصيب بعضنا وهو يواجه ضغوط الحياة المعاصرة وتحدياتها.

إنها دعوة أوجّهها لأصحاب الموهبة من شبابنا ليسدّوا هذه الثغرة القائمة في بنياننا الثقافي المعاصر، وليشبعوا هذه الحاجة في أمتنا إلى علوم نفسية على مستوى العصر، تنبع من عقيدتنا أو لا تتعارض معها على الأقل.

والحمد لله رب العالمين.

هامش: (1) يرجع الفضل في بحثي لأثر الحج في الهوية الإسلامية للحاج إلى أخي الدكتور عبد الرحيم حسين هويدي المعالج النفسي بمستشفى أبو ظبي المركزي، إذ لفت نظري إلى هذا الأثر، وشجعني على الكتابة عنه، فجزاه الله خيراً، ونفع المسلمين بعلمه الغزير.

إن هذا الرضا عن النفس يزيدها عافية وتوازناً ويحميها من الأمراض النفسية وعيوب الشخصية، بينما السخط عليها وكراهيتها أو ازدراؤها يوقعها في الاكتئاب والقلق، وربما الإدمان وغيرها من العيوب النفسية والسلوكية

مما يزيد دافعية المؤمن للتقوى والالتزام الكامل بعد الحج أن الحج يبيّض صفحة المؤمن فالذي يحج فلا يرفث، ولا يفسق يعود كما ولدته أمه

سلسلة «وفي أنفسكم»: العدد 40

إصدارات: مؤسسة العلوم النفسية العربية

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف 2015

وفي أنفسكم

لعلكم يتفكرون

40

2015

د. محمـــد كمـــال الشريـــف

- الاختصاص :
- الشهادات العلمية

- الممارسات المهنية:

- المؤلفات الأدبية:

إصـــدارات: مؤسسة العلـــوم النفسيـــة العربيـــة